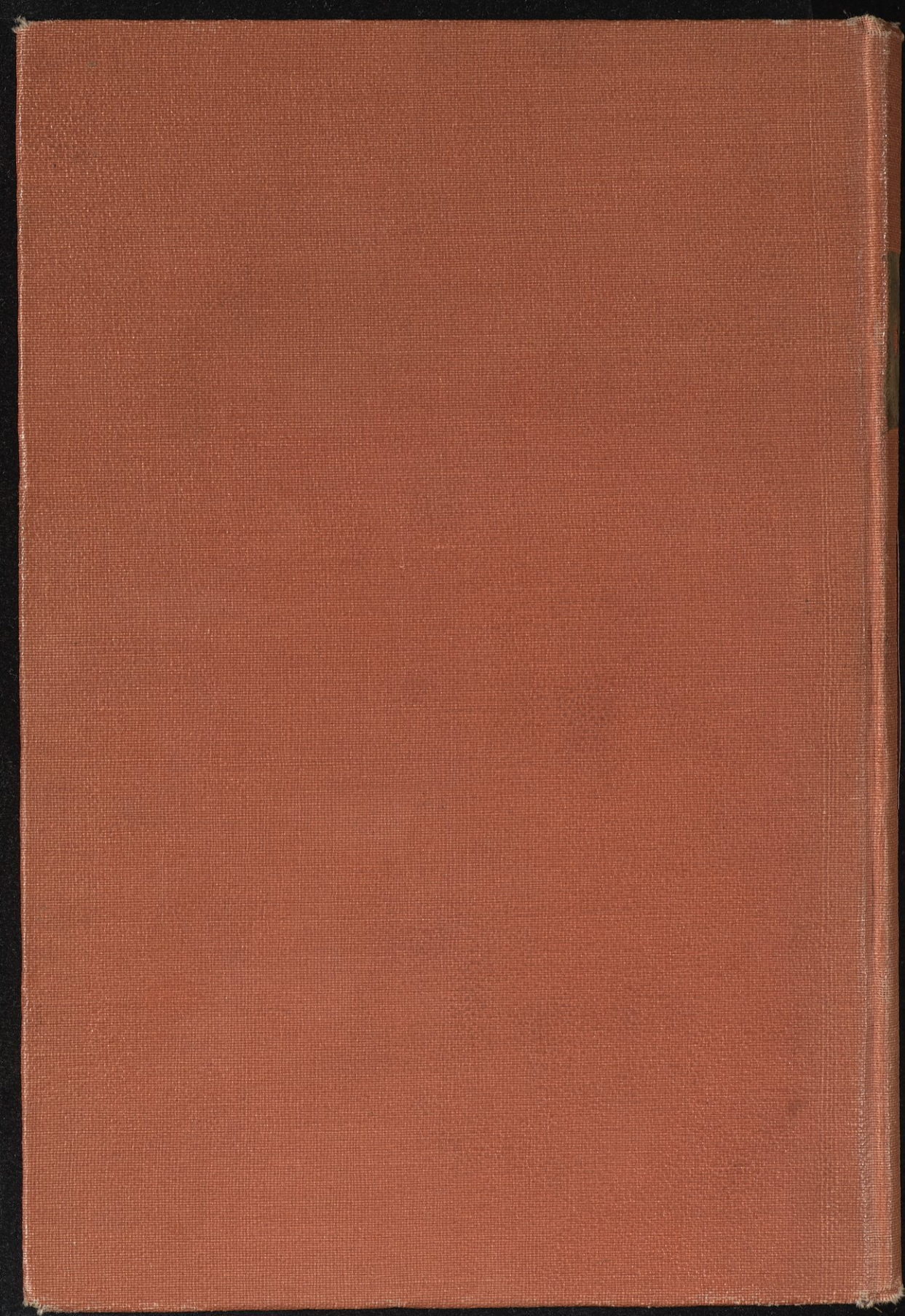




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



قبة مسرة
دار العاق
لعمري
من القارة

2003

1862-1905
Munayyed
Misy (1)

1888
matbas at almaghar (2)

عبد الله بن محمد بن عبد الله

Salah U din Mohammad

39141

PT 10 - 100% Sarkis = 15
23/45

(C)

103

حَضَانَةُ الْإِسْلَامِ

فِي دَارِ السَّلَامِ

تأليف

جميل نخلة المدور

طبعة منقحة

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٢٧

ALBULOO
VT129VIRU
V0A.891

45-35141
February 11, 1947
IM/MHE

893.7M883

R

45-35141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصرا من عصور الاسلام قد أشرق به نور العلم .
وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجالٌ كبراء ملثوا العالم بآثار جمالهم ، وجعلت
الكلام فيها لرحالة فارسي طوّفته معظم البلدان الاسلامية في المائة الثانية للهجرة .
وطوّفته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد كما تراه في موضعه
من الكتاب .

فكان في النفس ومن عزم بعض خلاني على أن أبقى الحديث على لسانه
إلى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيق فيه بتجميل الاسلام من علم وحلم وعفاف .
غير أني كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكاية لا يحلّ جيدها صواب .
ولا يرجع بأسنادها إلى كتاب إذا أقيمت للفرس مراتبهم دولة العباسيين بعد
نكبة البرامكة . لأنني أوجبت على نفسي أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضت
الحال أن تكون . غير واصل الأشياء إلا بصورها ولا ممثل الحوادث والأخبار
إلا بما كان معلّقا في الخواطر جاريا على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت
على الأسباب التي عظمت المسلمين ونهضت بهم إلى فتوح العالم أعرضت عن ذكر
ما دعاهم من بعد إلى التواني والانحطاط . كما أني وقفت فيما وصفت من علومهم
عند حدّ الخبر المجرد من غير أن أتبع في آدابهم آثار الحكمة التي اقتبسوها من يونان ،
ولا أن أتقصي الغاية التي وصلوا إليها من الفنون والصناعات لما لا يخفى من حدوث
ذلك كله بعد الرحلة وما وجب على في تأليفها من النظر إلى عصر الرشيد لا إلى ما بعده
من الأيام .

وقد اتخذت في الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ما وقع في حديث الرحالة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الأقدمين . وإني لأرجو أن ينتفع إخواني بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدني وإياهم إلى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا نص ما كتبت في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب وقد بدا لي بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التي كنت عولت عليها وتحريف في ذكر بعض الوقائع الإسلامية يرجع عيبه إلى السند الذي أخذت عنه فلزم أن أرجع إلى صفحات الكتاب بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل . وإني أشكر إدارة جريدة المؤيد الغراء التي ساعدتني في مراجعاتي لما ورد في هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع في هذه الطبعة الجديدة . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم ونفى عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الأسانيد الضعيفة .

بفاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كله روضة المطالع . وعمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما يقتني لتتزيه النفس . وقد عقدت النية إجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب على متابعة سرد التاريخ الإسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات . وتنسيقها في مثل هذا السبط من درر الآيات البينات . والله يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وهو ولي التوفيق والهادي إلى أقوم طريق .

جميل مدور

كتاب حضارة الاسلام في دار السلام

صفحة

الرسالة الأولى — كتبت في النهروان سنة ١٥٦ للهجرة

- ١ قدومى إلى العراق — ابتداء حديث الرحالة . يذكر قدومه إلى العراق . ولقاءه بعض علمائها
- ٤ ذكر البصرة وأما كتبها المشهورة — وفيه وصف عمران البصرة . وصبر أهلها على طلب العلم
- العرب البادية وتنف من أخبارهم — وفيه ذكر طبائع الأعراب وكرمهم وغفاهم وأنفة نفوسهم واستنكا فهم عن طاعة الملوك . وأن الفرس والروم لم يتغلبوا إلا على المتمصرين
- ٨ من العرب
- الانفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الخجاج — وفيه ذكر مدينة واسط وتنف من أخبار الخجاج
- ١٣ وأنه قوم ملك أمية في العراق والحرمين بمن معه من جنود الشام
- المرو بمذات كسرى أنوشروان — وفيه وصف إيوان كسرى . وتخطئة الخليفة أبي جعفر
- ١٧ في تخريبه . وأن حفظ الأثر الجليل لجميل أثر الملوك الغالبين

الرسالة الثانية — كتبت في بغداد سنة ١٥٧

- مقامى في دار السلام — يذكر الرحالة قدومه إلى بغداد . والتقاءه بالخليفة في بعض المساجد
- ٢٠ مصليا . وتزوله ضيفا على القاضي أبي يوسف
- ذكر شئ من محاسن الزوراء — فيه وصف بغداد وإقليمها وعمرانها . وبلوغ أهلها من السعة
- ٢٣ ما لم تبلغه الأمم المترفة من قبلهم
- في تقربى من رجال الدولة — يذكر الرحالة تقربه من البرامكة وآل المهلب وأمرأ شيبان .
- ودخوله على معن بن زائدة . وما جرى من الحديث بحضرته عن أبي مسلم الخراساني . وأنه
- ٢٧ ما نكب أباه مسلم إلا مبله مع أهل البيت
- لمعة من أخبار أبي جعفر — وفيه أنه يقدم الموالي في مراتب الدولة خوفا من ميل العرب مع
- ٣١ أهل البيت . ويمسك يده عن العطاء ليقعد الناس عن الخروج عليه في دعوتهم
- ذكر الفتوح وأن العدل هو الذى حفظها للمسلمين — وفيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم . وحفظ
- الخلفاء الراشدين سنته . ودخول الناس أفواجا في دين الاسلام . وأن العدل هو الذى
- ٣٤ فتح الدنيا للمسلمين

الرسالة الثالثة — كتبت في بغداد سنة ١٥٨

- للقائى ولى العهد وحظوتى لديه — يذكر الرحالة السبب الذى قرب به من المهدي وهو ولى عهد .
 ٣٨ وإنعام المهدي عليه بضیعة فى السواد ودار فى بغداد تشرف على دجلة
 فى تأديبى الأميرين وما توالى على من نعمة بنى العباس — وفيه أن المهدي أقامه على ولديه
 موسى وهرون مؤدبا وأن الرشيد أشد من الهادي حرصا على طلب العلم
 ٤١ بقية من أخبار أبى جعفر — وفيه سهر الخليفة على تدبير المملكة . وأن قتله العلويين ظلم واقع
 عليه وصلاص الدولة بخالد البرمكى
 ٤٥ فى ركوب الخليفة إلى الحج — وفيه وصف موكبه . وركوبه فى البردة والخاتم والقضيب
 ومصير الأمر فى غيابه إلى المهدي ابنه
 ٤٩ فى ذكر من لقينته من الشعراء — وفيه طرف من أخبار بشار ومروان بن أبى حفصة وأبى العتاهية
 وأبى دلامة وابن المولى والسيد الحميرى وأشجع السلى وذكر شىء من أبياتهم
 ٥٢

الرسالة الرابعة — كتبت فى بغداد سنة ١٦١

وكان الرحالة على أهبة السفر إلى خراسان

- جلوس المهدي على دست الخلافة — يذكر الرحالة شهوده بيعة المهدي . وأن الخلافة صارت
 إليه بحيلة الربيع الذى أوهم الناس لما أودى أبو جعفر بأنه حتى لم يمت فأجابوه إلى البيعة
 مكرهين
 ٦٠ سياسة المهدي وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية — وفيه ذكر ماثر المهدي وحله . ووضع
 ديوان المظالم . ورفع الكسور . واستمالته الناس بالاحسان إليهم . وردده الضياع
 المتقبوضة عنهم . ثم خلعه ابن عمه عن ولاية العهد
 ٦٣ ظهور المهدي بمنصرة العلم — وفيه لإجلاله العلم والدين . واتخاذ أهله الأدب مجالس
 يعرضون فيها بضاعتهم من فن أو علم أو صناعة ثم يميزهم على ذلك بما وسعت يده من الكرم
 ٦٩ ولوع المهدي بمزاولة الصيد — وفيه أن المهدي قد جمع إلى خلافة الملة أهبة الملك . وأنه يخرج
 إلى الصيد فى العدد الثمينة والمواكب النبيلة
 ٧٣ فى تمة أخبار المهدي ورسالتى إلى خراسان — وفيه ذكر حج المهدي . وبنائه الكعبة . وفتح
 يده فى عطاء أهل الحرمين . وسياسته مع أهل البيت ثم ظهور المقنع فى خراسان يدعى
 الربوبية ويستغوى الخلق . وبعثه الرحالة إلى مرو لمقاومة دعوته
 ٧٦

الرسالة الخامسة — كتبت في بغداد سنة ١٨١

والحديث فيها تابع لرسالة كتبت في خراسان ولم تطبع هنا

- طرف من أخبار المهدي والهادي — وفيه يذكر الرحالة عوده إلى بغداد بعد طول الغيبة عنها .
 وما حدث من أخبار المهدي والهادي إلى أن صارت الخلافة إلى الرشيد ٨١
 جمال بغداد بالرشيد والبرامكة — وفيه إقامة الرشيد أبهة الملك . واسترسال أهله في الدعة
 والنعم . وأن البرامكة وأولادهم زينة الملوك ٨٦
 ترف البغاددة وانغماسهم في طيبات العيش — وفيه ذكر تجارتهم مع جميع الأمم واجتماع محاسن
 الدنيا عندهم وإقامة النخاسين سوقا لبيع الجوارى في مدينتهم ٩٠
 دخول على هرون الرشيد — يذكر الرحالة ما لقي من أنس الرشيد به . وما وجد بنفسه من
 الاضطراب في تقديم المأمون على الأمين بالولاية مع أن بني هاشم ماثلون إلى الأمين ... ٩٢
 الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر — وفيه أن الرشيد من فضلاء الملوك وعقلائهم . وأنه أصلح
 من جده المنصور سياسة . يقيم في الرعية سلطانه بسياسة الرفق اتساعا بالجميل وتقربا من
 الخير . فلم ولا ظم ورفق ولا عنف ٩٦
 البرامكة نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها — وفيه أن الدولة قائمة بجحي البرمكي . وأن إصدار
 الأمور إلى الفضل وجعفر . وأن النواد الذي بين الرشيد وجعفر لم يكن مثله بين أخوين ... ٩٩
 صلاح التجارة والمعاملة — وفيه كلام عن السكة . وما قام به الرشيد من تقديرها بعد أن
 تقاحش الغش في التجارة . وما كان في نيته من فتح البحر عند السويس لوصل البحر
 الرومي ببحر القلزم ١٠٧
 زينة الدولة بالعلم والأدب — وفيه ذكر محاسن دولة الرشيد . وأنه اجتمع ببابه من العلماء
 والادباء والشعراء ما لم يجتمع على باب خليفة غيره قط وأن زينة مجالسه ثلاثة أبو نواس
 والأصمعي وإسحق النديم . كلهم إمام في الأدب ولكن غلب على أبي نواس الشعر وعلى
 إسحق الغناء وعلى الأصمعي النوادر والأخبار ١١٢

الرسالة السادسة — كتبت في بغداد سنة ١٨٥

- بيت الرشيد — وفيه صلاح الرشيد وتقواه . وذكر مواليه وجواريه وترف ذويه وذكاه
 المأمون من أولاده . وتعلق أمور بيته بمسرور العبد . وصنع زبيدة زوجه أعمالا يتباهى
 بها الملوك ١١٩
 جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم — وفيه مساماة دورهم دور الرشيد في البهاء والاشراق . وقصد
 المؤمنين إليهم من أبعد الآفاق . وذهاب كرمهم مثلا في سعة العطاء والانفاق ١٢٧

- الدولة في خلافة الرشيد — وفيه أن دولة الرشيد أوسع دول الخلفاء رقعة مملكة . وأنه يغالب
الروم ويسلط عليهم سيف الاسلام ليس طمعا فيما يحملون إليه من الجزية ولكن لتعزيز الملة
والدولة . وأن السياسة التي اتبعت خاطره كانت متجهة إلى إذلال العلويين في المغرب ... ١٣٥
- عمران بيت المال — وفيه ذكر المحمول من عين وورق وأمنعة إلى بيت المال . وتدوين
الخراج في الدفاتر لايجاد الموازنة بين دخل الدولة ونخرجها ... ١٤١
- مجلس الغناء بدار الرشيد — وفيه خبر الخلاف الذي وقع بين إبراهيم المهدي وإسحق التميمي
في صناعة الأصوات . وأن هذه المناظرة داعية إلى الاجادة في الغناء ... ١٤٥

الرسالة السابعة — كتبت في بغداد سنة ١٨٥

- في ذكر آداب العرب — وفيه يذكر الرحالة شهوده مجالس الأدباء والشعراء بدار الرشيد .
وتعريب البرامكة كتب الفلاسفة من قوم يونان . وبلغ العرب الغاية التي يرومونها من علم
أو أدب أو صناعة في أقصر مدة من الزمان . وأن مثلهم في سرعة تحصيل العلوم مثلهم
في سرعة فتوح البلدان ... ١٥٩
- الطب والأطباء — وفيه أن النصارى برعوا المسلمين في الطب . وتقدموا عليهم بذلك
في دور الخلافة ... ١٦٢
- النجامة وعلم الأفلاك — وفيه أن الفرس برعوا العرب في علم النجامة وأن المقرب لهم في الاسلام
الخليفة أبو جعفر . وأن أحمد النباهندي صور الدنيا للرشيد ... ١٦٥
- الحديث وعلوم الشرع — وفيه أن الحديث هو العلم الذي صبت إليه أفئدة المسلمين . وأن مالكا
أصح الناس حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ... ١٦٩
- في تدوين اللغة — وفيه أن اللغة إنما قيدت اضطرارا إلى تفسير القرآن . وأن السابق إلى
تدوينها هو الخليل بن أحمد . وأن أهل الوري يحافظون على قوام اللسان العربي . وأن
كلام السوق والمعربين داخل في لغة الحضارة ... ١٧٢
- الشعر في البداوة — وفيه ملكة العرب في قول الشعر ونظر في المعلقات السبع . وإجادة
الشعراء في ذكر الربوع والأطلال ووحشة الديار إلى حيث يقف حد البلاغة ... ١٧٥
- للشعر في الحضارة — وفيه أن الشعر في الحضرة أرق منه في البداوة . وأن أزمته في الاسلام
ثلاثة: زمن عبد الملك وشعره جري والفرزدق والأخطل . وزمن المنصور وشعره من
تقدم ذكرهم . وزمن البرامكة والكلام في شعر أبي نواس وأبي العتاهية ... ١٨١
- الغناء وبحريه وإصلاحه — وفيه يميز الأصوات . وذكر من كان أصل الغناء عند العرب
ومكانة إبراهيم الموصلي وابنه إسحق من هذه الصناعة ... ١٨٨

- لمعة في علوم الفلاسفة عند العرب — وفيه إشارة إلى ما حصله العرب من العلوم الرياضية .
 ١٩٣ العلوم المنطقية والعلوم الطبيعية . والعلوم الإلهية وذكر ما لهم فيها من تعريب أو تأليف ...
 أدب السير والحكايات — وفيه ثناء جميل على كتاب كاتبة ودمية . ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة
 وتعريبه عن الفارسية . وتصرف النساخ فيه وأنه من أطرف الكتب التي وضعت في غابر
 الدهر
 ١٩٨ تدوين الأخبار وأيام الناس — وفيه أن أيام العرب كانت مخفوفة في الشعر أو متناقلة على
 الألسنة بطريق الاستناد إلى أن سطرت في الكتب في زمن الخلفاء
 ٢٠٦

الرسالة الثامنة — كتبت في بحر تونس سنة ١٨٦

بعد انصراف الرحالة من بلاد الروم

- وسألتني إلى قيصر الروم — وفيه ذكر ألطاف الرشيد إلى قيصر الروم . وأن الرحالة هو الذي
 حملها إليه . وبلغه ما يريد الرشيد من موافقته على بنى أمية ليترفع الأندلس من أيديهم ...
 ٢١١ المرور بالكوفة وبلاد الشام — وفيه ذكر مسير الرحالة إلى الكوفة . وحب الكوفيين
 لأهل البيت . وشيء من محاسن الشام وأنها بلاد مباركة من الله ولكن غلب على أهلها
 الشقاق فغلبتهم الأم على مملكتهم
 ٢١٤ وصف دمشق وأنها بهجة البلدان — وفيه أن دمشق ماء ونماء . وأن أهلها أحسن الناس خلقا
 وخلقا . وذكر تنف من أخبار بنى أمية حدث بها الرحالة مغنية كانت للوليد بن يزيد ...
 ٢١٩ جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي — وفيه أن الوليد بن عبد الملك عوض النصارى عن
 نصف الكنيسة التي كانت موضع هذا الجامع بعدة كنائس صالحهم عليها . وأنه استقدم لبنائه
 صناع الروم . وأقام فيه العمدة المجزعة وصور على الحيطان المدن والأشجار والأزهار .
 واتخذ فيه قناديل الذهب وصيره زهرة العالم
 ٢٢٦ المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت — وفيه وصف آثار بعلبك وأنها من بناء الروم لا من
 بناء سلمان . وقد رفعوها بالحيل الهندسية والقوة الآدمية وقصدوا منها المعجزة ليظهروا
 ضخامة ملكهم لأهل المشرق . وفيه كلام على بيروت وأنها مدينة العلم والحكمة
 ٢٣٠ لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة — وفيه بيان عادات الفرنجة وادثار علومهم في ذلك الوقت
 إلا ما حفظ الرهبان في أديارهم . وذكر لقاء القيصر . وأن خاطره يتوافق مع خاطر جعفر
 البرمكي في العدول عن مناجزة الأمويين
 ٢٣٥

الرسالة التاسعة — كتبت في المشاعر المباركة سنة ١٨٦

- المرور بتونس من بلاد المغرب — وفيه خبر الأغلبة في تونس . واستقواء أهل البيت
 في المغرب . وذكر القرآن الذي كتبه عثمان بمحض من الصحابة
 ٢٤٢

- في ذكر الاسكندرية — ومعاشر النصارى فيها من الرغد . واختلاطهم مع المسلمين وجهرهم
 بالانجيل وإخراج آيتهم إلى الأسواق... ٢٤٥ ...
- الديار المصرية والتيل — وفيه وصف البلاد . وعمرانها بالناس واتساع أسباب الكسب
 وما يفيض عليها من الخير والبركة... ٢٤٩ ...
- في وصف الأهرام — وفيه صفة الأهرام . وبنائها لحدودا للقراعة الذين كانوا يقولون
 بالرجعة إلى هذه الديار . وأن مئوها دليل على ظلم القراعة واشتداد أمرهم على الرعية... ٢٥٣ ...
- إلى عذاب بخلة فالبلد الحرام — وفيه اجتياز الرحالة بأرض مصر إلى عذاب في طرف البر .
 وما كان من احتياله لاستصحاب الماء إلى الصحراء... ٢٥٦ ...
- في ذكر المشاعر المباركة — وفيه وصف مكة المكرمة . وتبرك الرحالة بوفادته على البيت الحرام
 وذكر ما أحدث فيه من البناء... ٢٦٢ ...
- موافاة الرشيد بالمدينة — وفيه وصف المدينة المنورة وما حوت من المشاهد الكريمة والآثار
 المباركة... ٢٦٧ ...
- الرشيد والبرامكة في مكة — وفيه تحول الرشيد عن البرامكة بحيلة الفضل بن الربيع الذي أوغر
 صدره عليهم من العداوة ومصانعة الرشيد لجعفر حتى لا ينتبه إلى ما يريد به من المكروه .
 وإبعاده الرحالة عن البرامكة في رسالة بعثه بها إلى الرقة... ٢٧١ ...

الرسالة العاشرة — كتبت في بغداد سنة ١٨٧ للهجرة

أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم سقى إذا انقطع الغمام

- وفيه رجوع الرحالة متخفياً إلى بغداد وقتل جعفر البرمكي... ٢٧٦ ... وطلب الرشيد الرحالة لينكل به
 وفروع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة — وفيه عم الخطب في الدولة بعد نكبتهم . ومصير
 الأمر بعدهم إلى رجال لا عزمة عندهم ولا عزيمة . واتفاق الناس صدعا واحدا في لوم
 الرشيد على قتلهم... ٢٨٢ ...
- فما يتحدث به الناس من أسباب فتن الرشيد بالبرامكة — وفيه يذكر ما دار على ألسنة العوام
 من سبب نكبتهم . ويذكر أنه ما نكب البرامكة إلا ميلهم مع أهل البيت... ٢٩٠ ...
- خاتمة الكتاب — يحتم الرحالة حديثه بنظرة عامة في الاسلام وانحيازه إلى دول ثلاث كبيرة
 "العلوية والأموية" :

- ثم ينظر في أحوال العباسيين ويذكر حيلهم إلى خلافة الرشيد ويقول إن دولتهم تحتاج إلى رجال
 عقلاء يديرون سياستها ويديرون أمرها . وأنها إذا سقطت في يد خليفة قليل الخبرة بأمور
 الملك لا تقوم لها قائمة بعد ذلك . وهذا آخر الكتاب... ٢٩٥ ...
- جدول الكتب المسند إليها حديث الرسالة... ٢٩٨ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى

قدومى إلى العراق

أتيت مدينة السلام في السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لأتخرج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن إبراهيم بن خنيس الأنصارى^(١) ، وكان خليلاً لأبى (رحمه الله) على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين ، فركبت البحر من هُرْمُز في ريح رُخاء زجتُ مركبنا إلى البحرين فأطراف العراق أهنأ ترجية ، فلما حاذينا الساحل مما يلي البصرة طلعت علينا ريح عاصفة ، وانحدر بنا الموج إلى منعرج في البر كله رمال ومهاوى ماء . فبتنا ليلتنا فيه على أشد ما يكون من الخوف إلى أن طلع الفجر ، فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة حملتنا إلى عبادان ، وأرست بنا على مُطَلٍّ من خشبات تنتهى المراكب إليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر^(٢) لئلا تلحق بالأرض وتغوص في الطين الذى يأتى دجلة به^(٣) في انسيابه ، وهذا البحر في مسامحة العراق شديد على السفر ، ولا يُحمد منه إلا عُمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات^(٤) الدر والياقوت والعقيق

(١) هو أبو يوسف القاضى .

(٢) المسعودى ١ : ٥٠ .

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ .

(٤) ابن خرداذبة ٦١ والمسعودى ١ : ٥٢ .

وغير ذلك ، وهى باب واسع لطلاب الرزق ، وللغواصين عليها أخبار غريبة
فما سمعت ، حتى قيل إنهم يشقون آذانهم للتنفس ويجعلون فى آناهم القطن
ويصطنعون وجوها من الذَّبل كالمشاقيص ، ويدهنون أبدانهم بالسواد خوفا من
أن تبتلعهم دواب البحر ، ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم ،
فاذا بلغوا القعر عصروا دهنا يضىء منه البحر ليرى الأصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ ،
وتكون مدفونة فى أرض البحر رملا كانت أو طينا . ومما يزعمون^(١) فى هذا اللؤلؤ
أن تولده من مطر نيسان إذ تكون الصدف مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها
القطرات فتترى فيها دررا رائقة الصفاء .

ولما أخذت نصيبا من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البصرة ونزلت بها
فى موضع^(٢) يعرف بسكة بنى سمرة بازاء دار الهيثم بن معاوية أميرها . وقد طاب لى
فيها المقام بما وجدت من ائتناس أهلها إلى الغريب حتى ينسى فى جوارهم أهله^(٣)
بما يأنس عندهم من مظاهر الأتس والمودة ، ووجدت لهم صبورا على طلب العلم
يتخذون المكاتب^(٤) لأولادهم وحلق العلم لأدبائهم ، وتشدد إليهم رجال الطلب من
جميع الوجوه ، لأن لهم من الأدب المكان الذى لا يُرقى ، غير أنى لم أرفيهم إلا
وهن البنية سقيمها وأصفر اللون كاسفه^(٥) ، وذلك ناشئ فيهم من عفونة الماء
ووقوع إقليمهم فى مهاب الرياح المختلفة التى تبدل فى اليوم الواحد ألوانا وضروبا ،
فيجبرون على لبس القمصان مرة والمبطنات أخرى ، ولذلك سميت مدينتهم
بالرعاء ، أشد الفرزدق^(٦) :

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء لى وطنا

(١) الديميرى والقزوينى والقرمانى .

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٣) ابن بطوطة ٢ : ١٠

(٤) الأنبهى ١ : ١٧٧

(٥) الأغاني ١٧ : ٧٨

(٦) ابن بطوطة ٢ : ١٦

وقد لقيت فيها جماعة كثيرة من الأدباء مثل عبد الكريم بن أبي العوجاء والمؤرّج السدوسي الرواية ، والحسن بن هاني الشاعر^(١) والنضر بن شمّيل تلميذ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذي اعترل مجلس الحسن البصري لمخالفة في المذهب ثم سمي الناس من ذهب مذهبه بالمعتزلة^(٢) لذلك ، وشهدت حلقة عتبة القحوي وأبي زيد الأنصاري ويونس النحوي ، وله أعظم^(٣) حلقة في البصرة من حلق علمائها ، وسمعت الحديث عن سفيان بن شعبة الثوري وشعبة بن الحجاج العتكي ، غير أني ما اصطفت منهم لمحدثات الأدب إلا الخليل بن أحمد ، لأنني وجدته أوسعهم عقلاً^(٤) ، وأحضرهم رواية ، لا يساميه في علو الخاطر إلا صالح ابن عبد القدوس الشاعر ، ولكنني تحاميت مجلسه لما يتم به من الانحراف عن السنة^(٥) ، وإن كنت لا أبخس عقله حقه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجهد نفسه في طلب الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلا بعد عصب الريق وفي قوله :

لو يَرْزُقُون النَّاسَ حَسَبَ عَقُولِهِمْ أَلَقَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى يَصَّدِّقُ

إشارة إلى ما هوفيه ، وأن النعمة تصيب غير أهلها ، بخلاف الخليل بن أحمد فإنه متقلل من الدنيا راض منها باليسير ، والملوك تبذل له المال^(٦) ولا يقبل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة إليه . وقد اشتهر فضله بين الناس بعلم العروض ، وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الأبحر الخمسة عشر ، غير أن سموه في العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده ، إذ له في اللغة كتاب سماه العين وأودعه من عيون العلم^(٧) ما هو زينة وفخر لدولة الاسلام .

(١) هو أبو نواس ذكر الأغاني ٦ : ١٧٩ أنه كان مقماً بالبصرة في صباه .

(٢) المستطرف ١ : ١٢٦

(٣) العقد ٣ : ١٣٧

(٤) ابن خلكان ١ : ٢١١

(٥) الأغاني ١٣ : ١٥

(٦) الشريشي ٢ : ٢٦٨ والأبشهي ١ : ١٧٦

(٧) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١

ذكر البصرة وأماكنها المشهورة

ولقد ظننت البصرة لأول وهلة ليست بالمفرطة الكبر ، فلما طفت في ساحاتها ، وجأت في أرباضها ومحلاتها ، بدا لي أنها متسعة البقعة كثيرة العمران ، قل أن يكون بها موضع غُفِّل من العمارة خلو من السكان . ومبانيها على الغالب من اللبن إلا ما كان من المسجد الجامع فانه مبني بالصخر والحص على أتم إحكام وأبدع صناعة ، وأول من بناه عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ، أقامه من القصباء لأجل أن ينزعه متى شاء ثم يعيد إقامته ، فلما جاء أبو موسى الأشعري بناه باللبن وطلى جدرانه بالأصباغ . ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفة التي في مقدم المسجد ^(١) ، وحمل إليه العمدة المزخرقة من الأهواز ورفع جدرانه بالحجر والحص ^(٢) ، ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمت زينته وكثرت له الوقوف الواسعة . وفيه اليوم قاض يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم وعشرين دينارا فما دونها ^(٣) تخفيفا عن الدواوين التي تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس .

ثم سرت من هذا الجامع إلى مسجد علي عليه السلام ، وإذا صحنه مفروش بالحصباء الحمراء ، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفرس ومن يقول بخلافة أهل البيت ، وهم يجتمعون فيه ويتبركون بمزاره ، كأَن وعيدَ أبي جعفر لم يحد منهم نفوسا راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية والعباسية . ووجدت في بعض مقاصيره مصحفا عليه أثر داغ مثل الدم الجاف ، يقال إنه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قتل ^(٤) ، وبعد أن قضيت زيارته المباركة جلت في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج ، ولا غرو

(١) الاغانى ١٧ : ٢٨

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٢

(٣) الماوردى ١٢٣

(٤) ابن بطوطة ٣ : ١٠

فإن هي إلا فُرْصَةُ العراق والشام وخراسان وما إليها من البلدان العالية مما يكسبها حسن الموقع ، بحيث لا يصدر شيء من هذه البلدان ولا يرد إليها إلا من البصرة ^(١) ، ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبة الاسلام .

ومما يذكر عن بنائها ما حدثني به الهيثم أميرها أن المسلمين افتقروا في صدر الدولة إلى منزل يتزلون به وإذا دهمهم عدو لحثوا إليه واعتصموا به ، فبعث عمر (رضي الله عنه) عتبة بن غزوان المقدّم ذكره وأوعز إليه أن ارتد لنا موضعا في جهة العراق قريبا من المرعى والماء والمختطب ، فكتب له من البصرة إنى وجدت أرضا كثيرة القضة في طرف البر إلى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء ^(٢) . فكتب إليه عمر أن يتزها بمن معه فوقع تمصيرها في السنة الخامسة عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما جلست إلى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأول ، أخبرني أن البصرة إنما اختطها العرب نكاية بالفرس لتحويل التجارة من سواحلهم إليها ، وذلك أنهم لما صالت منهم الأجناد ، واتسعت بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة فُرْصَةً لجميع المشرق ، ففشت العارة فيها في برهة يسيرة حتى غصّت بالناس على ما رحبت أرجاؤها . يقال إنه كان فيها من مقاتلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفا ^(٣) ، وأخبرني الهيثم أن أهلها يبلغون اليوم خمسمائة ألف من الرجال ، بدليل المال الذي فرقه فيهم أبو جعفر ، وكان ألف ألف درهم فلم يصب الرأس منهم إلا درهمين ^(٤) .

(١) المسعودي والقزويني .

(٢) ياقوت وابن حوقل ١٥٩

(٣) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٤) الشريشي ٢ : ٤٣١

وتبعد البصرة عن عبادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية ، وعندها تختلط مياه دجلة والفرات ^(١) وتصب في البحر الملح بعد أن تفقد عذوبتها ، لأن المد يأتي إلى ما فوق البصرة بأميل ، فاذا امتزج به ماء دجلة صار ملحا ^(٢) ، ولقد يخال الرائي لأول وقوع المد أن البلاد صارت غديرا ، كما وقع لحمزة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير ، وقد ركب يوما إلى الفيض ، فقال : إن هذا الغدير إن رفقوا به يكفهم صيفهم هذه ، فلما كان بعد ذلك ركب إليه فوافقه جازرا فقال قد رأيته ذات يوم فظننت أن لن يكفهم ، فقال له الأحنف بن قيس : أيها الأمير إن هذا الماء يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود ، فنجل حمزة ، وعاب عليه الشعراء ذلك في أبيات لهم يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفحت في البصرة كثيرا من قصورها المشرفة ، واستقرت أماكنها المشهورة بما وعيت عنها من الأنباء ، وأحسن ما استظرفت منها قصر لحمد بن سليمان الهاشمي ^(٣) ، وهو أوفر بنى العباس مالا وأعطاهم لشاعر نوالا ، تغل ضياعه كل يوم مائة ألف درهم ^(٤) ، وقد بناه على بعض الأنهار واستفرغ في زينته جهده ، واتخذ في جنانه المها والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة ، بجمع فيه محاسن الحضارة والبداءة ، وفيه يقول الشعراء :

زروادى القصر نعم القصر والوادی فی منزل حاضر إن شئت أو بادی
ترقی به السفن والظلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادی
إلى آخر الأبيات .

وأما القصور التي بقيت بعد أربابها فانها لكثيرة في البصرة شاهدت منها قصرا لأوس بن ثعلبة ^(٥) الذي ولي العراق وخراسان في دولة الأمويين ، وهو قريب

(١) المقدمة ٥٥

(٢) القزويني والاصطخري والمسعودي .

(٣) ياقوت .

(٤) المسعودي .

(٥) الأغاني ٣ : ٣٦ وياقوت .

من المربد^(١) ، وعليه قباب مرفوعة يَغص الجوّ بها صعودا ، ومن حوله خمائل
وارفة ، كأن الأيام تزيدها جدّة ونضارة ، وتلبسها من الخضرة حلة قشبية .
ولله ابن أبي عيّنة حيث يقول في وصفها هذه الأبيات :

بغرس كأبكار الجوارى وتربةً كأن ثراها ماء ورد على مسك
يذكرني الفردوس طورا فأرعوى وطورا يواتيني إلى القصف والهتك
وسرّ من الغزلان يرتعن حوله كما استلّ منظوم من الدر من سلك
وورقاء تحكى الموصلى إذا غدت بتغريدها أحجب بها وبمن تحكى
فياطيب ذاك القصير قصرا ونزهة بأفيح سهل غير وعز ولا ضنك

وشاهدت قصر الأحنف بن قيس^(٢) المقدم ذكره في رجة المنجاب^(٣) ،
ودارا لأنس بن مالك^(٤) خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإيوانا للزبير بن العوام^(٥)
تنزله التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وآخر لعبيد الله
ابن زياد يسمى البيضاء^(٦) ، وهو بمقربة من الموضع الذي خطب فيه أبوه خطبته
البتراء^(٧) التي أخذت بقلوب البصريين وقد تداعت جدرانها فلم يبق منه إلا أثر
دارس ورسم شاخص .

(١) الأغاني ١٣ : ١٠

(٢) الأغاني ١٧ : ٥٦

(٣) محلة ذكرها الأغاني ١٢ : ٣

(٤) ياقوت ٤ : ١٠٩

(٥) المقدمة ١٧٨ والمسعودي ١ : ٣٣٣

(٦) القزويني ٢٠٦

(٧) سميت بذلك لأنه لم يفتحها بالحمد لله والثناء عليه .

العرب البادية وتنف من أخبارهم

ولقد أتيت مِربد البصرة عن طريق المهالبة (١) فسكة المِربد (٢) ، فاذا هو
 مساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال ، وتحط بها الرحال ، وتعلق فيها الأشعار التي يتناشدها
 العربُ في أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالس ويبيعون ويشترون (٣) ،
 وهناك موضع يقال له شمس الوزانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الأنصار (٤) ،
 قد طلي بالأصباغ ولم ترفع صوامعه إلا قليلا ، ووجدت صحراء البصرة من وراء
 المِربد وعرة مرملة لا يغرد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل لفقدان الماء
 فيها ، وخبرات البصرة تردها من الأبلّة ، وهي مدينة عامرة بالناس خصبة
 الجنبات كريمة البقعة يشقها جدول من دجلة ولا تحترق أشعة الشمس أرضها
 لالتفاف شجرها بعضه على بعض ، وفي مرساها مجتمع كثير من مراكب
 الهند والصين ، لأن الرّيح فيها واسع لأهل التجارة . وأما النخيل المتصل فيما بينها
 إلى البصرة فأعلى الصحراء فانه كسب وافر للناس ، يقال إن ثمنه يعدل (٥)
 ما يحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة .

وإلى ما وراء المِربد في ظاهر البصرة عرب من عامي (٦) وقيس عيلان كنت
 أختلف إلى أحيائهم وأبيت ليلتي عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان
 نوقهم وأجلس على الوبر والأنطاع ، وأعي أحاديثهم باقبال واستمتاع ، وأشهد خلق
 القصّاص فيما يتحدثون به من أيام العرب وأخبارهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف
 الخطب وقول الشعر والسياف والضياف ، ولا يهتئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبع

(١) الاتليدي ١٠٧

(٢) الأغاني ١٢ : ٦٤

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ والأغاني ٥٠٧

(٤) الأغاني ١٧ : ١٨

(٥) ياقوت ١ : ٦٥٠

(٦) في الأغاني ٤ : ١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريبا من ذلك الوقت .

فيهم أو فرس تُنتَج، وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل (١) وذكر هؤلاء القصاص أن جميلاً لما سأله خُلائه أن ما عملت مع بُنيّة طول تلك الأيام قال كنت أمتع عيني من وجهها وسمعي من حديثها، ولم أمد إليها يداً غير مرة واحدة، أخذت يدها ورفعتها إلى صدرى لتشعر بخفقان قلبي (٢)، وهذا خبر ينقلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه إليك ليدلك على ما وضعه الله في صدورهم من نبل الهمة وعفاف النفس .

وقد بقي في خاطري ذكر عذب لاجتماعي بهؤلاء العرب، وقد طاب لي الجلوس إلى قيس عيلان أكثر منه إلى بني عامر، لأنني وجدت فيهم بيانا وفصاحة (٣) غير أنهم لم يلبثوا في البصرة إلا قليلاً حتى شالت نعامتهم، فصرت أتوجه إلى بني عامر وعرفت بالمقام بينهم كثيراً من خلال العرب المحموده، وقد أعظمت رواج الأدب بينهم، والكتابة عندهم مفقودة (٤) غير أنهم يحرون على قواعد اللغة في أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس في الإمكان أصح منه، ولهم في كلامهم من الأمثال الحكيمة ما لم نجده في كثير من أمم العلم والحضارة، فيمرق الكلام من أفواههم مروق السهم من الوتر كما يقولون، وهم أصح الناس أبداناً، لأن الظعن كفيل لهم بطيب الرياح التي لا تجبث إلا مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات (٥) ولأن طعامهم اللبن والتمر والقليل من اللحم، وما يمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلب إلى أبدانهم العلل (٦)،

(١) تزيين الأسواق .

(٢) تزيين الأسواق ٢ : ٩ .

(٣) الأغاني ٣ : ٥٣ .

(٤) أى عند عرب البادية لأنه يعرف أن المتصرين كانوا يكتبون قديماً بالحروف الفهلوية التي كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحميرية إلى أن استبدلوا بها الكتابة الكوفية في صدر الإسلام ويقال إن أيوب الصديق إنما كتب حديثه بلسان العرب ٥ هـ .

(٥) المسعودي والمقدمة .

(٦) قال في العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان العربان . وما لذلك علة

الا التخفف من الزاد .

واكثرهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحمر الوحشية عدواً ، فلقد سمعت من يحدث عن تأبط شرا أنه كان إذا جاع نظر في السهل إلى الطباء فالتقى لنفسه أسنمها ، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه (١) ، وربما حدث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشنفرى وعمرو بن براق وغيرهما من العدائين .

ووجدت لهم من الصفات الحسان التي تحدثها فيهم شهامة النفس ما ليس يجتمع في غيرهم من الأمم اجتماعه فيهم ، فهم يحمون الذمار ، ويمنعون الجار ولا يغمضون على الذل كما هو معروف عنهم في الأشعار ، فلائيموتوا قتلا تحت ظلال السيوف ، أحب إليهم من البقاء في ربة الذل والخنوف . يقول عمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات :

إذا ما المَلِكُ سام النَّاسَ خَسُفاً أبينا أن نُقِرَّ الخسفَ فينا

إلى غير ذلك من الأبيات المعروفة ، وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على نفوسهم العهود ، ويأخذون بثأرهم أخذاً شديداً ، وذلك ناشئ فيهم من بعدهم عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام لفسد البأس فيهم ، وذهبت المنعة منهم (٢) ، ولكن ذلك قد يدعوهم إلى التفانى على غير رمة إلا الحصول على الرخيص مما يبذلون في سبيله من النفيس ، كآثارهم لأجل امرأة أوفرس أو بيع قتلا يستمر أعواماً طويلاً بين عشائهم ، حتى إذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه الشامل نهاهم عن القتال في الأشهر الحرم فنقص فيهم من القتل ما يقع في أربعة شهور من القتال ، والله رءوف بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرم والسماحة ، حتى إنهم ليضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ، ولو كان النزلاء قتلة آبائهم (٣) ،

(١) الأغاني ١٢ : ٤٩

(٢) المقدمة ١٠٩

(٣) الأغاني والالتلیدی .

وربما توسعوا في أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وُغصّة
عند ارتحاله ، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم :

وإنا لنقرى الضيف قبل نزوله ونُشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار .
فلما نزلت بجوارهم تحققتهم بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن كلهم كريم ، حتى
لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحدا في الناس ^(١) ، ومن زعم أن حاتم الطائي
أكرم العرب فقد ظلمهم جميعا . وظنى بأخذهم في هذه الضيافة الواجبة أنه أمر
طبيعي عندهم ، لأن الراحل منهم قد يفوز في الفلاة أياما طويلا على جهد من
العطش وسُعار من الجوع ، فاذا انتهى إلى خباء مضروب وراه أهله بمكانه من
العناء والإعياء قرّوه وعلفوا مطيته وأوقدوا له نارا يصطلي بها من كآب البرد كما
يقولون ، حتى إذا أصابهم في ظعنهم مثل هذا العنت الشديد يتلقاهم أهل الخيام
على السّعة من الضيافة .

قال حسان بن ثابت يتהלل بذكر المكرمات :

وإني لمعيط ما وجدت وقائل لموقد نارى لسيّلة الريح أوقد

وكان الكرم ينتهى بهم إلى أن يقوم لعشائهم مناد في الأسواق ينادى في الناس
هل من جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه أو راحل فنحمله ؟ وهذا أحسن ما يكون
من محامد النفس الكريمة . ولست أقول إلا أنه كانت لهم في مناقضة هذه المحاسن
مساوئ كثيرة في الجاهلية ، فلما نزل كتاب الله روّض أخلاقهم المستهجنة وصرف
عنهم المكروه من العادات ، فقد نقلت الأخبار السالفة أنهم كانوا في جاهليتهم

يتزوجون بنساء آبائهم ^(١) ويكرهون إماءهم على البغاء ^(٢) ويألفون غير ذلك من العادات الخشنة التي ذهبت بحجى الإسلام .

وإنما اضطّر العرب إلى سكنى البادية وتخيّر بقاعها على الأيام بحسب أحوالها من الصلاح ، لأنهم وجدوا في قفار قد تراكمت عليها الرمال المحرقة ، وما كانت تنبت لهم حبا ولا بقلًا ، وكانت آبارهم تغيض حمارة في القيظ على بعد قعرها ، فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل في أصقاع يكون بها خضرة من الكلا ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المنبسطة كأنها جزر في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ، ولكن ليس ذلك إلا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم إن الله تعالى أوجد لهم الإبل ^(٣) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية ، فكانت سكناهم في الوبر لما تقدّم من الأسباب أمرا طبيعيا ، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة ما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم ^(٤) ، فضلا عن كونهم يرون الأبنية والتحويط حصرا لهمم الرجال ^(٥) وحسبنا لما في الغرائز من حب الاستقلال فهم لا يصبرون على الضيم ، والحرية عندهم أفضل ما أعطاهم الله ، يبدّلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم ، فانا لا نجد في أحاديث النقلة أن أمة استعبدتهم في غابر الدهر قط ، فهذه الكلدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم إلا العرب ، وكان من أمانى الاسكندر الرومى أن

(١) الأغاني ١ : ١٠

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢

(٣) الإبل سفين العرب وهم يفتنون بألبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفنون بوقيد أبارها وقد أوجد الله في قوائمها لنا فوق القدم يطا الرمل ولا يغرز فيه مثل حوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طروق الرمال .

(٤) المقدمة ١٠٥

(٥) المسعودى ٤ : ٢٣٤

يدعوهم إلى طاعته بعد أن تم له الغلب على المشرق ، غير أن المنية عاجلته قبل الإقدام على هذا التغير ، فرزق بموته سلامة من الإخفاق ، حتى لا يقال عنه ، وهو الملك المنصور ، إنه توجهت عليه هزيمة ، إذ لست أشك أنه لو أقدم على العرب ما ثبت له جند عليهم في تلك المجالات التي يتوغلون فيها ويبيتون في أمن من العدو وإن كثُر .

ولقد لقيت من هؤلاء العرب فتى تلوح عليه النجابة والفظانة ، فذكرت له أن في لقائه الملوك سبيلا إلى نيل العلا فأخبرني أنه نزل الزوراء لأول ما بناها أبو جعفر ولكن لم يمض إلا القليل حتى مل العمران ومال به الشوق إلى ربوع العرب . وأنشدني وهو منصرف :

لَبِيتُ تَخْفِقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفٍ
وَلَبِسُ عِبَاءَةً وَتَقَرَّرْتُ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشَّفُوفِ

والأبيات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبي سفيان ثم لم تطب نفسها بالمقام عنده ، فرجعت إلى البادية بعد ما أنشأت الأبيات التي أنشدنيها هذا الغلام . فسبحان من قسم المعاش بين الأجيال . وركب في نفوسهم طباعا متفاوتة ، لا إله إلا هو فو الإكرام والجلال .

الانفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الحجاج

كان مقامي في البصرة شهرا وثمانية أيام ، ولما طويت بساط الإقامة تهيأ لي أن أصعد على دجلة سفرا ^(١) يخفف عني مشقة الركوب على ظهور المطايا ، فدفعني حولى إلى الرُّبان وانفصلت عن البصرة لأول هديء من الليل ، حتى إذا طلع النهار كنا في متوسط بطاح مفروشة بالنخيل على مد البصر ، وفيها خيام

(١) المسعودي ٢ : ٢٣٩

لبطون من تميم^(١) وشييان^(٢) ، قد ضربوها على مرتفعات من ذلك السهل ، فكان تأمل منازلهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يمثل لى من بعد ارتحالهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعيس على هذه الأطلال وبكوا عهودا مضت لهم فى زمان الأئس بين هذه الربوع .

ولما كان بعد أيام طلعت علينا سموم يكاد يأخذ حرها بالنفس ، وكنا ننكص على الأعقاب لاختلاف الريح ، فرأى الربان أن ينزل الملاحون إلى البه ويربطوا المركب بأمراس يجرونه بها من عُدوة النهر ريثما يحصل الفرج ، ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناى بنوم من شدة الحر إلى أيام عشرة لم نزل بها فى مغالبة الريح ومقاساة عنها الشديدا إلى أن وصلنا إلى مدينة واسط^(٣) .

هذه المدينة فى فضاء من الأرض طيبة الإقليم والنسيم ، غير أن الحر غالب عليها لإقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هضابها^(٤) ، ومبانيها من الأحكام بمكان سام ، ولا سيما القصر الذى بناه الحجاج^(٥) ، وهو باق إلى زماننا هذا ، وهو سنة ست وخمسين بعد المائة ، والناس يسمونه الخضراء ، وله قبة مشهورة فى مباني الاسلام ، حتى قيل إنه ما بنى لأحد قبل الحجاج مثلها^(٦) ، وفيه أحواض كثيرة يرقى إليها ماء دجلة ، وأعظمها حوض من الرخام الأخضر وبه مجلس به سرير مذهب^(٧) يقال إنه كان مقعدا للحجاج فى مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرف بأنواع الزينة ، لأن النفقة عليه وعلى الجامع الذى يجواره

(١) فى الأغاني ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة .

(٢) تزيين الأسواق ٢ : ٧

(٣) تقويم البلدان ٣٠٧

(٤) القزويني ٣٢٠

(٥) المسعودي ٢ : ١٨٣ وهو يقول إنه كان باقيا لأيامه .

(٦) المسعودي ٢ : ١١٥

(٧) الأثينسي ١ : ٦٣

بلغت نحوًا من أربعين ألف ألف درهم^(١) ، ولكنه سمج في عيني بما ورد على خاطري عند مرآه من قبائح الحجاج ، فكأنه بيت قد رفعت جدرانها على دعائم الظلم والاعتساف .

وبقيت في واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح ، ولكن على كره من النفس ، لأنني كنت أراها بعين المماقت لها . ونزلت بها في فندق على شاطئ النهر حيث الجسرُ المُقام من سفن ، وأمامه ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوق في أيام معلومة من السنة يأتيها العرب بما يريدون بيعه من الخيل الجياد التي يحتفظون بها احتفاظ الآباء بالبنين^(٢) فانهم لا يتخلَّون عنها بالقليل ولا بالكثير من المال وإذا سألتهم بيعها منك بأعلى الأثمان فأنت مردود في سؤلك ، يقولون لك هذه منجاتنا من العدو وإذا أطلقنا لها العنان طبَّقت الآفاق بأسرع من لمح البصر .

ولم تزل هذه السوق مقامة في واسط منذ بنيت إلى هذه الغاية ، لأنها كانت في أول هذه المائة من أعمر بلدان العراق بما خصها الله من خصب التربة وكثرة الخيرات ، فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة^(٣) ونزلت بالناس السنون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجاوى الناس عن سكانها بما توالى عليها من الفتن التي وقعت في صدر هذه الدولة إلى أن استقر فيها السلم وبعد عهدهما من الوباء ، فسارع أرباب التجارة إلى استيطانها لما يتسنى لهم فيها من قرب الاتصال ، والمسافة الآن منها إلى الزوراء خمسون فرسخًا ، ومنها إلى البصرة خمسون أيضًا ومنها إلى الأهواز مثل ذلك . وظنى أنها سميت بواسط لهذا السبب ، وهو توسطها العراق .

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٧

(٢) تزيين الأسواق .

(٣) ابن الأثير ٥ : ٧١

وقد اتفق لى قبل الانفصال عنها أنى لقيت فيها شيخا كان أبوه خادما عند الحجاج (حاسبه الله تعالى) فحدثنى من أخباره ما تنفطر منه الأفئدة رحمة لأهل البيت وأصحابهم ، لأنه كان يقتل منهم جُرُافا على التَّهْمَةِ إلى أن بلغ عدد الذين قتلهم صبرا مائة ألف وعشرين ألفا ، وكان فى السجن عند ما أهلكه الله أكثر من خمسين ألفا يرسفون فى سلاسل الحديد ، ولا ذنب لهم إلا حُبهم لأهل البيت وكان الناس فى أيامه إذا تلاقوا فى المجالس والمساجد والأسواق يتساءلون من قُتِل البارحة ومن صلب ومن قطع ، وقد تفاحش ظلمه فى الخراج بحيث إن الأمراء بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفا^(١) من نقص الخراج إذا خففوا ضرائبهم ومكوسه ، أو الاستمرار على ظلم الناس إذا راموا جباية ما كان يحمله إلى الخليفة من المال^(٢) .

وقد رسم لى هذا الشيخ صورته بأنه كان قوى البنية مائلا إلى السمن ، ولا يزال العرق متصببا على جبينه وصُدْغِيه من تحت قلنسوة قد حوطها بعمامة خضراء^(٣) ، وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه . وكان شديد التحويل فى خطبه ، وإذا صعد المنبر تلفع بمُطَرَفِه ثم تكلم رويدا رويدا فلا يكاد يسمع حتى يترايد فى الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة فيقرع بها من فى أقصى المسجد .

(١) ابن الأثير ٥ : ٩

(٢) كان ملوك بنى أمية يعرفون من الحجاج جورهم واعتسافهم ولكن لم يكن فى كتاباتهم منهم أشد منه نكاية على العدو فلم يرق لهم استبدال غيره به وإن ثقل أمره على الرعية . وفى مروج الذهب أنه لما وفد على الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة فى غلالة بجاءت جارية وسارت الوليد ومضت ثم عادت فسارته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد قال لا والله قال بعثها إلى ابنة عمى أم البنين تقول ما مجالستك لهذا الأعرج المتسلح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلت إليها إنه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلوبك وقد قتل الخلق اه .

(٣) العقد ٣ : ١١

قال وكان يحدثني أبي أنه كان يجد لذة ^(١) في سفك الدماء وارتكاب أمور لم يقدم عليها غيره ولم يسبقه إليها سواه ، ولما أرسله عبد الملك بن مروان إلى العراق ليوطئ له المنابر خرج كيش الإزار وغلب الناس بقوة الرجال لا بالسياسة والرأى ، لأن جنوده كانوا من الشام ^(٢) وهم على غرض الأمويين مخالفون لأهل البيت ، فلما أوجدهم بين أعدائهم لم يرمهم إلا نفوسا مستقلة راجعة إلى رأيهم في كل أمر ونهى فحملهم على منازلة مكة المكرمة من هذا الوجه ، ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم إليه أهلها بعد أن تصدع جدار البيت الحرام ، فأقام ملك بني أمية على هذا الظلم وقومه لهم خمسين سنة من بعده ، إلى أن أراد الله انقراض دولتهم في المشرق .

هذا نبذ يسير من أخبار هذا الظالم الغاشم ، وقد رأيت تناقل الحديث عنه في أفواه الواسطيين كتناقل الحديث في مجالس البصريين عن زياد ابن أبيه ، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر ما لم يسبق إليه أحد من البغاة الظالمين ولكليهما فضل في تدبير ما خولا من الولاية إلا أن لزياد فضلا في بلاغة الكلام التي شهد له بها أكبر الرجال وضبطه البلاد بأهل البلاد أنفسهم أعظم من فضل الحجاج الذي ما غلب العراقيين إلا بأهل الشام وما قوم ملكه إلا بالسيف الباتر . والجبروت القاهر .

المرور بمدائن كسرى أنو شروان

كان انفصالنا عن مدينة الحجاج في ليل رطيب قد انفتق سحابه عن القمر ، فقضينا جزءا كبيرا منه في السمر حتى إذا أسفر الصباح كنا في محاذاة قصر يقال له الرمان ^(٣) ومن حوله خيام مضروبة للعرب ، فوقع ذلك من نفسى موقع الاستعبار

(١) المسعودى ٣ : ١٠٣

(٢) الكنز ٢٢٢

(٣) ابن خلكان ١ : ٤٧١ وياقوت ٢ : ٨١٤

من الدنيا في نعيم الحضارة وشقاء البداوة ، إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلما يقع عليها النظر في وقت واحد ، وكان يلوح لنا في صدر السهل إلى آخر النهار بناء عظيم أُخْبِرَتْ أنه من جملة المناظر التي أقامها الحجاج بينه وبين قزوين ^(١) ، وهي إذ ذاك آخر الثغور ، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِنَتْ بالنهار فدُخِنَتْ المناظر كلها أو أوقدت بها في الليل نار فاستوقدت المناظر فيعلم ذلك .

ولم نزل نخترق عباب دجلة يوما بعد آخر حتى جَزَا جَبَلٌ والنعمانية ثم كَلَّوْا ^(٢) وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر ، فتزلت إلى البر أنفجر بالإيوان الذي بناه كسرى أنوشروان . فاذا هو في غاية العظم ونهاية الإتقان . يبلغ طوله نحوًا من مائة ذراع وعرضه نحوًا من نصف ذلك وقدرت في ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعًا ، وليس في مباني الآجر ما هو أبهى منه ، وقلما يوجد فيه موضع غُفِّل من رسم أو نقش أو كتابة ، وهو يعد من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس في عهود الأكَسَرَةِ الذين جَبَّوْا معظم الدنيا ، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة والإحكام ، ولا يُرى فيه اليوم من الآثار الجليّة إلا صور آلهة جبابة وسباع ضارية . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنوشروان ^(٣) وأما آتية القصور وزخارفها المنقولة وما كان فيها من المتاع الثمين فقد فقدت بعد الفتح ، وبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألف ألف دينار من الذهب .

وجملة القول أن شأنه في الفخامة والإتقان مما يحير الأذهان ، على أن الأيام قد أهوت عليه بمعول الفناء الذي ليس في طاقة الطين اتقاؤه ، ثم زاد على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل من آجره جانبًا كبيرًا على بعد الشقة وعظم

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٦

(٢) المسعودي ٣ : ٢٢٩

(٣) ذكر ذلك البحري في وصف الإيوان حيث يقول :

والمنـايـا مـوائـل وأنوشـر وان يزجـى الصفوف تحت الدرفس

والدرفس الـراية .

النفقة ، فعارضه خالد بن برمك (رعاه الله) وقال يرغبه في حفظ ذلك الأثر يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلاً يستدل به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الإيوان ، فاتهمه الخليفة في النصيحة وقال أخذته الثعرة للفرس ، وأبى إلا التعصب لقومه ، فوالله لأصرعنه قريباً ثم شرع في هدمه واتخذ له الفؤوس وصب عليه الخل وحماه بالنار ، حتى إذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث إلى خالد يستشيريه في التجافي عن الهدم ، فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألا تهدمه فأما إذ فعلت فاني أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم ، فعرفها المنصور وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوض جانباً من هذا الأثر بالجليل .

ولما وقفت بالإيوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدمين ندى يتلألاً ما بين الأوكار التي تتنجح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل ما كان عليه رب هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتني لذلك عبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات :

أيها الشامات المعير بالدهر — أنت المبرأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيـام — بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من — ذا عليه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى خير الملوك أنوشـر — وإن أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك — روم لم يبق منهم مذكور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العمر ، وكان رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فرائخ^(١) من دار السلام ، وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنه وكرمه ، ونحن قد جزنا موضعاً يعرف بالنهروان^(٢) وصرنا على مُطْلٍ من الزوراء أم البلدان .

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧

(٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦

الرسالة الثانية

مقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العتمة وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسيحين بحمد الله والمقدسين له نغمات تؤوبها معهم أرجاء المدينة ، وتعذر المسير على مركبتنا تجاه باب البصرة ^(١) أو كاد ، لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان ، وهى مطلية بأبهى الأصباغ والألوان . مرصعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كأن دجلة فى الزوراء . أشبه بالمجرة فى كبد السماء . ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر ، وعلى مَطل من قصور الخلافة التى كانت تتلأأ بضوء باهر ^(٢) ، فركبت البر فى الموضع المعروف بجزيرة العباس ^(٣) ، وقد غصَّ بجوع من الناس وقد لبسوا الطيالىس السود تشبهاً بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شعار الخلافة حزناً على شهدائهم من أهل البيت ونعياً على بنى أمية فى قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمام قلائس طوالا مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضاً ، وبدل الدروع دراعات مكتوبا عليها بين كتفى الرجل "فسيكفيكم الله وهو السميع العليم" أخبرنى ^(٤) بعض من لقيته فى تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذى أحب أن تتريا حوزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

(١) هو باب من أبواب بغداد .

(٢) الأغاني ٤ : ١٨٩

(٣) فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع .

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٤٥ والأغاني ٥ : ٩٥

ولما جلت في المدينة أخذت من قطعة ^(١) أبي عيسى الهاشمي إلى محلة يقال لها الميدان ^(٢) ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبي جعفر ^(٣) ، فوجدته كأحسن ما يكون وأحفظه من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين : (الأول) اتساعه إلى أربعين ذراعا ^(٤) ، وإن كان يشاركه فيه غيره ، (الثاني) طوله من دار الخلافة إلى محلة باب الشام ^(٥) على استقامة ليس في الإمكان أصح منها ، فلما صرت فيه استقبلت في دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبة الخضراء ^(٦) التي رفعها أبو جعفر إلى علو يزيد على ثمانين ذراعا ليشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين ، كما أنه غنى بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظام الأعمال ، فكانت تظهر زينتها في تلك الليلة وهي مرتفعة في الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم إنني أقبلت في صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فملت إليه ، وإذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممزاً بين جموعهم ، ووراءهم رجل طويل ^(٧) أسمر نحيف خفيف العارضين معرق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر ^(٨) أسود من الأوبار الغالية الثمن ، وفي وجهه مهابة الملوك وجلالتهم ، فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل

(١) ذكرها ياقوت .

(٢) الأغاني ٢٠ : ٦٦

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٠

(٤) ابن الأثير ٥ وابن خلدون ١

(٥) ذكرها ابن خلكان وابن الأثير .

(٦) المسعودي والقزويني .

(٧) العقد الفريد .

(٨) ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر .

عليه حاشيته ، إذ الشمس لا تخفى وإن سُتِرت ، ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة ^(١) عليها حلية خفيفة من الفضة ، وكان لحامها في يد حاحب من حجاب الخليفة .

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاج بن أوطاة ^(٢) ، وعلى مقربة منه قراء سبعة يتلون الآيات من القرآن إلى مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة ، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رقع في مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من المرفه ، وحدّث عن البحر في بعد الغور وقرب المغترف ، وعهدى بمن لقيته من الخطباء أنى ما سمعتهم إلا تمنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيه الذى كان يواتيه الكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع في تفسير كتاب الله وإيراد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ في سرد الآي المقروءات فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهى قوله تعالى : ” فى بيوتِ اذْنِ الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه “ ^(٣) الآية ، فنمق خطبة يذكر بها المؤمنين ، قافية سجعاتها الألف اللينة واللام تردادا لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلت العيون لحشية الله عبراتها ^(٤) .

ولم أزل فى المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء الآخرة ، فخرجت ألتبس موضعا أبیت فيه بقية الليل لعلى أجد فى النوم راحة تعوّض على بعض ما أخذ منى السفر ، فأرشدت إلى خانٍ لطيف ينزله الغرباء من أهل التجارات وغيرهم ، فلما كان الصباح بكرت إلى أستاذى أبى يوسف ، منزله

(١) ابن خلدون .

(٢) ذكر فى العقد الفريد أنه ولى القضاء لأبى جعفر .

(٣) سورة النور .

(٤) من رحلة ابن جبير

على نهر عيسى^(١) في قنطرة الزياتين^(٢) بمقربة من دور الخلافة ، فتلقاني بالبشاشة والإيناس وأبى إلا ضيافتي عنده في جناح أفرده لى من داره ، وهو يؤملنى بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدم قومنا محلا في مراتبها ، والوزارة في يد خالد ابن برمك أميرنا . إنى إلى هذا اليوم أخرج في الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال .

ذكر شىء من محاسن الزوراء

ولقد أکبرت من الزوراء رواج سوقها بالتجارة واشتباك أحيائها بالعارة في مدة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الإقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وأسواقها في نهاية من الاحتفال ، قد جمعت بالكرخ أخلاطا من التجار^(٣) والصناع ، إلا سوق الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرس ، وقد بلغوا من الإجادة في صناعتهم الغاية بحيث يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للولك أقداحا^(٤) تقيّد الأبصار حسنا وإشرافا ، ويتخذون على الجلمات صورا يحكون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير^(٥) ومن فوقها عقاب تنقض

(١) ابن حوقل ١٦٥ ويقول المسعودى ١ : ٤٧ إنه يأخذ من الفرات وفي ابن خلكان

١ : ٧٤٠ أنه يأتي بغداد من جهة الأنبار و ١ : ١٠١ أنه بجوار قنطرة الزياتين .

(٢) الأغاني ٣ : ١٨٢ وابن خلكان ١ : ٢٨٣

(٣) الأغاني ٩ : ٣٣ و ١٨ : ٦

(٤) الأغاني ٤ : ١٨٩

(٥) في الحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لأبي نواس :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع النساوير فارس

الأغاني ٣ : ٢٧

عليها ، وهى تهوى فى الفضاء للتخلص منها ، ولكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطرف . وإلى طرف هذه السوق مما يلى سويقة غالب^(١) جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لأرباب التجارة باشارة من السلطان الذى أمر بتحويل الأسواق إلى الكرخ^(٢) ليُبعد أخلاط الناس عن جواره .

أما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم^(٣) ، ومثال ما بنت الروم فى الشام أو حيث كانوا يتزلون من البلاد ، وهى مجللة كلسا ومرفوعة إلى طبقتين^(٤) ، ومبنى بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالبحر ما يماسها دفعا للماء فى أوان السيل^(٥) ، أن يبلغ الطين ويتمكن منه ، ومنهم من يقوى الآجر بالقصباة والحلفاء ويغمسه بالحص^(٦) حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنه الحجر الصلد إذا صاصل . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وإنما تطل نوافذها على الشوارع^(٧) بحيث إذا ارتفع المائر على حجر أو على دابة تيسر له أن ينظر من بداخل البيت^(٨) ، أما دور المتمولين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد ، وهى مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام . وفى ساحاتها جنات ترزع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحًا وريحانًا واسترواحا للنفس ، وعلى جدرانها وسقفها نقوش فى رسم ملون أو فسيفساء من ذهب ، وعلى دائر

(١) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ : ٢٤ فى ابن الأثير ٦ : ٩٩ أن بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم إن العارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد .

(٢) المقدمة ٣١٣

(٣) يستدل على ذلك من الأغاني ٢ : ٧٣ و ٣ : ٣١

(٤) ذكر الأغاني ٩ : ١٤٤ وقوع سيل ببغداد .

(٥) ابن خلدون ٣ : ١٩٧

(٦) الأغاني ١٧ : ٤٩

(٧) الأغاني ٥ : ٣٨

الأبواب والقمريات وبرادات^(١) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج^(٢) الملقون ويحيطونها بخشب أسود من الآبوس وغيره ، ثم يعلقون عليها رسوما من النحاس تمثل غصونا وثمارا وأزهارا وأشكالا فيها كل غريبة من الإبداع ، فتمتلئ العين ارتياحا من النظر إلى إشراقها. وإني ليعجبني من جمال مبانيهم ما يتألقون في زينتته من الخارج أيضا ، فإن القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمد قد دقت أمثال الرماح ليُخَيَّلَ للرأى أنها لا تستند على شيء . وكأنما هي معلقة في الهواء .

ولما كان الحر يشتد ووجهه في الزوراء ويفتقر أهلها إلى رطوبة الماء افتقاز النفس إلى الهواء قل أن يخلو سوق من أسواقهم أو بيعة من مبانيهم من سقاية يجري بها ماء دجلة^(٣) . ولذلك لا يسير فيها الرجل إلا محفوقا بالشجر المزهر والرياحين^(٤) التي يتغنى بوصفها الشعراء . وهذا دليل على أن الزوراء كلها ماء ونماء . ولأهلها في إقامة الأحواض عناية تامة فيرفعون عليها عمدا من خرفة من الرخام ويعقدون من فوقها قبابا منقوشة بآيات من الذهب^(٥) وما بينها النقوش الظرفية والرسوم التي تقر بها العيون . فتوسعوا من اتخاذها للضرورة إلى المغالاة بزينتتها على سبيل الترف والترفيه ، وإذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابا تحت الأرض وأقاموا فيها بالنهار ليكسروا الحر كما يقولون^(٦) .

ولقد عظمت عناية أبي جعفر بهذه المدينة حتى إنه أتقن نحوها من أربعة آلاف ألف دينار في السورين اللذين يحيطانها والمسجد الجامع ودور الخلافة والمجالس التي عقدها فوق أبواب السور الخارجى من طاقاتها المعقودة ، وهى أربعة : أولها

(١) الأغاني ١٧ : ١٢٩

(٢) القزويني ١٢٧

(٣) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والأغاني والالتلیدی .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧

(٥) الالتلیدی ٢٢٦

(٦) من ابن خلكاف .

باب نحرسان ويسمى باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان . والثاني باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة . والثالث باب الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البصرة وهو بمقرّبة من دجلة . وقد حمل إليها أبوابها من واسط والشام ^(١) والكوفة على بعد الشُّقّة والمشقة . واتخذ الأبواب الداخلة مزوّرة عن الأبواب الخارجة ^(٢) ولذلك سميت المدينة بالزوراء .

ثم إن تناهى جمالها بما شاد فيها الأمراء من المباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والإشراق ، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرفة فانها لكثيرة ^(٣) في الزوراء ، أتيت منها على زيارة مسجد في قنطرة الصّراة ^(٤) ومسجد بناه عبد الله ابن حرب في الموضع ^(٥) المعروف بالحربية . ومسجد أقامه أمير من آل قُطَبة في شارع المحرم ^(٦) ، وآخر بنته الخيزران زوج ولى العهد في الخيزرانية ^(٧) ، وهو فائق الحسن وفيه أكثر من ثلثائة قنديل من الفضة والذهب ، وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص تصف الأشخاص كالمراة ، وعلى حيطانه صور تفاحات وثمار وغصون تُحِيلُ للوافد على المسجد أنه بين شجر زاه مزهر . في روض باه باهر . ورأيت العملة قد حاكوا فيها رسوم الأعاجم على أنسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم

(١) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٢) تقويم البلدان ٣٠٣

(٣) ذكر القرمانى وغيره أنه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام .

(٤) موضع ببغداد ذكره ابن الأثير ٦ : ١١٧

(٥) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ و٣٨٨

(٦) ذكره الأغاني ٥ : ١٢٦

(٧) ذكره ابن الأثير ٦ : ١٠١

الرأى أنها بسط حُملت من طَبْرِ سَتان ، ولا فرق بينها إلا فرق ما بين الصوف والحجر ،
وليس في مساجد الزوراء مثله في الزينة إلا المسجد بناه أبو جعفر في شارع دُجَيْل^(١)
مما يلي باب الأنبار^(٢) والمسجد الجامع الذى بجوار دور الخلافة .

فى تقرّبي من رجال الدولة

وقد لقيت فى الزوراء جماعة من الأمراء المقدمين فى الدولة غير أنى انقطعت
إلى خدمة ملوك البرامكة وملازمة باهم فى البكور والرواح ، إذ كانوا أصحاب فضل
وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمنى وإياهم فى أوثق حبال
الأئس والائتلاف . وتقرّبت بكفالتهم إلى معن بن زائدة الشيبانى وروح بن حاتم
المهلبى وهما أعظم رجال الدولة بعدهم ، وكنت إلى آل المهلب أكثر منى تقرّبا إلى
شيبان^(٣) وإن كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلا أن
معنا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمهم فى مراتب الدولة
وهم أغراب عن العرب ، وذلك لم يكن فى آل المهلب فانهم كانوا مع البرامكة
على خُطة ومودة واتصال .

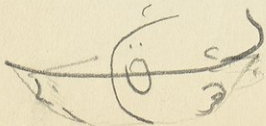
وأقرب الأمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بِثَقْلِ الدعوة فى خراسان
من قبل أبى مسلم الخراسانى . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبلغه فى رأيه
وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله^(٤) ، والمنصور لا يُبرم أمرا إلا بمشورته ،
ولا يركن فى أعماله إلى أحد سواه اللهم إلا فى سياسته مع العلويين فانها كانت
جارية على البغض والجور ، مع أن خالداً ميال إليهم منذ أخذ فى الدعوة الإمامية

(١) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨

(٢) ذكره ابن الأثير ٦ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٣) يقول ابن الأثير ٦ : ٥١ إن شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف .

(٤) ابن خلكان ٢ : ٣٦١ والمسعودى ٢ : ٢٢٢



مكتبة

بخراسان ، وهى إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم رأى المقدم عندهم والإمرة المطاعة عليهم ، وقد كانوا هم وآل قطبة من القواد الذين نصرروا العباسيين على بنى أمية ثم انضافوا إلى جملة أبى جعفر بعد الفرقة بينه وبين العلوية رغبة عن الأئمة من أهل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر فى المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن فى مدحهم بالقصائد التى تعظم عن أن يقال مثلها فى الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حبياء :

أسمى العباد لعمرى لا غياث لهم إلا المهلب بعد الله والمطر
هذا يذود ويحمى عن ديارهم وذا يعيش به الأنعام والشجر

وأما معنى فانه أمير شيبان كلهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب الحسان إلا أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحير فى نعته اللسان . وشيبان من بيوتات العرب فى قريش ، وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم ، وهى بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمن ^(١) . وقد كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دعائهم وأبلى مع بنى مروان بلاء حسنا ، فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل لمن يأتيه به مالا جزىلا فلم يظفر به لأنه كان مقما فى البادية كما يقال ^(٢) ، ثم إنه رجع إلى

(١) الأغاني ١٧ : ١٠٥

(٢) وقد وقع لمن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحييت أن أذكرها هاهنا لكنة فكاهية تدل على كرم العرب وألفة نفوسهم والكلام فيها لمن يقول : كنت قد اضطرت لشدة الطلب إلى أن أقم فى الشمس حتى لوحت وجهى وخففت عارضى ولحيى فلبست جبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال النقال لأمضى إلى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبغى أسود متقلد سيفا حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيرى فأناخه وقبض على فقلت له مالك قال أنت طلبه أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن بن زائدة فقلت يا هذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فاني والله لأعرف بك منك قلت إن كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى يبنى بأضعاف ما بذله =

الهاشمية^(١) متاثماً ووافق يوم وصوله قيام الرواندية على الخليفة في الأسواق ، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الحناق ، فكان معنٌ يُجد في ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبي جعفر بانضمامه إلى العدو بعد أن بدت له مقاتلته ، ولكن أبت مروءته إلا أن يكون الحلم في نفسه طبيعة تجلّه عن مطامع الأخسَاء ، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبو جعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصبته بين حرس على رأسه وحفّدة بين يديه^(٢) ، وفي حضرته جماعة من الأدباء الندماء قد خاضوا في حديث الشيعة في خراسان . وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا إمعان . فضلّ عنهم سر السياسة فيها إلا رجلاً من شييان بلغ الفطنة يقال له محمد بن الحسن الشيباني ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خيل لسامعه أن القرآن نزل بلغته^(٣) ، فكان يرى لنكبة أبي مسلم رحمه الله السبب الذي لم يفتن له أحد من هؤلاء الجلاس ،

== أمير المؤمنين لمن جاءه بي نغذه ولا تسفك دمي قال هاته فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال صدقت فيما تدّكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شيء . فان صدقتني أطلقك فقلت له قل ، قال إن الناس قد وصفوك بالجوّد فأخبرني هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أني قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راحل ورزقي من أمير المؤمنين عشرون درهما في الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجوّدك المأثور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقّر بعد هذا كل شيء . تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ، ثم رمى العقد في جري وترك خطام البعير وانصرف فقلت يا هذا والله لقد فضحتني ولسفك دمي أهون على مما فعلت نغذه مادفعت اليك فاني عنه لغني ثم قال أردت أن تكذبني في مقالتي والله لا آخذه ولا آخذ بعروف ثمنه ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يبيح به ما شاء فما عرفت له خبراً وكان الأرض ابتلعه . ابن خلكان ٢ : ١٦٠ والأغانى ٩ : ٤٣ وعجائب المخلوقات ٣٠٩

(١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد .

(٢) الأنشهى ٣ : ٣٠٩ والاتليدى ١٠٩

(٣) أبو الفداء ١٩٢ وابن خلكان ١ : ٦٤٧ والنجيس ٢ : ٣٣٣

فانه لم يتحقق لدى مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبقه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها إليه ولا لإفراطه في القتل ، وإنما نكب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صماء تعصف ريحها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفي نفسه أن يفتك به على غرة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبي جعفر ومما كان من استصحابه للجنود في سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدي الخليفة جماعة من حيث لا يدرى فاعتوروه بالسيوف ومعن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله إجلالا لأمر المؤمنين .

وأما ما يقولون من أنه حامل السلالة فليس ذلك إلا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم ، على أنه لو صح ادعاؤهم ما منع من أن تكون به خصال لا ترى في عامة الناس ، فانك لتعلم أنه ملك خراسان^(١) وهو ابن تسع عشرة سنة ، وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء ، وكان ثبت الجنان إذا جاءت الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب^(٢) ، وكان أقل الملوك طمعا^(٣) وأبعدهم بين الناس شهرة ، حتى كان إذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجال عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول : الاسكندر الرومي . وأردشير الفارسي وأبو مسلم الخراساني .

(١) (ذكر) صاحب العقد الفريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين .

(٢) ابن خلكان ١ : ٣٩٨

(٣) أبو الفرج ٢١٦

لمعة من أخبار أبي جعفر

ومن المقرين إلى أبي جعفر غير من لقيته من الأمراء المقدم ذكركم الربيع ابن يونس حاجبه ومولاه ، وهو حظي عنده ومكين لديه إذ أنه مقدم على الموالي ، وهم المقدمون في هذه الدولة ، لبلائهم مع يزيد بن المهلب ، على ملوك بني أمية بجران^(١) وما إليها من البلدان ولا استمرار أبي جعفر على تقديمهم في الرياسة تحفظاً على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يجد عليهم أشد مما يجد على بني أمية .

فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدم الأعراب^(٢) في مراتب الدولة إلا بما هو مطبوع في نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينته إلا الخوف من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوهم على مناصرة أهل البيت ، بجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها إلا بعد ما أعلمه نوبخت بسلامتها من الأعداء ، ولما فشت فيها العماره وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدو عليه فأقفل الدروب بالليل^(٣) ، وأقام عليها الحراس وحول الأسواق إلى جهة الكرخ كما تقدم حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن ناحيتهم ، وشرع قومه يقولون إن رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لما وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول ؟^(٤) فقال إني رأيته أعز على الطالب من بيض الأنوق بيد أنى رأيت الغريب يطرقة ويبيت فيه وربما كان فيهم العين والحاسوس . وهذا كلام فيه بعض المزية عندي لأن من أبناه الخوف مدينة حوطها بسور بل سورين^(٥) وحفر بعدهما خندقاً بعيد المهوى غنى بما في نفسه من الخوف عن أن يخوفه أحد كيد العيون ومحالهم .

(١) الأغاني ٩ : ٢١

(٢) ابن الأثير ٦ : ١

(٣) الأغاني ٧ : ٣٤

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٥) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودي ٢ : ٣٨٧

ثم إنا لنجد له هذا التيقظ في البخل الذي ليس هو فيه عن لؤم^(١) يَغْل يده عن الخير ، لأنه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم^(٢) ، وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات ، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين ، كما أنه أقل من أعطية الجنند ليأمن عصيانهم^(٣) واستغناءهم عنه ، كأنه يعمل بالمثل السائر الذي يقول جَوْعَ كَلْبِكَ يَتْبَعُ^(٤) ، وإلا فإننا لا نرى هباته إلا لمن هو خلو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وإن كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم ، وذلك لما نعلم من خروج^(٥) الشعراء في أيامه من الحضرة إلى غير وجهه يسترفدون بها صلتهم .

وأما دليل تخوفه من ولاية الأقاليم فكونه يُذَكِّي عليهم العيون ويتدارك عزهم من قبل أن ترسخ في الإمارة قدمهم ثم يستولى على ما يصل إليه من أموالهم ويجعله في بيت سماه بيت مال المظالم^(٦) حتى يقعدهم عن القيام عليه في ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حبا في جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس لأنه لولا أنه بخل ناشئ عن رأى له في السياسة ما حنق على معني حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهل من أمرهم ما حزن^(٧) ، كما أنه لو طمع في حفظ هذه الأموال المغتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى أربابها في كلام من الوصية يقول فيه^(٨) إني لأحضك يوم تدركني الوفاة أن تدعو من أخذت ماله وترده عليه ، فانك ستحمد بذلك

(١) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل في أبي جعفر معروف ومتفق عليه .

(٢) المسعودى ١٩٤ : ٣ والمستطرف ١ : ٢٠٠ .

(٣) في ابن الأثير ٦ : ٥٠ أن المنصور عرض جنده في السلاح وهو لابس درعا وبيضة .

(٤) الفخرى ٦٩

(٥) الأغاني ١٣ : ٩١ وفي العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال إن الشعراء يبابك

وهم كثيرون طالت أيامهم ونقدت نفقاتهم .

(٦) ابن الأثير ٦ : ١١

(٧) ابن الأثير ٦ : ٩

(٨) الفخرى ١٨٧ وابن الأثير ٦ : ١٢

إليهم ، ولكن إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنى ما رأيت الوفاء طبيعة إلا في الموالى والأغراب .

ثم إنه طمّح من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس تنقيلا على التجار ، فوضع على الخوانيت خراجا ^(١) لم يسبق له عهد في الاسلام .

هذا نثر يسير من أخبار أبي جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذى يدعوه إلى التيقظ ، والناس يقولون إنه صالح النظر في السياسة وربما جاريتمهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسين رضى الله عنهم ، وقتل أخاه إبراهيم بن عبد الله وكلاهما برآء من الذنوب ، ولست أرى لأبى جعفر فيما وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجهها تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلويين إلى هذا اليوم إنما نشأ عن تفرق دُعائهم على أغراض ، لم تجمعهم غاية واحدة في جميع البلدان بل كان بعضهم منقطعا عن بعض ، وكان كل واحد منهم منفردا إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرفين (عليهم صلوات الله ورضوانه) ، فغلهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأن الأمويين في مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا دُعائهم إلى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله في إظهار الدعوة الإمامية لأعاد الله إليهم الخلافة التي ظلمهم عليها الأمويون ، وهم الذين عرفت لهم الفضائل التي لا يستطيع المكابرون من أعدائهم ^(٢) إنكارها ، والله يؤتى ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

(١) المقرئى ١ : ١٠٣

(٢) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بني أمية إن الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده . ابن الأثير ٥ : ١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوما يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قسلة الحسين بن علي رضى الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له إنك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئا . ابن الأثير ٤ : ٢٣٩

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذي حفظها للمسلمين

ولما حدثني لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قوله ما في نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياح حقوقهم ، وقد كنت استزدته الحديث عن أخبار العرب وأيامهم فحدثني عن فتوح الاسلام خبرا أحببت أن أسرده إليك في هذا الكتاب ، وأسلك فيه سبيل الإطناب ، ليكون نفرا للأعراب ، باقيا إلى منتهى الأحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق ليجيرهم من الملمات التي وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم في الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحيين المقربين بالخالق المصدقين بالبعث الموقنين بالشواب في الآخرة إلا نفر قليل ^(١) ، فجمع بالرسالة كلمتهم ، ونزع الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها آلهة ^(٢) وتركوا عبادة الإله الواجب الوجود . ”من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا“ ^(٣) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا في بدء رسالته بأن يدعو العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافة إليه ، فلما قبض صلى الله عليه وسلم وهو مشكور سعيه ، مرفوع منزلته ، انقبضت نفوس العرب وباتوا في موقف التردد ، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا في ولاية أحد من بعده يطلق يده في الأمر بما يشاء ، وعهدهم قريب بالجاهلية من تباين الميول والأهواء ، فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم بعدهم عن الأغراض النفسانية ، والتماسهم من الخلافة السلوك في سنة الله ورسوله دون شيء آخر من حاجات الدنيا إلا هداية الناس ،

(١) المسعودي ١ : ٢٣٩

(٢) المقدمة ٣١١

(٣) سورة الكهف .

اجتمعوا على كتاب الله أمة واحدة في دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم
وابتروا الأعاجم سلطانهم وحازوا معظم العالم في شرق وغرب .

وإنما صال المسلمون كالسباع ، وشدوا على الحصون والقلاع . وتراموا على
ممالك الحضّر ، واقتحموا المشاق والغرّ ، بما حضّمهم عليه الكتاب من الجهاد ،
ولأن المائت منهم في ساحة الحملات ، شهيد له في دار الخلد جنات . وعدهم الله
تعالى بقوله ” ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع
أجره على الله (١) “ ، فلما ندبهم أبو بكر رضي عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم (٢)
وولدهم وبيوتهم وماشيئهم وسائر ما يملكون ، وعلى وجوههم سمات الفرح
والابتهاج ، (٣) كأنما النصر محقق في النفوس صرفا بغير مزاج . ويقال إن الشيوخ
الفانين قد قدموا مع أولادهم ليطنوا الأرض التي وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم ،
حتى إذا رأهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أن لم أقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأن ليس
لكم عزم ولا فيكم بقية ، فقالوا قدمنا يا خليفة الرسول رغبة في ثواب الله وحبا
في فاكهة الشام واستعدا بمائه الزلال (٤) ، فتفاعل منهم بالخير ، وقال إن ربكم
يعطي النصر العزيز لمن يشاء . فإذا كان هذا عزم المسان وإقدامهم فما الظن ببسالة
الفتيان الذين هم ضراب السيوف (٥) ، وشراب الخوف؟ فان تنظر إلى ما تعرف
لهم من الأشعار ، ويروى عنهم من الأخبار ، تجد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح
الفخار . وتستدل على أن قوتهم في الهجوم على الديار ، أشد من عدو تمنعه القلاع
والأسوار .

(١) سورة النساء .

(٢) ياقوت ٤ : ٣٢٤

(٣) المقدمة ٢٣٢

(٤) الواقدي .

(٥) ذكر الطرطوشي ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية

التي على رأسه .

ومما حفظ هذه الفتوح للمسلمين أن البلدان التي دخلت في حوزتهم لم تبد إشارة ثورة ولا أمارة فتنة ، لأنها كانت قبل ذلك في سلطان الفرس أو الروم فاستوى لديها أن يحكمها كسرى أو المهدي المؤمنين . وربما مالت إلى عمال الخلفاء أكثر من ميلها إلى عمال الروم لما وجدت قبلهم من وفور العدل والقيام على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم وحرّضوا على التشبث به ، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الإمارة من أجل أنه أراد أن ينقض الأمان الذي أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الأمة لأهل دمشق ، إذ دخل مدينتهم صلحا ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثال هذه الرعاية المنصفة كثيرة في سير الخلفاء ، وكانوا إذا أوصوا عمالهم باستعمال العدل والاحتباس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم : "إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوة ، إذ كان عددنا دون عددهم ، وعدتنا دون عدتهم ، فان استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة ، وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا" فيظهر لك أنه إنما عم الإسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في زمن الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التي ذهبت فضائلها مثلا بين الناس ، حتى إن الخلق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالإسلام على بعد الديار ، وليس ذلك إلا لما يسمعون من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلعمري إنه لولا انقلاب خلافة الملة إلى ملك في يد الأمويين ما بعد أن يعم الإسلام العالم بأسره ، والله تعالى أعلم بالغيب ، وله في قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر في اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين ، والأعاجم يعلمون ذلك ولكنهم يقولون إن الإسلام غلب أما لا مدنية عندها ولا نظام لملكها فقوى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيما أن فارس كانت من أضخم الدول سلطانا ، وأبعدها في الحكمة أعراقا ، فلم يصعب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام ، وهم بمكان من المدنية لا يرام . ولست أقول إلا أنه لما نشأ الإسلام كانت القياصرة في ضعف وانحلال ، وكان الفرس يزفهم ظلم

العمال . فكان ذلك داعيا إلى انتراع ملكهم ، ولم ينل الإسلام إخفاقاً في عهد
الخلائف الأولين وهم بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة . فلم تُهزم للإسلام
راية في أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت عليّ عليه السلام فذهبت سداجة
الملة ، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى الملك ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :
” الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا “ ولله في خلقه شؤون ، وهو
يقدر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة السابعة
والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى
التحية .

الرسالة الثالثة

لقائى ولّى العهد وحظوتى لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائى ولّى العهد . فإننا لقى بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الإسلام ، إذ دخل علينا البيت خادم من خدم الخليفة ، فتخوف الفقيه من شىء لم أدر ما هو ، وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد^(١) ، فقال له أبو يوسف سبق وهى إلى أنك تطلبنى لأمر جلّ ، قال أجل إن الأمير يدعوك الساعة إليه لأمر ألقاه الليل كله ، ولم يحرفنى خاطر أحد من العلماء التصرف فى وجه يكون به كشف الغمة وتحقيق المسئول ، فدعا خالد بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبى حنيفة وما فيهم أحفظ لعلمه من أبى يوسف^(٢) .

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبث أن استوضح هذا الخادم الخبر فأعلمه أن الأمير حقيق على الخيزران أم أولاده ليلا ، وقال لها فى سورة الغضب أنت طالق ثلاثا إن بّ الليلة فى مملكة أبى ، فلما سكن غضبه ووجد لها برأء من التهمة راعه أمر الطلاق فاستدعى الأعيان والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الإفتاء الذى يطيب به نفسا ، ففكر أبو يوسف برهة فلم يفتح الله عليه بشىء .

وكنّت فى ذلك الوقت أجيل الفكرة فى أمر الخيزران وأذكر ماثرها فى الدولة وذلك المسجد الذى زينت به الزوراء ، فوقع فى نفسى ما يكشف هذه المهمة ، فقلت لأبى يوسف إن المساجد بيوت عبادة الله تعالى ، ولا تدخل فى ملك أحد ،

(١) هو أمر معروف فى الحكايات وكتب التاريخ .

(٢) الشريشى ٢ : ٣٦٧

فلوبات الأمير فيها الليلة ما حسبه يبيت في مملكة أبيه ، فما كدت أنتهى من كلامى حتى كاد يخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننت والله أن إعمال الفكرة في مثل هذا التخلص الجميل جهد من غير تحصيل ، وعناء للنفس ليس له من سبيل . فأما إذ ابتدعت هذا رأى الميمون فعلى عهد الله لا ذكرك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسب للأمر مسرة عظيمة مما رزقنى الحظ استنباطه ليكون في حل من يمينه ومبرة له من قسمه .

فلم تكن إلا ساعة حتى عاد إلى نصير ذلك الحاجب قائلا (١) أجب الأمير ، فقامت لساعتي أمثل الأمر ، فلما صرت في باب الدار وجدت جماعة من الغلمان قد أعدوا لى بغلة فارهة من مطايا الأمير مجللة بالديباج ، عليها حلية من الفضة ، فركبت وسار الغلمان بين يدي حتى وصلنا إلى دور الخلافة ، وقد كان أخبرنى نصير عما جرى بين الأمير وأبى يوسف من الحديث ، وأنه لما مثل بين يديه كاد يعدل عن استفتائه ظنا منه أن لا يكون من فتواه جدوى ، « والخلفاء وأولادهم يبدءون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتحوه معهم » (٢) ، فلما استطلعته رأيه فيما أهمة من الأمر وذكر له رأى الذى تقدمت به إليه غلب عليه السرور حتى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والقعود ، ثم سأله أمن معقوله ذلك أم من منقوله ؟ فقال له أبو يوسف لا والله وإنما قائل هذا صديق لى من أبناء الفرس وأخذ يذكرنى عنده بما استطاع من جميل الكلام .

فلما أقبلنا على دور الخلافة جئنا باب السور الكبير وملكنا ممرا مفروشا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصور وجنان قد اتخذ فيها أحواض يتصعد منها الماء وعليها عمد من الرخام تقلق قبابا مغطاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب . ورأينا

(١) ذكره الأغاني ٣ : ٥٧ والعقد الفريد ٢ : ٩٩

(٢) ان خلكان ١ : ٣١

في طرف هذه الجِنان صنعا يرفعون ^(١) قصرا سماه أبو جعفر قصر الخلد ^(٢) وأضافه إلى قصر السلام ^(٣) الذي يسكنه في هذه الأيام ، فاتھينا من هذا الممر إلى باب القصر وهو معقود تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر ، وهي علم الزوراء ومأثرة بنى العباس ، فلما جاوزناه اتھينا إلى دار مسورة بالعمد وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني ^(٤) ، وفي أطرافها دھليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتخذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة ، بفخزناه فإذا نحن في دار أفسح من الدار الأولى ، ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب ^(٥) ، وفيها كثير من العمد التي يوجه الخلفاء عنايتهم إلى تزيينها بالرسوم والإتكار منها فيما يبنون من القصور ، حتى إنى عددت في صحن من صحن دور الخلافة سبعا وأربعين سارية لو أن ثمانين غلاما وقفوا وراءها ما راھم من هو في صدر الدار .

ثم اتھينا من هذا الدھليز إلى سلم من الرخام ينتهى بالراقى ^(٦) عليه إلى مجلس الأمير ، وناھيك به مجلسا قد فرش بالرخام المجزّع ، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضھا إلى بعض ^(٧) ، وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطبرية ^(٨) عليها أبيات ^(٩) في مدح الأمير ، وفيه كراسى مرصعة بأصداق اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأن على رؤوسهم الطير ^(١٠) ، وفي صدرهم

(١) الأغاني وابن الأثير ٦ : ٥

(٢) القزويني ٢١٠

(٣) الأغاني ٩ : ٤٥ والسيوطي .

(٤) الأغاني ٥ : ١٧٣ والاتليدي ٢٢٦

(٥) الاتليدي ١٤٦

(٦) في الأغاني ٦ : ٧٨ ما يشير إلى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة .

(٧) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٨) المسعودي ٢ : ٨٢ والأغاني ٥ : ٥٩ و ١٢٨

(٩) الكتابة على البسط مذكرة في الأغاني ٥ : ٨٦

(١٠) الفخرى ٥

الأمير جالسا في قبة قد اتخذ لها فرش مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبريسم^(١) وإذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جعد الشعر ، بعينه أيمنى نُكْثَة بياض ، وعلى رأسه خَصِيٌّ واقف بالمظلة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهل بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ليزكروهم عنده أو يخاطبوه في حاجتهم .

فلما أقبلت على المحاس غلبني البهر من جلالة المهدي فسلمت عليه بالإمارة فردّ على السلام بخفض الجناح ، وأظهر ما حسب لي عليه من المنّة ، وقال لي إنه يأنس بي ويحب أن يصير لي تأديب ولديه موسى وهارون لما بلغه عنى من العقل ، فدنوت من كرسيه وقبلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولاني من النعمة : إنك قد جعلت لي بهذا شرفا لم يناله أحد قبلي من العلماء ، فقال لي أحسن الله عنا جزاءك ، فما الكثير من فعلنا بك بجزاء للسير من حقك^(٢) ، ثم إنه دعا أبا بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه^(٣) ، فقال له اكتب له بدارنا على دجلة ، وأقطع من ضياعنا الخاصة ما تقيم غلته على السعة ، ثم أمر لأبي يوسف بخمسين ألف درهم معجلة^(٤) ، وكان هذا أول اتصال بولي العهد أصلحه الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

في تأديبي الأميرين وما توالى عليّ من نعمة بنى العباس

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت في دار لها عادت إلى دور الخلافة في موكب عظيم من الغلمان المزيّنة والخليل عليها القطوع من

(١) المسعودي ١ : ٢٣٤

(٢) الأغاني ٩ : ٣٠

(٣) المسعودي ٢ : ١٨٢

(٤) الأغاني ٣ : ٩٥

الديباج والحلية الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الأبهة مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الأمير في ذلك اليوم مأدبة صرف في زخرفتها وسعة ، وجلس فيها لعطاء قريش ^(١) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءني من لدن الأمير من ينطلق بي إلى الدار التي وهبها لي على دجلة ، فإذا هي مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب مخرمة ، ولها رؤش ^(٢) بديع الحسن يشرف على دجلة وما وراءها من الرصافة ، وفيها من السدول والأستار الحريرية والبسط الديباجية والقائم النحاسية والآنية المزخرفة والخزائن ^(٣) المجزعة ما ليس مثله إلا في أمتعة الملوك وجلسائهم ^(٤) مما يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التي تدق بجانب الباب ليعلق فيها الداخل ^(٥) ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منزلة بالذهب تمثل ثمارا تجتنى بالأبصار لحسنها ولقرط ما أبدع فيها المثل من الصناعة .

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدى لم تكن نوبتهما ^(٦) في ذلك اليوم بملازمة بابه ، ووضعوا بين يدي إنائين من الذهب في أحدهما منشور ^(٧) بضیعة في السواد وفي الآخر مخنقة في وسطها درة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات بينها كثير من شذور الذهب ^(٨) ثم جاءني وصيف آخر للمهدى أكرمه الله يحمل إلى رقعة بالضیعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة يقال لها العمرية ^(٩) ثم بعده وصيف لأم المهدي وهي بنت منصور الحميرية ومعه إناء

(١) الأغاني ٧ : ٩

(٢) الأغاني ٥ : ١٠

(٣) الأغاني ٥ : ١٠٩

(٤) الأغاني ٥ : ٤٠

(٥) الأغاني ٤ : ٥٢

(٦) الأغاني ٣ : ١٨٤

(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣

(٨) الأغاني ٧ : ٣٦

(٩) ذكرها الأغاني ٢ : ١٠٣

من ذهب قد انتثرت عليه اللاآئى (١) ، ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام (٢) فيه دنائير وخاتم من العقيق قد رسمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسبه من محاسن الأشياء التى لا تكون إلا عند الملوك ، فهطلت على النعمة غيثا من الذهب ، وليس ذلك إلا لآئى وجدت منصرفا فى القول لحل تلك اليمين .

وأخذت من ذلك اليوم فى تأديب الأميرين موسى وهارون بما أحب أبوهما وأوصانى به يحيى بن خالد وزيرنا ، ولكن كنت إلى الصغير أميل منى إلى الكبير لما وجدت من انصبابه على المطالعة (٣) واعتباره بأقوال الحكماء ، ووددت أن يكون هو السابق فى الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لما هو جدير به من تعمير البلاد . وتقويم العباد . لآئى رأيت الكبير صعب المرام شكس الأخلاق ، وقد عرفت ذلك ذات يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعت فيه رأيه حرد على وطار طائر من الغيظ ، فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به ، فسرّ لذلك وأوسعنى عما بدر منه فى وقت الحدة اعتذارا ، فعرفت من ذلك أنه صعب المرام (٤) وأن من توفاه وعرف أخلاقه دخل فى رضاه ، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه اطرحه وأقصاه (٥) ، وهذا كما ترى خلق غير محمود فى أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ إلى تقريب من يداهنهم بالثناء على ما ليس فيهم من الخلال ، فإن ذلك دليل واضح على بعد الخزم منهم وضعف البصيرة عندهم .

(١) الأغاني ٦ : ١٣٣

(٢) ابن خلكان ٣ : ٤٥٥

(٣) الفخرى ٢٣٠

(٤) المسعودى ٢ : ٢٠٢

(٥) الأغاني ٥ : ١٦

أما هرون رعاه الله فاني عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية الحلم ما أعظم في عيني منزلته ، ولم أر في أولاد الملوك أجمل منه خلقا وخلقاً ، وفيه مماثلة للفضل ابن يحيى بن خالد في الصورة ، وهما في سن واحدة ونشأة واحدة ، حتى إنهما تبادلوا لبن الرضاعة من ثدى واحد (١) فكانت أم الفضل ترضع هرون والخيزران ترضع الفضل ، وهو أبيض (٢) اللون واسع العينين على الجبهة منطوي على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من أمر لم يستفز الغضب ولا يزيد على هاه (٣) كلمة غيظ واحدة ، وأنا أتشرف بتأديبه (٤) إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة ، وقد أتى عليه من العمر أربعة عشر عاماً أصلحه الله ووفقه إلى ما به صلاح الملة والدولة بمن الله وكرمه .

ولست أكتم عنك أنه لما صارت إلى نعمة بنى العباس تحدث الناس بها كثيراً في الحضرة ، وأحدثت في النفوس غصباً يثيرها الإشفاق على دولتهم من المهدي أن يحرق على سنة أبيه في تقديم الأعراب عليهم في المراتب إلى أن تخلو منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فانما يعظم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه في غرض واحد حتى

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ وأبو الفدا ٢ : ٥ وفي الفخرى أن من بعض ما قبل في مديح الفضل بن يحيى قولهم :

كفى لك نخراً أن أكرم حرة غدتك بئدي والخليفة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والخميس ٢ - ٣٣١

(٣) الأغاني ٥ : ٦٦

(٤) قال في مروج الذهب : إنه لما أسلم المهدي ولديه الهادي والرشيد إلى المؤدب أو عز إليه أن يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار . ويرويهما الأشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكاء في مواعظهم ويبصرهما بمواقع الكلام ويمنعهما الضحك إلا في أوقاته يأخذهما بتعظيم الأمراء من بني هاشم ورفع مجالس القواد وألا تمر به ساعة إلا وهو يفتنم فيها فائدة فيقدهما إياها من غير أن يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع في مساحتهما فيستحلما الفراغ ويألفاه وأن يقومهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أباها فعليه بالشدة والغلظة .

تشتد صولته وروج فيه سوق الأدب بما يوجد له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ما سبق من خوفه من الأمويين إلا أن يتجافى عن العرب ويقصمهم عن المراتب إلى أن ترسخ في قبائلهم دولته من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين في فتن صعب لا يرجو بها بلوغ أمنيته ، وإنما رزق من السياسة الحكمة في تقديم الأعراب واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهرهم على تقويم ملكه بما يظهر من الجبروت الذي لا يلتمس في تمكين مهابته من المخالفين له سواء ، كدأبه في الانقطاع عن اللهو ^(١) ، وبعده من البهجة التي تبعده عن شعائر الملة ، وتوجيه من الناس ريبة يهتم فيها كثيرا من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلاس والندماء إلا خلف ستارة يضربها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعا ^(٢) إلى أمور غيرها تدل على أن مثله في التيقظ مثل الذين يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمر بهم زمانهم في أشد ما يكون من الخوف والريبة .

بقية من أخبار أبي جعفر

وقد عرفت بترددى إلى دور الخلافة كثيرا من أخبار أبي جعفر وسياسته فوجدته ينظر ^(٣) في أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال ، فاذا طلع النهار جلس في إيوانه ونظر في حال الأمة وعزل الولاة الذين يريه منهم مخالفته ، ونصب ^(٤) من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابة والقطانة مكانهم ، ولا يزال آخذا في ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قبيل الظهر ، فاذا تناول الغداء عاد إلى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند ،

(١) الخميس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطى .

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٠

(٤) الماوردى ١٣٧

فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم ، فاذا صلى العشاء نظر في كتب العمال مما تجتمع في النهار وشاور ^(١) من يركن إليه من سُمّاره ، تلك عادته من يوم ولي الخلافة .

وإن تذكر عاك الله ما وصفته لك من نحوه في الرسالة السالفة ثم تُضف إلى ذلك ما أنا ذا كرك من سهره على تدبير المملكة تتمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التي أفنى فيها عمره وطال منها عناؤه ، فإن أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والنياب الحند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والحراسانية ^(٢) يملك بعضهم بالذى هو واجد على الآخرين . فترى أن ما لقي من تصارييف الزمان هو الذى جعله على سوء ظن بالرعية ، فهو لا يركن في أموره إلا إلى وزيرنا خالد أعزّه الله ، ولولاه ما استوى له الملك بين تغلب الأكراد ^(٣) في فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البلدان .

وقد علمت مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم مع أولاد علي عليه السلام ، فلما بعد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد ^(٤) تمادى أبو جعفر مع وزيره أبى أيوب المورىانى ^(٥) في سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم وقتلها على حُق كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمه عبد الله الذى غلب بنى أمية في الشام ، فانه لما أحس منه الانحراف أسكنه في قصر بنى أساسه على الملح حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه ^(٦) ، وهذا من الأمور التي يتناقلها الناس عنه بسوء الأحدثنة

(١) المسعودى ٢ : ١٨٤

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٩

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و ٦

(٥) المسعودى ٢ : ١٨٢

(٦) الفخرى ١٩٨ وابن الأثير ٥ : ٢٣٥ والمستطرف ١ : ٩٦

كما يتناقلون ذكر قتله لأبي مسلم داعية الإمامية في خراسان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا الأمويين وأقاموا ملكه في فارس فالعراق خراسان فما بين المسجد الأقصى إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوما في هذا الشأن فحدثني عن جبروت أبي جعفر وأخبرني أن سلامة أمه لما حملت به رأت في منامها كأن سبعا زأر فأقبلت عليه السباع من كل ناحية ، وكلما انتهى إليه سبع سجد له ^(١) فصيح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر .

ولقد دخلت على أبي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحيرة وهي المدينة التي يقصدها ^(٢) حين يشد عليه الحر في الزوراء ، إذ ليس في جوارها ما يصلح لسكنى الملوك غيرها ^(٣) فلما أذن للناس بالدخول عليه صحبت لسان الشريعة أبا يوسف فأصبناه في مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له أبو دلامة ، وهو يدينه ويضحك منه على بيتين من الشعر ^(٤) قالهما في استهجان الزى الذي عم استعماله في لباس الخواص والعوام كما تقدم ، كأنهم في كتابة الآية بين آفهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم ^(٥) ، فلما أدينا فروض السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لي بعد أن قمنا بالواجب من إجلاله إنى رأيتم ” يريد الفرس “ أهل وفاء ^(٦) وفطانة فوليتكم المناصب في دولتنا ، ولم أربى مروان وقد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية في تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جبارا

(١) المسعودي .

(٢) وفي ابن الأثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضا برهة من الزمان .

(٣) الأغاني ٣ : ١٢٥

(٤) البيتان هما قوله :

وكنا نرجى من إمام زيادة
تراها على هام الرجال كأنها
فخاد بطول زاده في القلاص
دنان يهود جللت بالبراس

(٥) العقد الفريد ١ : ٩٨

(٦) ابن الأثير ٦ : ١٢

لا يبالي بما يصنع ، وكان سليمان همُّه بطنه ، ثم أفضى أمرهم إلى أولادهم المترفين فكان همهم الشهوات وركوب الملاذ من معاصي الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمنأ منهم لمكره باطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بمُخَصَّرة كانت في يده ، فوقع على بنى أمية من حضر المجلس قذف شديد ، يرومون به موافقة السلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقهم ويستحلُّون أخذ أموالهم بغير استحقاق ، ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد ما لا طاقة لهم به من الضرب والإهانة ، ولا يقنعهم ذلك حتى يحطموا زرعهم في طلب درّاج قيمته نصف درهم ، ثم انتقل بعضهم من هذا القذف إلى أن يحث الخليفة على تتبع الهاربين منهم في جميع الوجوه ، وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين اللذين قالهما سُديف لأبي العباس لما تمَّ له الغلب عليهم :

لا يغرّك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فامتلاً وجه الخليفة غضبا وقال : لعمرى إن الأمويين أهل مظالم قد غمطوا النعمة فهوى نجمهم ونلَّ عرشهم ولله فيهم ^(١) نقمة سأتبعها فيهم حيث لقيت عاتيا . فعجبت من مظاهرتة بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمحال . وأنا لا أقول إن الأمويين متزهون عن هذا الطعن ولا عن أشد منه ولكني أرى أنهم لو لم يكونوا حقيقين بمثله لرماهم كثير من هؤلاء الجلاس بأنكى منه تقربا من السلطان فيما يجب من القدح في أعدائه ، وكان ذلك أول ما لقيت أبا جعفر ، ثم لم أره بعد ذلك لأنه ركب ^(٢) إلى مواطن الحج المباركة شرفها الله بكرمه وإحسانه .

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٧ والقزويني ١٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

في ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة إلى الموسم موكب لم ير أحفل منه في مواكب الملوك ،
فقد أقبل أهل المدينة إلى باب الكوفة ^(١) حيث اجتمع من النافرين إلى الحج
الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم ما لا يحصى عدده إلا الله ،
وكلهم مجهز إبله وكسوته وقربه وخريته وطعامه وهو الأخصبة اليايسة والأقراص
المعجونة باللبن والسكر والكحك المنضد والقواكه اليايسة وغيرها من طعام الحاج ^(٢) ،
ومعهم قطعة من الجند تحوطهم ^(٣) في نزولهم وارتحالهم ، وفي طليعتهم هوداج
تظللها قباب من الديباج المطرز بالذهب ^(٤) ، وفيها يقيم الأمير المولى على الحاج ،
وله في إمارته النظر في أمور عشرة وهي أن يجمع الحاج في مسيرهم وتزولهم حتى
لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني . وأن يرتبهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم
مكانه إذا أناخوا في بلد . وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم
ولا يضل عنه منقطعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها
وأجديها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلت والمراعى إذا انقطعت ، وأن يحرسهم
إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير بجهد لا بمال .
وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية
رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت
فلا يخشى عليهم ضيقه لأنهم إذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة ما بين زوال الشمس
إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج ^(٥) .

(١) هو من أبواب بغداد .

(٢) المسعودى ٢ : ٥٦

(٣) الأغاني ٩ : ٦٤

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٧

(٥) الماوردي ١٨٧

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غصت بالناس المواقف وضافت بهم الساحات ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة ، ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة ^(١) في الحلية الثقيلة ، وهو جالس في هودج ^(٢) منزّل بالأصداف اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفي يده قضيب الخلافة وفي الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى ^(٣) من فوقها بُردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية يُلقونها على أكفّهم في جلوسهم وركوبهم ، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم . وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم ^(٤) وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأئمة لتبقى عندهم بركة ، فاشترها أبو جعفر بثلاثمائة دينار ^(٥) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين . وأما الفيلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب ، وقد أخبرني نصير ذلك الخادم الذي مضى في هذه الرسالة ذكره أنه إنما اتخذها مربكاً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها ^(٦) . وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل التي يظعنُها حريمه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدي حاجاً ^(٧) ، ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود .

(١) المقدمة ١٤

(٢) الكشكول .

(٣) كذا في العقد الفريد ٣ : ١٥٦

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٦

(٥) السيوطي .

(٦) المسعودي ١ : ١٨٥

(٧) ابن الأثير ٦ : ١٣

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا صخبهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الإسلام ما لا يخالج النفس أعظم منه ، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أبهة الدولة غير حج البيت الحرام ، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية ^(١) ، وأن يسألوا الله له النعمة ويوفقه ويُلهمه الرأفة بهم . ثم إنه عزم على ولي العهد أن يصحبه إلى قصر عبدويه على مسيرة يومين ^(٢) من الحضرة لتتم له الخلوة به على انفراد ، إذ كان يحسب من هذا الموسم إتيان مالا مردّه ، وقد كان يرى في منامه كأن نجوما تهوى من السماء ^(٣) فيتشأم من ذلك . فلما نفخ في البوق إيذاً بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الأبواب . كأن سفنه الركاب . وشُرْعها الظلل المرفوعة والقباب . وفي مقدمتهم هودج الخليفة قد لمع ذهبه كأن الشمس ترسل إلى الناس نورا من جلال الخلافة .

ولما كان بعد ذلك عاد المهدي إلى الحضرة وشرع في مباشرة الأحكام على الوجه الذي يريده أبوه ، حتى صرنا ونحن اليوم في ولايته أشبه بنا في ولاية أبيه إلافيا يصير إلينا من العطاء الذي لم نتعوده من أبي جعفر ، وأما ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلا أن يقتنى فيها أثره ، وقد أوصاه وهو يودعه في قصر عبدويه الوصية التي هي من أحسن ما أوصى الملوك به أولادهم في السياسة ، بدأ فيها بتحريضه ^(٤) على سكن الزوراء وألا يستبدل بها غيرها ، وأن يظهر كرامة أهل بيته ^(٥) ويحسن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهل خراسان إذ كانوا

(١) السيوطي .

(٢) أبو الفرج ٢٢٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦

(٤) ابن الأثير ٦ : ٧ وأبو الفداء ٢ : ٧

(٥) أبو الفرج ٢٢٠

شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم^(١) وألا يستعين بأحد من بني سُليم (خوفا من ميلهم مع أهل البيت)، وأن يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغي الذي لا حاجة به إليه مع ما خلفه له من المال ، وأن يشحن الثغور ويضبط الأطراف ويعد الكراع والرجال ويسئ الظن بالعمال ، وألا يدخل النساء في أمره^(٢) ولا ينام إلا وهو مستيقظ إلى آخر ما أطل به في هذه الوصية التي ذهبت مثلا بين وصايا الملوك .

في ذكر من لقيته من الشعراء

يحسن بي في ختام هذه الرسالة ، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولة أبي جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ، ولكن بإيجاز يدل على موضعهم من الإجادة في مذاهبهم ، دون إطناب ينتهي إلى ما لا تسعه الصحف من ذكر أبياتهم ونواديرهم . فأبدأ منهم بذكر بشار بن برد البصري ، وهو ضرير قد لقيته في مجالس البرامكة^(٣) لأقول قدومي إلى الزوراء، وكان خالد أعزّه الله قد أحب أن يطلق على اسم الزائر ويطل عن اسم السائل الذي كان ينعت به الغرباء في ذلك الوقت^(٤) لقوله لي إني والله لا أحب اسم السائل إلا لطلاب الإحسان ، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسمّى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأحرار والأشراف ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ولكنا نسميهم الزوراء ، فوجد بشار لنفسه نصيبا من كلام الوزير فأطلق لسانه في الإنشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه في فنون الشعر .

(١) العقد الفريد .

(٢) الفخرى ٤٨ .

(٣) الأغاني ٣ : ٣٦ .

(٤) الأغاني ٣ : ٣٦ الطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥

وقد رويت لبشار هذا الشاعر نحو من مائة قصيدة ورأيت له في أكثرها ابتداء يرفعه إلى مسامة المتقدمين من شعراء العرب ، فلقد سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى) وحيث يقول (قفا نبك من ذكرى حبيب ومزل) وفى الإسلام القطامى حيث يقول (إنا محيوك فاسلم أيها الطلل) ومن المسلمين بشار حيث يقول :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيا
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توها
ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجز البصراء عن الإتيان بأفضل منه
وفى قوله :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
سمو لم يعل عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، وهذا من الغريب الذى لم يسمع بمثله عن أحد من العميان لأن قولهم منحصر فى الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها ، بخلاف هذا الشاعر فإنه يتوسع منها إلى سائر المذاهب من غير أن يقع فى الانحطاط الذى لا يؤمن على من يدخل نفسه فيما هو غريب عنه ، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيدا عن تصوّر الحسن ولكنه أغزل الشعراء (١) حيث يقول :

أنا والله أشتهى سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق
وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ، ولذلك أقدمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذى يُجِلُّه عن التكلف ولا أجده فيه من انتقاد

(١) الأغاني ٦ : ٤٩ وابن خلكان ١ : ١٢٥

عيب^(١) به شعره إلا استرساله في الهجاء واختلاقه بعضاً من الألفاظ التي يحتاج إليها لقيام أبياته على القافية من غير أن ترد في لغات العرب .

ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبي حفصة وهو منقطع في شعره إلى مديح معن بن زائدة^(٢) لأنه كفاه مؤونة الاستعطاء من غيره ، ولما أتى في بعض مديحه له على ذكر بلائه في حرب الرواندية بقوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهنيد وسان

أعطاه مائة ألف درهم ، وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز ، حتى إن أبا حمفر لما علم بذلك أكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معن : "لله دره من أعرابي ما أهون عليه ما يعز على الرجال وأهل الحرم" ،^(٣) .

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التي يقول فيها مادحا هذا الأمير :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لهم في غيل خفان أشبل

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
إلى أن يقول :

تجنب لا في القول حتى كأنه حرام عليه قول لا حين يُسأل

تشابه يوماه علينا فأشكلا فما نحن ندرى أيّ يوميه أفضل
أيوم نداء الغمر أم يوم بأسه وما منهما إلا أغر محجل

(١) الأغاني ٣ : ٤١ و ٥٣ و ٧٣ وابن خلكان ٢ : ٢٥٢ وابن الأثير ٦ : ٣٧

(٢) الأغاني ٩ : ٤٤

(٣) المسعودي ٢ : ١٨٣ والأغاني ٩ : ٤٤ وابن خلكان ٢ : ١٦٠ والمستطرف ١ : ٧٣

ولكني سمعت من يقول إنه رفعها بعد حول كامل ^(١) فقالها في أربعة أشهر وانتخلها في أربعة وعرضها في أربعة بغضات كأنها السحر الحلال ^(٢) يعجز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثر من عقله وأن الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناء شديد ، وإنما يحب من الشعراء سرعة الخاطر إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا في المجالس والأسواق . ومن كلام مروان :

طرقتك زائرة في خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها ^(٣)
قادت فؤادك قاستقاد ومثلها قادت القلوب إلى الصبا فأمالها

ومن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو إسحق إسماعيل « من قبيلة عنزة » ^(٤) ويعرف بأبي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين بيتا في اليوم الواحد ، حتى ليس إلى الإحاطة بجميع شعره من سبيل ، وله كلام لم يسبق إليه أحد ^(٥) كقوله :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن
وله من بعض كلام ^(٦) :

لا تأمن الدنيا على غدرها كم غدرت قبل بأمشالك
أجمعت الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا

(١) الأغاني ٩ : ٤

(٢) ابن خلكان ٢ : ١٣١

(٣) في العقد الفريد « بيضاء تشر بالحيا دلالها »

(٤) الأغاني ٣ : ١٢٧

(٥) الأغاني والعقد الفريد ١ : ٣٧٤

(٦) المسعودي ٢ : ٢١٨

وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى به الخاصة وإن كان منحطاً عن لغة الأولين في فصاحة الألفاظ ، وتصرفه في الشعر مقصور على وصف الآخرة ^(١) ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما في عمرو بن العلاء :

إن المطايا تشتبك لأنها قطعت إليك بسابسا ورمالا

فاذا وردن بنا وردن خفافا وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

وهذا أحسن ما يقال في امتداح الكريم ، إذ لا يخفى أن وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له من الجميل .

ولقيت منهم أبا دلامة زئد بن الجحون وهو من الشعراء المجيدين لكنه قد أضاع شعره في استعطاء ابن جعفر وهو بمكانه من الإمساك كما علمت وقد قال في الثناء عليه :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقليل اقعدها يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلهم إلى السماء فأتهم أكرم الناس

وهذا كلام يسموبه إلى جمال الشعر ويملك النفس بما أودعه من وصف السعادة التي صورها مخوفة بالنور، ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس ببعده الممدوح عن محاسن الكرم . وقد وجدت أبيات هذا الشاعر محلاة بالخلاعة كما أتى وجدته يتوسع فيها إلى المجون ^(٢) وكثيرا ما كنت ألقاه في مجالس المهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

(١) الأغاني ٣ : ١٢٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والأغاني ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشريشي ٢ : ٢٦

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الأعرابي لقيته في مجالس المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنانة فأجزلوا عطيته من المال وقد حفظت له من جملة أبيات يقولها في مديح رُوح بن حاتم من أمرائهم^(١) :

إني لأرجو إن لقيتك سالماً ألا أعالج بعدك الأسفاراً
وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بإفراغ المال عليه حتى
تثقل به فقلت للآئمينهما أنت إلا من يقول فيه زهير :

تراه إذا ما جئته مهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
فقال والله لأن أعطى أحب إلى من أن أمدح . ولا بن المولى كلام يقرب
أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لمقامه في مواضعهم من البادية بعيداً عن حضارة
الأمصار ومن شعره في النسيب :

أحن إلى ليلي وقد شطت النوى بليلى كما حن اليراع المثقب
تقربت ليلي كي تتيب فزادنى يعاداً على بعيد إليها التقرب
وقوله :

وأبكى فلا ليلي بكت من صباية إلى ولا ليلي لذي الود تبذل
وكان الحسن بن زيد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة^(٢) ، قد دعاه
وأغلظ له ، وقال أتشيب في حرم المسلمين وتنشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهراً ؟
فقال امرأتى طالق ثلاثاً إن كانت ليلي إلا قوسى هذه ذكرتها على سبيل التشيب ،
لأن القريض لا يحسن إلا بالنسيب . على أنى وجدت شعره إلى فصاحة البداوة
أقرب منه إلى حلاوة الحضارة وفى قوله :

سلا دار ليلي هل تبين فتنطق وأنى ترد القول بيداء سَمَلق ؟
عفتها الرياح الدامسات مع البلى بأذيالها والرائح المتعبق
بكل شأبيب من الماء خلفها شأبيب ماء مزنها متائق

(١) الأغاني ٣ : ٩٠

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

ما يبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية ، وإنما يدخلون في لسانهم كلام السوق^(١) وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم في أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تصبح لغتهم في أشد المبالغة للسان العرب .

ومن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحميري ، وهو من الواقفية القائلين بالإمام المنتظر^(٢) ، يأتي في شعره على غرضه في السياسة ، ويفرط في سب أصحاب النبي^(٣) صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت ، وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس ، إلا أنه ليس لأحد من الشعراء ماله من عذوبة الألفاظ ، وجودة السبك ، وروني الشعر وطلاوته . وقد جمعت وإياه إلى هذا اليوم أكثر من مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا تحدث بين القوم أعطى كل رجل في مجلسه نصيبه من حديثه^(٤) ، وله في النسيب كلام رقيق فمن ذلك قوله :

ولما رأيتني خشيةً البين موجعا أ كفكف مني أدمعا ييضها درر

أشارت بأطراف إلى ودمعها كنظم جمان خانه السلك فانتثر

ومن الشعراء المقدمين أشجع بن عمرو السلمي^(٥) ، وقد نزل الشعر في صدره موهبة من الله ، فانتفضت به قيس لذلك ، إذ لم يكن بها في الإسلام شاعر قبله ، وإنما كان الشعر في ربيعة وإيمن . فلما نجم أشجع وقال الشعرا فتخرت به قيس

(١) يقول في الأغاني ٣ : ١٧٣ إن الألفاظ السوقية لا تمنع أن تكون القصيدة جيدة .

(٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودي ٢ : ٨٠ وسُمي شيعته بالكيسانية .

(٣) أبو الفدا ٢ : ١٥

(٤) الأغاني ٧ : ٣

(٥) الأغاني ١٥ : ١٠٨

على العرب^(١) ، ومما أستحسنه من نظمه سهولة القول التي لا يعانى إلى البراعة فيها تكلفا ، وقد حفظت له في مديح ولى العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله^(٢) :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته وإذا غفا سلّ عليه سيوفك الأحلام

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار ، وقد رأيتهم يتسابقون إلى ابتكار المعانى الحسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم في عصور الجاهلية ، إلا فيما كان أقل من النادر^(٣) ، ولو رأينا لهم ما سيّقوا إليه ما صح أن تهمهم بالانتحال ، لأن العقول قد تتوافق وتتوارد ، وإن كان المتقدمون من الجاهلية أشرف منهم لفظا فانهم لألطف منهم صنعا وأكثر من المعانى حظا . وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا في الزوراء إلا ابن هرمة وسأما الخاسر ، وكلاهما شاعر مجيد أيضا إلا أن أبياتهما لم تصل إلى ، فلم أعلق أخبارهما في هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة في منتصف ذى الحجة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المسئول في توفيقنا إلى السداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

(١) الأغاني ١٧ : ٣٠

(٢) البتآن قبيلا في هرون الرشيد .

(٣) انظر ابن خلكان ١ : ١٠٢ والأغاني ٣ : ٤٩ و ١٤٨ و ٥٠ : ١٧٨ والحصرى ٢ : ١٦٧

الرسالة الرابعة

جلوس المهدي على دُست الخلافة

أفتح هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدي على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر ، وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والإسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولد العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذر مصيرها إلى المهدي ، والمشايخ من أهل هاشم حاضرون ، بغير الأمر على خلاف المظنون بحيلة علمتها من البرامكة سرا لم تكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موته إلى الصباح عمن كان معه في الحج ، واستدعى عيسى بن علي عمه وعيسى ابن موسى ولي العهد بعد المهدي وجماعة من القواد والأمرء ، وتقدم إليهم بأمره — فيما كان يزعم — أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يعلمهم بوفاة ، فلم يتجرأ أحد على مخالفة الأمر ، ظنا منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاة ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مراده ولم يبق له غرض من كتمان موته دخل عليه كمن لا يعلم أمرا مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوق الجيب با كيا ينعي وفاته ، فلم يكن فيهم إلا من أخذت عليه البيعة ، وركب رجال المهدي إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها^(١) ، فصارت الخلافة إلى المهدي بهذه الحيلة التي تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإن كان فيها حقن لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبي جعفر في برميمون مع السحر ، لست خلون من ذي الحجة ، وهو محرم بظاهر مكة^(٢) ، ولذلك دفن مكشوف الرأس دون أحد غيره من

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨

الخلفاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس القميص والعمام والبرانس ^(١) وغير ذلك من أنواع المخيط ، وحفر له أهله مائة حفرة بين الحجون وبئر ميمون ^(٢) ليُعمَّوا على الناس ، ثم دفنوه في غيرها . ووجه الربيع منارة ^(٣) الخادم إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفا من أمر يحدث في الإسلام ، بخاءها في أحد عشر يوما ^(٤) من مكة .

وقد كنت في مجلس هرون الرشيد حين سمعت الجليلة في مقاصير الحرم ، فاستعلمت الخبر ، فنبئت أن أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت ، فأخبرني نافذ أحد الحجاب أن المهدي قد دعاهم إليه ، فنزلت إلى السوق فلقيت أستاذي أبا يوسف ، فأبنت له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة ، فأشار إلىّ بالبقاء معه إلى قبيل الظهر ، وهو الوقت الذي يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدي .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحات غاصة بجماهير الناس ، فوجدنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى اتهمنا إلى باب القبة الخضراء ، بجاوزنا الحجاب إلى المجلس الذي تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جميع الأمراء من بني العباس وجلة القواد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أعزهم الله وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نُوبخت وغيرهم . وكان المهدي مستويا على عرش مكلل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسه قبة تتدلى منها أستار من الديباج ^(٥) ، وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفنا بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رحمين مكسوين بعروق من الذهب ،

(١) الزرقاني ٢ : ١٤٨

(٢) الخميس والعقد الفريد ٣ : ٥٣

(٣) المسعودي ٢ : ١٩٤

(٤) أبو الفداء ٢ : ٩

(٥) المسعودي ١ : ٢٣٤

قد نُزِّلَ فيها الياقوت والزبرجد والفيروز ، ودونهما بنو هاشم على وسائد قد شئت لهم ^(١) ، ولباسهم خز أسود ، وكذلك كان لباس المهدي ، وكانت عليه الطرحة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي استصحبها أبو جعفر إلى الحج ، وفي يده القضيب وفي الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبر منخرف بأنواع الزينة والجواهر والديباج ، قد وقف به كاتب المهدي في خلافة أبيه ^(٢) أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذه وزيراً ^(٣) له في سياسة الملك وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفا على بعض مرّقة ^(٤) هذا المنبر بالبيعة التي جاء بها منارة من مكة ، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة ^(٥) ، قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا إلا متابعة الناس ، بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القواد والوزراء وأكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدؤوا الخليفة بتعزيته في أبيه ، ثم يهتفون بجلوسه على تحت الخلافة ، فلما أخذوا في تعزية المهدي خلعوا قلائسهم ونبدوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يُعزّون بالعمائم ^(٦) ، ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، ولفظ البيعة قوله ^(٧) "إنا نبايع سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور ، على

(١) الأغاني ٤ : ٩٣

(٢) الفخرى ٢١٥

(٣) الأغاني ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسعودي ٢ : ١٩٦

(٤) السيوطي .

(٥) يفهم من ابن الأثير ٦ : ٦ أن خالداً ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفي المنصور [

(٦) الأغاني ٩ : ٩٧

(٧) السيوطي .

كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين ، وأن لا خليفة سواه ، ثم بايعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يسمع إلا دعاء له وتنويه باسم بنى العباس .

ثم تناول الوزير منشورا كتبه الربيع على لسان أبي جعفر استنهاضا للناس إلى مبايعة المهدي ^(١) ، فتلاه على مسمع من الأمراء وفيه يقول . ” بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعته في خراسان وعامة المسلمين . أما بعد فإنني كتبت هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ، ولا يلبسكم شيئا ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بمحمد وإلى عهدكم وأذكركم البيعة له ، وأستنهضكم للوفاء بعهدده واجتماع كلمتكم عليه ، فانما قوتكم تكون بالاجتماع إلى رأيه ، وقد أوصيته بكم بالرفقة عليكم والإحسان إلى المسلمين والسلام .“ فترقق الدمع في عيني المهدي ^(٢) ولم يتمكن من إطالة الخطبة التي يقوها الخلفاء ، لما غلب عليه من تأثير النفس ، فصرف الأمراء وهم يدعون له بالسلامة .

سياسة المهدي وخالعه عيسى ابن عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت في المدينة زينة حافلة فصرفت العناية إلى تزيين مَشْرِع الزوايا ^(٣) بالأنوار ، لقربه من موضعي ، ليكون في ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولاني من الجميل ، ودفع لألسنة الوشاة عن السعاية بي إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت ، وامتلأت الزوراء في تلك الأيام بأرباب الملاهي ، وبما يعرضون من صور الطين التي يصنعونها للعب الصبيان

(١) ابن الأثير ٦ : ١٢

(٢) الإصحاق ٨٨

(٣) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

في المواسم والأعياد (١) ولا أطيل لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم ، لأنها في جميع الأمم عامة ومتماثلة ، وإنما أخبرك بما عرفتته للمهدى — أصلحه الله — من حسن السيرة التي يروم بها أن يستبدل برعب الناس من أبيه ورغبتهم عنه محبتهم له وميلهم إليه فأقول :

إنه بعد أن أظهر من الأبهة بافتتاح خلافته ما يعظم موضعه من السلطان ، صنع لبني هاشم وسائر قریش طعاما جاوز فيه الحد بسعة النفقة (٢) ، حتى إنه أطعم الناس الطير وخبز السميد . وكان يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه ، فلا يتعرض له أحد إلا أعطاه (٣) ، فكان أرباب الدولة يخافون نفاد ما في بيت المال (٤) إذا استمر هذا العطاء (٥) ، ولا سيما بعد أن نقص دخله الدولة برفع المؤن والكسور وهو الأمر الذي كان يفاوضني فيه أيام خلافة أبيه ، فان الناس في صدر الإسلام كانوا يؤدون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضرورية على وزن كسرى وقیصر ، لا يفرقون في الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدها التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبري ، الذي هو أربعة دوانق ، ويمسكون الوافي ، الذي هو مثقال ، فلما أمر زياد صار يطلب الوافي ، ثم أمر الحجاج فطلبه كذلك ، فلما صار الأمر إلى أبي جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يسقط الكسور ، فلما ولي المهدي قال معاذ الله أن ألزم الناس ظلما في ذلك ، فقليل له إن أسقط

(١) ابن خلكان نقلا عن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) الأغاني ٣ : ٩٤

(٣) المسعودي ٣ : ٤٠١

(٤) المسعودي ٢ : ١٩٦

(٥) المصري والتنجيس ٢ : ٣٣٠

أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله في السنة اثنا عشر ألف ألف درهم^(١) ، فقال على أن أقرر حقا وأزيل ظلما ، لأن العدل موفر للجباية ، كفيل بعمران الأمصار .

ولقد أعظمت للمهدى هذه المأثرة التي أحسبها له من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فان لنا في سقوط الدول التي قامت في هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا ، فانما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيام بأعمال الزراعة والمقام في بلدان الخصب ، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تتاسلوا في ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا إذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غفلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتها إليه مطالب الترف ، لم يبق في نفوسهم شيء من حب البلاد ، وهم لا يتغنون منها إلا تحصيل القوات الذي يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مرد العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، نخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان وفود البلدان يردون على المهدي من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب لتنهئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشرف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه لخير لأنهم رأوا منه عدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان محسنا إليهم^(٢) ، محبا لهم وساعيا فيما تصلح به أمورهم ، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلسا لرد المظالم^(٣) ، ولم يكن قبله في الدولة العباسية من ينظر في تعدى الولاة على

(١) الماوردي ١٣٧

(٢) الخليس ٢ : ٣٣١

(٣) السيوطي وابن الأثير .

الرعية وجورهم فيما يحبونه من الأموال^(١) ، ولقد وجدت له في استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما نفسه، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بمأمن من تغلبهم عليه ، ثم جعل الخلافة من بعده في ولده ممنوعة على غيرهم من بني العباس . فأما أمر العلويين فما كان يشتد عليه وقعه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها إلى زمن يلمون به شعثهم ، ويجمعون إليهم أطرافهم ، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم . وأما خلع عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فانه كان يُتَّعَب منه البال ، وقد دخل عليه يحيى بن خالد — أعزّه الله — فأصابه في قلبه شديد ، يقعد مرة ويضطجع أخرى . قال لي يحيى فعلمت من ذلك أنه يريد أمرا عظيما ، فقال اجلس قريبا مني ، لأتينا أريدك للشورة^(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، فما ليثوا أن أجمعوا على أبي بكر ، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار ، لقولهم منا أمير ومنكم أمير ، ثم مات أبو بكر وقد صير الأمر إلى عمر بن الخطاب ، فلم ينازعه فيه أحد ، ثم عهد لها عمر إلى ستة نفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأجمع رأى الأئمة على عليّ وعثمان ، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المتوه عنهم يميل مع عثمان ، وفي وصية عمر إلى المسلمين أن يتبعوا رأيه ، فبايعوا من أراده ، فاستقر عثمان في خلافته إلى أن ثارت عليه الفتنة لإقصائه ولد أبي بكر وإقباله على أقاربه من الأمويين بالصلوات الطائلة ، وعهد المسلمين قريب

(١) في المارودي ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر في كتابة الدواوين إذا وقع بها تروير وفي نظلم المستزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفي مشاركة الوقوف ورد المنصوب إلى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن إنقاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطه وإمضاء ما يعجزون عن إمضائه في البيئات والتقارير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح .

بضبط^(١) أبى بكر وعمر، فقتلوه وكانت تلك أقل فتنة في الإسلام،^(٢) ثم أجمع العرب على علي عليه السلام، وكان الفرس يميلون معه، فاستوثق له الأمر في العراق وإيمن والحجاز ومصر وفارس وأخراسان، إلا الشام لاستواء معاوية فيها، فلما قتله الخوارج لم ير الحسن ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضنا ببذل الدماء فترل له عن الأمر، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخاف اليوم إن صارت إلى ابن عمي أن تذهب من بيتي بلا رجوع، ثم يكون من الفتن مالا يؤمن غائلته على المسلمين، فأشِر عليّ يا أبا الفضل في هذا الأمر، الذي لا يتعاضمه أمر، فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر.

فقال له يحيى يا أمير المؤمنين إنى أرى الزّلة في هذا الأمر لا تستدرك، والخطأ فيه غير مأمون، فإن تكتب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكد في البيعة. فقال له المهديّ كنت أفعل هذا لولا أنى أخاف من عيسى نكت العهود، ولكنى أرى أن أخلعه عن الولاية وأخذ البيعة لموسى على المسلمين، فقال له يحيى على أمير المؤمنين أن يعلم شيعة ومسان أهله بذلك، ولم يتعمق في هذا البحث إلى أبعد مما أشار به، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة، وأنه وإن كان يأخذ في تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق، له في حبه للعلويين ما يرى به عدولهم عن العراق الذى ترهق النفس دون التمكن من أهله، وإنما يلتمس لهم من المغرب أمما ترسخ فيهم دولتهم، إلى أن يأتهم الله بالنصر القريب.

ولما جمع المهديّ أكابر الدولة وفاوضهم في هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم^(٣) ولكن على أن يجيبه ابن عمه إلى الانخلاع وانتهى بعض من يستخدم

(١) الفخرى ١١٦ •

(٢) السيوطى •

(٣) ابن الاثير ٦ : ١٦

الفقه في رضا الملوك إلى أن يقول إن أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلا لتبقى الخلافة في بيته بعد المهدي ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم ، فكتب المهدي إلى الرحبة يستقدم ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر ، أو وصله أنه يعتل بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليه إلا أن يكره بالقتال . فعمد إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأموراً بالأخذ بالقتال ، بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت في الحروب يقال له أبوهريرة محمد بن فروع ، فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصف العساكر صفوفا متعارضة ، ويضرب وراءهم مصاف الخيام ليوهم باستنكار العدة والعزم على مثابة الحصار ، ثم يُنزل بالجنود الزعقة العظيمة التي إذا سمعها عيسى وهو في نومه خامره الجزع وأفرعه الهول ، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سحراً ورأى سواد الجيش ، فامتلاً قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلا بالاستسلام ، فأخذه أبوهريرة إلى المهدي ، فلم يفر عن استعمال الحيلة في تعويضه عن الولاية بالمسال إلى أن أجابه إلى الانخلاع ، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم .

ولما تصرف المهدي في أمر البيعة بما أراد ، ثار في قلوب المخالفين (١) له ما كان يُحِمُّده فيهم حلمه وسعة عطاءه ، فحصل في نفسه منهم خوف شديد ، ولكنه لم يرمقوا متهم بالقتل ، وفيهم كثير من أهل السيف ، لئلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يجب ، وإلما رجع إلى من يلوذ به من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم ، وأخذ في استصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من أهلها باكره العزاب على الزواج ، والإحسان إلى المتعفين من الشبان ، مما جرى له قيل وقال بين الناس ، كمثل أن نسبوا ذلك منه

(١) ابن الأثير والفتوح والسيوطي .

إلى غيرته به على النساء (١) ، وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازنتها بمكة مهد الإسلام حتى يعظم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

ظهور المهدي بمناصرة العلم

إني وإن لم أكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لأنني إلى قوم سواهم لأميل) لأوفى المهدي حقّه من الثناء على ما له من جميل العناية (٢) في تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياما (٣) معلومة من السنة ، يعرضون فيها بضاعتهم من علم أوفى أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يميزهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

ولقد رأيتُه أصلحه الله أعطى الخلفاء نوالا للشعراء ، وهو يأذن لهم بالدخول عليه مرة في السنة (٤) فيجتمعون ببابه ويتفاحرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول ما ولي الخلافة ، وقد قصده ابن المولى من البادية (٥) وسلم الخاسر من البصرة ، وابن الخياط من مكة ، وأشجع السكمي (٦) من الحجاز فقالوا فيه الشعر الذي لم يمدح بمثله أحد من الملوك . ومن جملة ما حفظت لأبي العاتية في تهنته إياه بالخلافة قوله :

أنته الخلافة متقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

(١) في الأغاني ٣ : ٤١ أن المهدي من أشد الناس غيرة .

(٢) الإسحاق ٨٨

(٣) المستطرف ١ : ٣٧

(٤) الأغاني ٩ : ٤٤

(٥) الأغاني ٣ : ٨٨

(٦) ابن خلكان ١ : ١٠١

ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
وإن الخليفة من بغض « لا » إليه ليغض من قالها
فأصاب لذلك حظا وافرا من المال . وكان بشار المقدم ذكره في الرسالة
السالفة واقفا في صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله ويحكم انظروا هل
طار الخليفة عن سريره ؟

وكان المهدي يقدم عليهم سلمًا البصريَّ ومروان بن أبي حفصة ويعطيهما
عطية واحدة ، فأما مروان فإنه يلتمس الفصاحة في كلامه تشبهاً بكابر الشعراء (١) ،
وأما سلم فإنه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون أنسا في عيون السلطان ، فوقع فيما
يتصرفان به من مذاهب الشعر بون يشبه أن يكون ناشئا عما فيهما من تباين المشرب
بين الإفراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فان مروان بخيل يضمن بماله (٢) ،
وسلم ستمح يبذل المال ، يأتي إلى دار المهدي على برذون قيمته عشرة آلاف درهم ،
ولباسه الخز والوشى (٣) ، ويأتي مروان بأثواب رثة على حمار يكتريه بدرهم لا يخرج
من يده إلا بعصب الريق ، مع كثرة ما أصابه من المال (٤) في صلوات تجاوزت
خمسة آلاف دينار في عطية واحدة كما علمت .

ولئن تكن الفصاحة في كلام مروان أجلَّ منها في شعر سلم إني لأعيب عليه
المداهنة التي يلتمس بها مرضاة الخليفة بقدره في أهل البيت على غير حكمة وعقل ،
كأنه يحزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله في ثبوت الخلافة للعباسيين وبعده
العلويين عن وراثة النبي صلى الله عليه وسلم :

يا ابن الذي وِث النبي محمدا دون الأقارب من ذوى الأرحام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام (٥)

(١) الأغاني ٩ : ٤١

(٢) الأغاني ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥

(٣) الأغاني ٩ : ٣٩

(٤) ابن خلكان ٢ : ١٣١

(٥) الأغاني ١٢ : ١٧ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودي ٥

وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هي مصلحة دينية لا وراثية دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأن الحسن والحسين هما ذريته ، فإذا وجدت الذرية لم يبق مدخل للأعمام في الوراثة ، اللهم إلا إذا رجعنا إلى شريعة الجاهلية التي نسخت بحجى الإسلام ، ولو أنا ضربنا عن ذلك كله صفحا ما وجدنا أصح للإسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحد من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا من ذكرها الآن في شيء ، وإنما أعود إلى الحديث الذي جرى به القلم عن سيرة المهدي ، فاني شهدت بداره أيام الشعراء وأيام القصّاص وأيام الندماء وأيام المغنين وأيام الرماة ^(١) وأيام جري الخيل ، وقد سبقه إليها الخلفاء ، إلا يوم السباق فاني لا أعلم عن أحد من بني العباس أنه أقام الحلبة وأجرى بين يديه الخيل في محفل من كبراء الدولة قبله . وكان له فرس سباق الأضاميم ، يقال له الغضبان ^(٢) ، فكان أول خيل الحلبة في ذلك اليوم ، فلما وصفه الشعراء أصاب جائزتهم العجاني وقد ارتجز :

قد غضب الغضبان إذ جدّ الغضب وجاء يحجى حسبا فوق الحسب
من إرث عباس بن عبد المطلب وجاءت الخيل به تشكو التعب
له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التي تكفي المشاهدة لها مرة واحدة ، وأما الذي تراح إليه النفس ، على التماس الكثير منه في دور الخلفاء ، فهو يوم الغناء وكان المهدي إذا اتخذ له مجلسا بداره ضرب للغنين ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يرونه ^(٣) إلا فليح بن أبي العوراء ، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان

(١) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٢

(٣) الأغاني ٤ : ٩٩ وذكر المسعودي ١ : ١١٨ أن الأوائل من بني العباس ما كانوا يظهرون

والأصوات^(١) وإن لم يكن أحسنهم صوتا ، فانما يحسن الغناء عند من يُشبع الأُحْسان ، ويملاً الأنفاس ، ويعدّل الأوزان ويفخّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويُقيم الإعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع^(٢) ، فهو يحسن ذلك كلّ لمحله الجليل من هذه الصناعة وليس له فيها شريك إلا مغن آخر يقال له عطرده^(٣) قد أدرك دولة الأمويين في آخر مدتهم وأما من سواهما من المغنين فليس لهم في الصناعة ما للتقدمين من الفرس ، وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأن الزمن الذي مضى عليهم في صدر الدولة كان مضرجا بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر في مطالب اللهو والترفيه إلى التماس الأسباب التي يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة . ثم إن نقل الغناء إلى العربية^(٤) ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه ، لأنهم نقلوه من الفارسية في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وهو الزمن الذي أخذ فيه العرب بسكنى الأمصار وانقلب أمر الأمة من سذاجة الخلافة إلى ترف الملك ، فلقد نقلت إلينا الأخبار السالفة أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهة الملك ، ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه إلى التماس النعيم من الدنيا^(٥) وإنما كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبسون الثياب المرقعة^(٦) ، ويتخذون في أرجلهم نعالا من ليف^(٧) ويمشون في الأسواق كبعض الرعية رجالا^(٨) وكان لباس أبى بكر الشملة والعباءة ، ولباس عمر جبة

(١) الأغاني ٤ : ٨٨

(٢) الأغاني ١ : ١٢٦

(٣) الأغاني ٤ : ٩٩

(٤) الأغاني ٣ : ٨٦ والمسدودى ٢ : ٣٥٧

(٥) وكانوا يقولون في خطبهم للمسلمين أطيعونا ما أطينا الله فيكم فاذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم .

(٦) الطبقات ١ : ١٩ والمقدمة ١٨٥

(٧) الفخرى ٣٣

(٨) الفخرى ٨٩

من التصوف مرقعة بالأديم ، ومركبه الابل ^(١) ، وكان على عليه السلام يتجافى عن جمع المال ، ويقول ياصفراء ويابيضاء غرى غرى ^(٢) وكان مطعمهم على مثل هذا الوجه من الكفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق فى الأطعمة ، حتى إن المناخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الحنطة بنخالها ، ولا يعرفون من الألوان إلا اللحم يطبخونه بالملح والماء ^(٣) ، وكان أبو موسى الأشعرى يتجافى عن أكل الطير والدجاج ^(٤) ، وكذلك كان العرب فى سذاجة دولتهم على بُعد من ترف المتصرين فى جميع معاشهم وأحوالهم ، حتى إنه لم يكن عندهم من الغناء إلا حذاء الركان أو ضرب من النصب أرق منه ، فلما ساد فيهم العمران فى عهد الأمويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم فى محاسن هذه الصناعة ، ثم فتقت الفتى فى دولة العباسيين ، وقد طلبوا الخلافة من دون الملك ، فلم يتبأ لهم مجلس بدورهم إلى هذا الزمان .

ولوع المهدي بمزاولة الصيد

تجد فيما أنا ذا كرك عن المهدي أنه يجمع إلى خلافة الأمة أبهة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره ، وربما التمس الطيبات فى هذه الأبهة والتأنق فى فنون المعيشة إلى الغاية التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله ، فاذا جلس إلى الندماء أحب أن يتمتع نفسه بلذة أحاديثهم ^(٥) وإشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره ، وإذا خرج إلى الصيد ركب فى المواكب العظيمة المزينة ، وربما كان ذلك من أحب الأشياء إليه .

(١) المسعودى ١ : ٣٢٠

(٢) الطرطوشى ١٢٤

(٣) الألبهى ١ : ١١٤

(٤) المقدمة ١٧٨ وفى البخارى وشرحه القسطلانى ما يخالف ذلك .

(٥) السيوطى .

وأنا لا أعدُّ الصيد من الملاهي التي تعاب على الملوك إلا متى أفرطوا فيه وكانوا أقرب به إلى الأشر منهم إلى النزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبيبة الأمويين الذين أجَلَّوْا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم في طلب الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون في المهدي (أصلحه الله) وإنما هو كَلَّفَ به ^(١) من غير إفراط فيه . لأنني رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه في اتخاذ العُدَّة له ، إلى أن يصنعوا نِصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم في كلام الشعراء :

ومن جوده يرمى العُدَّة بأسهم من الذهب الإبريز صيغ نِصالها
لينفقها المجرع عند انقطاعه ويشترى الأكفان منها قتيلاً ^(٢)

وهذه مباهاة لا ينظر إليها الخليفة من منزلة القنص ، وإنما عني باتخاذ الصقور والبيزان وتربية الكلاب التي تسبق الظليم في عدوها ، يلبسها أطواقا من ذهب ^(٣) ، ويوكل بكل كلب عبدا يخدمه كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة ^(٤) في تربيتها للتحرّض على الصيد ، إذ كان لا ينهي الشرع عن اتخاذها إلا فيما كان لغير الصيد والحراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يسبق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كنده ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحباله فنقض بازٍ وحمل عصفورا وعليق وإياه في الحباله ، فأخذه الملك وهو يأكل العصفور ، ورماه في كسر البيت فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاما أكله ، وإذا رأى طيرا طار إليه فاتخذته في عُدَّة الصيد وطالب به الطير ، وصار العرب يؤدّبونه ^(٥) لذلك ، ثم يؤدّبون العقبان أيضا ، ويقولون إنها تعمل عملا لا يدركه أكثر الصقور ^(٦) .

(١) ذكر حب المهدي الصيد في الأغاني ٣ : ١٥٠ وابن الأثير والالتبدي وابن عون .

(٢) الالتبدي .

(٣) ذكر الفخري ٦٧ هذه الأطواق من الذهب .

(٤) الأغاني ٦ : ٧١

(٥) المسعودي ١ : ٩١ والأغاني ٧ : ٤٥

(٦) الديمري ٢ : ١٥٢

وقد ركب المهدي يوما إلى الصيد وكنت في خدمته مع الأمير علي بن سليمان ابن عم أبيه وأبي دلالة الشاعر ، وكان خروجه من القصر في آخر الليل ، وفي طرف الأفق شفق من الفجر ، وكان يحوطه فرسان من الحرس متنكبون قسيهم ، متقلدون سيوفهم ، يتبعهم قطعة من الجنود ، وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤونة على الخزائن^(١) الخفيفة ، وبينهم عدد من الوصفاء في أخف كسوة وأجمل لباس ، وكان مسيره محاذيا للنهر ارتيادا للخصرة التي تتجنب إليها الطيور وتسرح فيها المها والغزلان ، حتى إذا انجلى النهار وقد رمى شيئا من الطير تقدم إلى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقة في أرض مطمئنة مرعة ، ثم يضيقوها رويدا رويدا إلى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل جهة^(٢) ، فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع في حلقته غزال قد نفروا ، وكان الخليفة قد نشط للصيد وخف له في ذلك اليوم ، فقال هو وابن عمه إليه ورشقا بالسهم فأصابه سهم في صدره ، وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه ، فلما جلسا للاستراحة حمل إليهما هذا الغزال ، فوجد في صدره سهم الخليفة ، فارتجل أبودلامة وهو يريد المزاح^(٣) :

قد رمى المهدي ظيبا شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل ام رى يأكل زاده

وقد اتفق للمهدي في ذلك اليوم نادرة لم أر أظرف منها فيما يتفق للولك من النوادر ، وهي^(٤) أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبذ من أصحابه ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٠

(٢) الفخرى ٦٥

(٣) الأغاني ٦ : ٤٧ والشريشي ٢ : ٢٦١ والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥

(٤) المسعودي ٢ : ١٩ وابن الأثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف ٢ : ٣٠٦

والشريشي ٢ : ٢٥٧ والالتبدي ٨٦

فَرَكَضَ فَرَسَهُ مِلءَ فُروجه حتى لا يَلْبُدَهُ المطرُ ، فاتَّهَى إلى بيت أعرابي مُلَاجٍ (١) فبادر إلى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة ، ثم قال يا أخا العرب هل من قِرى ؟ قال عندي فضلة في رَكوة فقال له هات اسقني ، فشرب قَعْباً وسقاه ، فلما شرب قال له يا أخا العرب أتدري من أنا ؟ قال لا والله قال أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال له بارك الله في موضعك ، ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدري من أنا ؟ قال زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين قال لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين ، قال رُحبت بلادك وطاب مرادك ، ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدري من أنا ؟ قال نعم ذكرت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال فليست كذلك قال فمن أنت ؟ قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها ، فقال له الخليفة مالك يا شيخ ؟ فقال مكانك . والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع فترعم أنك رسول الله . فضحك المهدي حتى استلقى وأقبل الجند عليه . ونزل الأشراف إليه . فطار قلب الأعرابي من الخوف ، فقال له المهدي لا بأس عليك ولا خوف . ثم أمر له بمال وكسوة . ولم يلبث أن رجع إلى الحضرة بعد انكماش ناله من العدو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة .

في تمة أخبار المهدي ورسالتى إلى نحرسان

نعود إلى ذكر المهدي في دولته وسياسته ، فانه لما حقق البغية بما أراد من البيعة لأولاده بقي عليه أن ينظر في أمر العلوية ، وقد بقي منهم في السجون جماعة لم يطلقهم منها فيمن أطلقه عند ما ولي الخلافة (٢) ، بل أبقاهم مع الذين عندهم تبعات من دم أو مال ، وهذا من شر ما يلاقيه أهل البيت من الذين خالفوا جدتهم عليه الصلاة والسلام ، ثم إنه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمد مضرتهم

(١) الأغاني ٣ : ١٥٠

(٢) في ابن الأثير ٦ : ١٥ والأغاني ٣ : ٣٩ انه عند ما ولي الخلافة أطلق المسجونين .

بإستالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يسرون ويعلنون ، وفيهم رجل من بني سُلَيم يقال له يعقوب بن داود ، طوقه أمر الوزارة ومكثه من بيوت المال ليطلع على أمورهم ، ويعلمه بمكان الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذي حفره إلى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ، ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأى وفوة ومن لا يستبدل المال بغرضه غرضا آخر ، فبقى ميله مع أهل البيت ، والمهدي وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك ^(١) .

ولما استوثق للمهدي أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركب إلى الحج في كثير من عطاء دولته ، واتخذ من الأبهة ما لم يسبق له مثيل في الإسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين ، واستخلف في الحضرة موسى ابنه ويزيد بن منصور الحيرى خاله ، وحمل معه خمسين ألف ألف درهم ومائة وخمسين ألف ثوب ^(٢) يفرقها في أهل الحرمين ، وكان عازما في تلك الحجّة أن ينكب الإمام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد علي عليه السلام ، وقد علم أنه في جوار مكة ، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الأمان ^(٣) الذي كان مقبوضا عنه وعن آل بيته في خلافة أبي جعفر .

ولما قدم إلى مكة نزع كسوة الكعبة وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كسوة جديدة من الحرير ، لأنه كان يخاف عليها أن تهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذي كساها إياه هشام بن عبد الملك ، ثم أمر بإنشاء أروقة المسجد الحرام ، وحمل لها الأعمدة الرخام من البحر ^(٣) ، واتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الإحسان ، واتخذ لهم مآذب أفرغ الوُسْع في زحرفتها

(١) ابن الأثير ٦ : ١٤

(٢) الخيس ٢ : ٣٣٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٨

وتتميقها للدلالة على عِظم ملكه ، حتى إنه سقاها الماء المبرد بالثلج المحمول من الشام^(١) ، (وكان الذي حمله إلى مكة محمد بن سليمان الهاشمي الذي تقدم في الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الأمور التي توسع أهل البادية تعجبا من اقتدار الملوك على الغريب ، ثم إنه رد عليهم الوظائف التي قبضت عنهم في خلافة أبيه ، وفرق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلثمائة ألف دينار حملت إليه من مصر ، ومائتي ألف دينار من اليمن ، وغير ذلك مما جاءه من الجهات ، فبلغ المنفق في هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع في كل منهل منها وتحديد الأميال والبرك وحفر الركاب وغير ذلك نحو من ستة آلاف ألف دينار ، واصطنى لنفسه من الأنصار خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق ، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالى على العرب ليستبدل بجفائهم له محبتهم إياه ، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رخص وخصب بعد جهد أصاب الناس في العام لما دهمهم الوباء^(٢) الجارف ، فأحببه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميه^(٣) .

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تجواله في البلاد اختلالا لم يأمن معه على الدولة من الفساد صرف المهمة في النظر إلى تدير الولايات ورتب أناسا يؤدون رسائله إلى العمال ويراقبونهم في إنفاذها وسمائهم الأمناء^(٤) ، ووجههم في جميع الأمصار فكان لا يُنفذ كتابا إلى عامل في أمر خطير حتى يكتب يعقوب الوزير إلى بعض لأمناء بانفاد ذلك . ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزمّة^(٥) وأقام على

(١) الخميس ٢ : ٣٠

(٢) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠

(٣) الأغاني ٣ : ٩٤

(٤) ابن الأثير ١٦ : ٢٠ ويقول في موضع آخر إن المنصور كان يحب أن يوجد في دولته

مثل ذلك ٦ : ١٠

(٥) ابن الأثير ٦ : ٢١

الشُرطة من تبين فيه حسن النظر والتدبير ، فاستوثق له الملك من الوجه الذى يرومه فى استمالة الناس إليه .

إلا أنه تواترت عليه فى منتصف هذه السنة ، والدهر له صاف ، رسائل من أبى عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال دولته وتغلب رجل أعور من مرو قد ادعى الربوبية وأغوى الخلق ، وقامت له فى الصّدف وبُخارى أنصار قد عاثوا فى البلاد ، واتخذوا البياض شعارهم لمخالفة السواد ، فتخوف المهدي أمرهم وأخرج إليهم معاذ بن مسلم موعزا إليه بأن يلتزم مع الحرشي الذى هو أمير الجيش فى خراسان ، حتى إذا كان على انتظار البشائر منه وصله من أبى عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين ، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصلح بين الأمرين ، فوقع الخلاف بين يعقوب وأبى عبد الله فيمن يطوقانه أمر هذه الرسالة ، فرام يعقوب أن يقلدنيها ، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها إلى أمير من آل قحطبة وكان الربيع حاجب أبى جعفر راغبا فى توجيهي بها أيضا حبا لى ، وكانت وقعت نفرة ^(١) بينه وبين أبى عبد الله فاشتغل فى معاكسته وبلوغ المكروه منه .

ثم إن المهدي وقع رأيه على أن يبعثنى إلى مرو لأنظر فى أمر هذا المقنع الأعور ، وجعل لى التصرف فيما أرى حله وعقده من خلاف القواد ، إذ يكون خير الجيش المرجو ما لم تتقلب بأمرائه الأغراض ، ولا سيما أن له فى خراسان عدوين يتفقان جميعا عليه . جماعة خارجي يقال له يوسف البرم ^(٢) وشيعة هذا المقنع الذين يدعون ألوهيته وقيمون دعوته على بذل الدماء . فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلا فى أمر من السياسة ، ولذلك كانوا أقل على الدولة خطرا من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أن الله تعالى خلق آدم فتحوّل

(١) الفخرى ٢١٦ وابن الأثير ١٩ :

(٢) ابن الأثير ١٦ :

في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة غيره من الأنبياء حتى تحول في صورة هذا المقنع بعد أبي مسلم رحمه الله . وقد نقلت الأخبار السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أراهم في السماء قرا آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال .

وإنما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحول قبله في صورة أبي مسلم ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعية الإمامية رحمه الله وإن كان بعيدا عن إظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامه الدين لنيل مناه وجهها من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام إليه ، وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقدما بالسحر فغلب السحرة ، وعصر عيسى عليه السلام مقدما بالطب فغلب الأطباء ، وعصر النبي صلى الله عليه وسلم مقدما بالبلاغة ففضل البلغاء ، فرأى أن عصره مقدم بالكيمايا فأراد أن يبهز الناس بما يستنبطه من المركبات .

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة وأنا على أهبة السفر إلى نراسان وسأصدر لك منها كتابا أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم وغيرهم وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدي والهادي

ولما ^(١) وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلام الفضل ^(٢) أعزّه الله وأطفئ ما بنفسي من الشوق إلى الأئس بقربهم المحبوب ، إذ كانت المكتبة بيننا طول هذه الأيام لم تزدني إلا شغفا بمحاسنهم واستطلاعاً إلى محيا جمالهم . ثم إنني قصدت باب فقيه الإسلام وقد اتخذ المهدي (رحمه الله) قاضياً قضاءً المسلمين ، وصارت إليه جوائز الهادي والرشد من بعده حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف ^(٣) من ناحية الكرخ الدار التي لم يبن مثلها إلا ملك أو أمير ، فالفيتة في مجلس حافل بالأدباء والأمرء وعليه ^(٤) المبطنة والطيلسان وقلنسوة طويلة ^(٥) قد حوَّطها بعمامة سوداء دعتة الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم ، وهذا هو الزّي الذي يروم أن يكون مخصوصاً بالفقهاء ^(٦) لتمييزهم عن سائر الناس ، فكان لملقانا موقف يستبكي الحمام لفرط ما بنا من الأشواق ، وصرفت اليوم بقيته بحضورته أجاذبه أطراف الحديث ، وقد نبأني بأحوال القوم في المدة التي كنت منفصلاً فيها عن دار السلام ، لأن القضاء قد

(١) الرسالة المكتوبة في خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه .

(٢) كان في ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور في ابن الأثير .

(٣) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠ .

(٤) المسعودي ٣ : ٣٣٧ .

(٥) وجدت في العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لقطة الطويلة بمعنى القلنسوة .

(٦) ابن خلكان ٢ : ٤٥٠ والأغانى ٥ : ١٠٩ .

يُرد عليهم من طرائف الأخبار^(١) ما لا يرد على غيرهم ، ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليجلسه على سريرته بجانبه^(٢) ، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلد القضاء^(٣) ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به إليه .

ولقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من أخبار المهدي والهادي رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارهما الخاصة فقد حدثني بها لسان الشريعة على إسهاب لا موضع له في هذا الكتاب ، على أن المهدي ما برح مستمرا إلى اقضاء خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ، ولقد جرت الشريعة في أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لا تقطاع النظر فيها إلى أبي يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتول القضاء الا أهل العلم ومن لا يميل به طمع النفس إلى الخروج عن جادة العدل . وقد أقر رجاله في وظائفهم إلا وزيره يعقوب وقد وضح له ميله مع أهل البيت^(٤) ورفع إليه المفسدون بيتين من الشعر أغروا بشارا على قولها ، وأطاروا ذكرهما كل مطار :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خليفة الله بين النأي والعود

فنكبه لذلك وألقى في بئر عمى فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات في خلافة الرشيد قبيل عودتي من خراسان .

(١) الاثليدي ٧٩

(٢) الاثليدي ١٤١

(٣) الماوردي والإسحاق ٩٠

(٤) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسعودي ٢ : ١٩٦ والفخرى ٢٢١

وكانت ماثرة المهدي في آخر أيامه وضعه البريد ^(١) إبلا وبغالا في كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى العراق ، وهو أول من أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لما يروم من تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من العرب في مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من أهل الشام في استظهارهم على عماله بما يحاورهم من العرب الذين ما كانوا بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لخلافة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدي إمداد عماله بالرجال والعرب بالمال حينما بعد حين ، حتى دعت له الحال إلى الشخوص بنفسه إليهم فزار دمشق ^(٢) وبيت المقدس ^(٢) ، وأخذ في إزالة الخلاف الذي كان بينهم في بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجسام .

أما الهادي (رحمه الله) فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتبع الزنادقة فضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكل بهم رجلا يقال له عبد الجبار ^(٤) وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عينا تطرف فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف إلا لزَّ شراً في عقيدتهم وإن بدا للناس ظاهر لهم من الظرافة وحسن السيرة ^(٥) ، كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد أثمهم بالزندقة ^(٦) :

لست بزنديق ولكننا أردت أن توسم بالظرف

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ وأبو الفداء ٢ : ١٠ والسيوطي والكنز ١٠٦

(٢) قضاة الشام .

(٣) الأغاني ٦ : ٦٧

(٤) الأغاني ٣ : ٧٢

(٥) ابن الأثير ٦ : ٣٨

(٦) الأغاني ١٧ : ٧٢

فانما يتعدون مذهبهم من التكذيب بالأنبياء وتعليم الناس بغض الخلفاء إلى أن
يمسوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله ، فقل للفترين على الله إنه يحضرهم
في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون . واعلم أنه لم يل الخلافة قبل الهادي أحد
في سنه ، ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدة ولايته
سنة وشهرين إلا أياما ، وكان ذا جبروت ^(١) وإذا ركب مشت الرجال بين يديه
بالسيوف المشهورة والأعمدة والقسي الموترة ، ولذلك كثر السلاح في عصره ،
وأحرز منه الشيء الذي كان يحب التباهي به ، حتى قيل إنه أعطى شاعرا مدح
سيفا عنده كان لعمر بن معدى كرب يقال له الصمصامة عشرين ألف درهم على
هذه الأبيات :

حاز صمصامة الزبيدي من ب ين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين خديه برد من دُعا ف تيس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سلته بهر الشمس س ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالي من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقبس المش عل ما تستقر فيه العيون
وكان الفريد والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
نعم مخراق ذا الخليفة في الهيج ماء يقضى به ونعم المعين ^(٢)

(١) الخنيس والمسعودي والسيوطي .

(٢) الحصري .

وقد صارت المراتب في أيامه إلى الناشئين من البرامكة والظاهرين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيًا قبل نزوحى إلى هذه الرحلة التي امتدت بي طويلا . وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبي جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله المعلى بن طريف^(١) ، وعلى حجابته الفضل بن الربيع ، وعلى جنده آل أبي العلاء ، وقد حدثني بأخباره معهم بعض من كان مقربا إليه من الندماء ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دأب ، وقد بلغ من الخطوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيره في ذلك^(٢) ، فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه إلى مسامة العظاء من أهل الرأي والتدبير ، غير أنى ما عرفت له شيئا من هذه المحاسن وهو صبي ولا رأيت في دولته الزهاء الذى أشرق على دولة المهدي قبله ثم الرشيد من بعده ، لأنه كان منهمك النفس بحب اللهو وولد له في فتاء سنه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى^(٣) فيما سمعت . ولذلك كان الطامعون إليه من غير أهل المراتب أكثرهم أهل لهو وطرب . وكان أقربهم إليه مكانا وأفضلهم عنده منزلة إبراهيم الموصلى النديم ، وهو أعجمى الأصل بارع في جميع فنون العلم والأدب إلا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه^(٤) وسياط ، فبلغ من الإجادة فيه المكان الذى لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز ، ولذلك كان الهادى إليه أميل منه إلى سواه من الندماء ، يقال إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف^(٥) وقد قال لى إسحق ابنه والله لو عاش لنا الهادى لبئنا حيطان دورنا بالذهب^(٦) .

(١) الأغاني ٣ : ١٥٣

(٢) المسعودى ٢ : ٢٠٢

(٣) العقد الفريد ٣ : ٥٤

(٤) الأغاني ٥ : ٤

(٥) الخصرى ٢ : ٢٠١

(٦) الأغاني ٥ : ٦

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما جُلّت في المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها في سعة من العمران ما كنت أعهد لها قبل هذا الوقت ، فما كفى أهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرقى المعروف بالرصافة ، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات^(١) وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنائيات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق ، تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره .

ولقد أ كبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحاءها . وتموجهم كالبحر في أرجائها ، يقال إن عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف^(٢) ، وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في مدينة من العالم قط ، فأنما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن أيمن^(٣) ولا أيسر من الموضع الذي يتكفون فيه تكفؤ الرمال . ثم أعظمت بلوغ النعيم في أهلها بما رأيت من توفر أبواب الغايات عندهم على الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسع المنفعة من صناعاتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذي يقع في الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

ولأنه يتعذر على بهذا القلم الذي لا مادة فيه أن أصف مفاخر المدينة^(٤) التي أقل ما تصيبه من الشرف أنها تهو بهاء السلطان . وتضم إليها من عيون الأعيان

(١) قال ابن خلدون نقلاً عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها في بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجتمعها سور واحد لاتساع العمران .

(٢) في الاتليدي أنهم ألف ألف وخمسمائة ألف .

(٣) ابن الاثير ٩٦ : ٦ وأبو الفدا ١٩ : ٢

(٤) يقول الحصرى إن أدباء مصر يصفون الجمال بقولهم كأن بغداد مسروقة من حسنه وظرفه .

كثيرا حتى إذا لقي السائر جماعة منهم في الطريق لم يقطن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلهم في الثروة والجاه يتعذر على أ كبرالمدن أن تحمل سكناه وتسع جنده وحاشيته والطامعين إليه من كل الوجوه^(١) فلقد يمشى أهل النعمة فيها بالغللمان^(٢) والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيدا عن الصدق ، فشاهدت في محلة العتابية^(٣) أميرا قد ركب في مائة فارس وأحرق به الغلمان حتى ملثوا الطريق وسدوا على الناس سبيلهم إلى أن مرّ ، وشاهدت في مشرع القصب^(٤) على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرجل كأنى به قيصر على مركبه أو كسرى في جلال موكبه ، وربما عدّ المحصى في ولد العباس أ كثر من ألف رجل^(٥) يركبون في مثل هذا الجمع ، وكلهم في سعة من الثروة وترف من الحضارة ، وإنما ساد العمران عند البغاددة إلى حد الترف تشبها بما يرون من الرشيد في إقباله على الدنيا بطلب النعيم ، حتى يصدق المثل الذي يقول « الناس على دين الملك » ، فهو الذي ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ، ولم يُسمع عن الخلفاء من كان أسمح منه ببذل المال^(٦) . يقال إنه ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم^(٧) ، وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام^(٨) ، وقد أخبرني أبو يوسف أنه لما بنى يزيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها في الإسلام ، وجعل الهبات فيها غير محصورة حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة ،

(١) الأغاني .

(٢) الأغاني ٤ : ١٠٤ و ٨٤ : ٥ وابن الأثير ١٤١ : ٢٣١ والمستطرف ١ : ٦٥

(٣) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١

(٤) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩

(٥) في مروج الذهب ٢ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفا .

(٦) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢ : ٣٣١

(٧) المسعودى ٣ : ٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢ : ٣٤١

(٨) السيوطى والعقد الفريد وترين الأسواق والمقدمة .

وأواني الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر ، وبلغ جملة المنفق فيها من بيت المال خمسة وخمسين ألف ألف درهم ، وأمر أن تجلى زبيدة في درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن ، وزينها بالحلي حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجواهر ، وهذا شيء من الإسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ^(١) ولا صبية الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المال الكثير .

ومن جمال الدنيا في هذه الأيام أن الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة الإنفاق والتبذير ، فان زبيدة زوجه تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحوًا من ألف ألف دينار ^(٢) ومثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجواهر ، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل عليها الكلايب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسّمور وأنواع الحرير ، ومثل اتخاذها شمع العنبر واصطناعها الخفّ مرصعا بالجواهر واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها ^(٣) ، إلى غير ذلك من الأمور التي تدون في سير الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات .

(١) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سبعائة خادم منهم ثلثائة عبد أسود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين .

(٢) المستطرف ١ : ٩٨ وذكر أن التي صنعتها هي أم المستعين .

(٣) المسعودي ٣ : ٤٠٢

ولم أر مثل هذا الترف في غير دور الخلافة إلا عند البرامكة الأتجاد ، وإليهم ينتهى جمال المسلوك وإشراقهم ، فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروههم أكثر مما يجاسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب المحوّل من الجانب الغربى (١) فى موكب عظيم وقد طُرزَ ملبسه وبين يديه الجند والغلمان ، والحفد والأعوان ، وهو واضع طرفه على معرفة فرسه ، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبرا وجلالة ، وكان الرشيد نفسه إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة ، والخزائن المجزعة ، والمطارح من الوشى والديباج ، والجواري يرفلن فى الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التى لا يُدرى ما هى لطيبها ، خيل إليه أنه فى الجنة بين الجمال والجوهر والطيب .

وقد انتهى ترف شبابهم إلى الغاية التى لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم ، وربما كانت مجالس الطرب فى دورهم أجلّ منها فى دار الرشيد وأجمع لمعدات اللهو (٢) ، لأنّ عندهم الغواني (٣) اللواتى لا مثيل لهن فى البلاد ولا سيما فوز وفريدة (٤) ومنّة (٥) وهن أظرف القيّان غناء وأحسنهن ضربا بعود .

واعلم أنّ الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلم فى دور الأمراء لغير الصفر والسود (٦) ، فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلموه الجوارى الحسان (٧) ليزيد جمالهن فى الغناء تأثيرا فى النفوس ، وقد أخبرنى نافذ من بعض حجابهم أنّه لما زارهم الرشيد فى يوم من أيام فراغه أخرجوهن إلى البستان فاصطففن مثل

(١) ذكر الأغاني ٦ : ٧٨ والمسعودى ٢ : ٢٣٧

(٢) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٣) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٤) الأغاني ٣ : ١٨٣

(٥) الأغاني ٤ : ٨٧

(٦) الأغاني ٥ : ٩

(٧) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٧

العساكر صفين صفين ، وغنين وضربن بالعيدان ونقرن على الدفوف إلى أن طلع إلى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد الملوك السالفين أنه نال من الطيبات ما هو موفور عند ملوكنا في هذا الزمان ، فكأن بغداد قد ألفت جوانبها على مهاد الدعة ، ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكبر^(١) بما توفر عندهم من المال .

ترف البغاددة وانغماسهم في طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئاً فشيئاً عند من هم أقل منهم في الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدر لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالأسفار التي أكسبتهم التجارب وأرثهم العجائب ، وأوجدت لهم التجارات والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأنفر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمرت عندهم الأسواق ، وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للزينة والمباهاة ، كابتاعهم السلاح المنزل بالذهب ، وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رسلهم في طلبه من الجهات^(٢) ، فلما حُلَّ إليهم كل غال ونفيس من البلاد تحقق لدى أن محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد .

ولقد شهدت سوق الجوارى بعيد عودتي من خراسان ، وقد أقيمت في الموضع المعروف بسوق النخاسين^(٣) وهم الرجال^(٤) الذين يجلبونهن من أطراف الدنيا

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبير من عيوب بغداد .

(٢) ذكره تزيين الأسواق ١ : ٣

(٣) الأغاني ٩ : ١٢٨

(٤) الأغاني ٥ : ١٢٦

إلى بغداد، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن الغانيات الاتى يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لا غاية بعده ^(١) ، وبما يتخذن من العصائب التى ينظمها ^(٢) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب .

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر فى هذا الوهم الطارئ بعد أن يرى تطارحن على أهل النعيم . ولقد سمعت أن بعض الغواني المترفات يتخلصن سرا من حيث لا يُحِبُّن المَقَام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، ومواليهن بهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون فى بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم ، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هى العادة المألوفة فى البيع والشراء . ولقد وقفت فى ذلك اليوم والدلال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الجمال ^(٣) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة .

أعود إلى ما كنت بصدده من ذكر البغادة فى ترفهم المفرط فأتيتهم يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ، ويلبسون حيطانها الوشى والديباج ، ويعنون بغرس الأزهار فى جنانهم ، حتى إنهم ليَجْلِبُونَ لها الرياحين ^(٤) من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار ^(٥) ، ويتخذون غلمانهم من أطرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون إلى

(١) الأغاني ٢ : ١٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٣٩٩

(٢) الكز ٤٧

(٣) الأغاني وحلة الكيت .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودى ١ : ١٨١

(٥) الأغاني ٥ : ١١٥

اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويفتنون في ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد في غير أوانه ، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة ، ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما يمشغون من الطيب وورق التآبول الهندى الذى يمزجونه بالنورة المبلولة مع الفوفل لتطيب النكهة وتشبهية الأكل وإحداث الطرب والأريحية في النفس^(١) ، ويتخذون مقاعدهم في أوان الحزين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقشون في الرخام فاذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا في السقوف مراوح^(٢) يعملون لها حبالا تجرها ، فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون في اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم .

دخولى على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد بالسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت إليه في هذه الأيام ، فأكتب الآن إليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلني به من جميل العطف والإحسان ، فاني مضيت إلى داره في ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى الحضرة فأصبت ابن البواب جالسا في حجرات الحجاب ، وهو الذى يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة^(٣) ، فلما وآنى أوسعنى سلاما وتحية ، ثم جاوزنى إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه^(٤) لنفسه تجاه دار الضيافة^(٥) من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشاه وأفرغ العناية في تجليله بأنفر أنواع الزينة ، وأقام فيه

(١) المسعودى ١ : ١٠١

(٢) الكشكول والأغانى ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

(٣) الأغاني ٣٠ : ٤٢

(٤) الأغاني ٥ : ٣٣

(٥) قصر من قصور الخلافة ذكره الأغاني ٦ : ١٣٣

الأساطين التي يصطف بجوازها الغلمان^(١) ، وقد بناء على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون في الزوارق^(٢) ، وكثيرا ما كنت إذا زرتة بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشباك يستمع غناء الملاحين في الزلاّلات^(٣) ، فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمني إليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفني برفيق الكلام .

وكان الرشيد طويلا عبل الجسم أشقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالهم^(٤) ، وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصغى لمحدث بين يديه حوّطه ببصره حتى لا يجد سبيلا إلى أن ينطق في حضرته بغير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفرّاش^(٥) أن يأتي بما أتكى عليه^(٦) ، وهذا تعطف من الخليفة لا يكون إلا للبرامكة وأبي يوسف وجملة المشايخ من ولد العباس . ثم إنه استنداني^(٧) إليه وأخذ يحادثني بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لي بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لي حديثه عن خراسان فأخبرته عما كان هناك من الاختلال ، وأن الفضل رفق الفتق الذي دبره أهلها بالمحال . وأطلق يده فيهم بالضرب والنكال . وكنت عندما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفي كما جرت العادة بألا يكلم الخليفة أحد بما فيه الوهن إلا بادر إلى سيفه^(٨) تعظيما للأمر وقياما بواجب الإجلال . فقال سبحانه الله لقد أوصينا الفضل بهم خيرا لأنهم محبوبون لنا^(٩) ، وهم سيوف دعوتنا وأنصار دولتنا ، ومن لهم حق الدالة علينا

(١) الأغاني ٦ : ٧٦ و ٥ : ٣٣

(٢) الأغاني ٩ : ٦٧

(٣) الأغاني ٣ : ١٧٧

(٤) العقد والخميس والسيوطي وابن الأثير .

(٥) ذكره الأغاني ٩ : ٦١

(٦) ابن الأثير ٦ : ٣٨ والأغاني ٥ : ٢٣ و ٩ : ٦١

(٧) الأغاني ٥ : ١٠٦

(٨) الأغاني ٥ : ٥٩

(٩) العقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٧

وحمة الوسيلة عندنا، فقلت يا أمير المؤمنين إن الفضل أخاك لم يمكن السيف في رقابهم إلا بموافقة القواد الذين إذا ما شاورهم في الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلةً خوارج قد تراخت بهم الحال. وصارت فتنهم إلى سوء المال. فلما ذكرت له ذلك أعرض عن الإفاضة في هذا الحديث، وأخذ ينكت الأرض بشيء في يده، ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذي يكتب إلينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند؟ فقلت له إن في خراسان تجارة تباع بأجنس الأثمان فإذا أمن السابلة الأعراب جلبوا خيراتها إلى العراق واتجروا بها مع أمم البحر، فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغي أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الإسلام، ونحن ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجند إذ لا بد للزاعى من حراسة الرعية^(١)، ولقد يكفى التجار ما أمنا لهم من السبل في غير الديار العران، وما احتفرتنا لركبهم من الركايا، وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق التجارة فيها دائرة، وأما تجار خراسان وما إليها من البلدان النائية فانا لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم.

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة، ثم يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة. فأوهمت أنه يرى فيها مسألة تتقبض نفسه دون بسطها إلى. فاذا الأمر على خلاف ذلك، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإيثار بعضهم على بعض بالخلافة^(٢) فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فتقرسه الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور؟ فقال ما تحب يا أمير المؤمنين. ثم قام مقامه الذي كان إذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يسأله بشيء^(٣)، فأومأ إليه بالدنو فألقى في أذنه كلاماً ثم تنحى، فقال لى الرشيد هذا خادمتنا الأمين نرتاح إليه في الأسرار والمهمات، لم يحدثنا جهرًا بحضورك ولكنه سارتنا

(١) قالها الرشيد وذكرها الطواط ١٠١

(٢) ابن الأثير ٦: ٥٨

(٣) الأغاني ٥: ٣٣

في أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية ، لأننا نرضى سيرته ونأمن
ضعفه ^(١) ، ونعرف فيه حزم المنصور ^(٢) ونُسك المهدي وعزة نفس الهادي ، مع
أن بني هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد : ^(٣)

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن يُنقض الجبل الذي كان أبرما

فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدم به يحيى
إلى أبيه ^(٤) ، والفضلُ إليه ^(٥) من مبايعة الولد بعد الآخر ، مع علمي بأن ذلك
أمر لا يجري فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذي يريده الرشيد بعد ما رأينا من
العباسيين تطاولهم في أمر الخلافة ونقضهم العهد التي كانوا يكتبونها على أنفسهم
في حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر ^(٦) لما رست دولته ، ومضت في الناس
كلمته ، لم يجد من نفسه رادعا فخلع ابن عمه من الولاية وصيرها إلى المهدي من
بعده ، فلما ولي المهدي بحيلة الربيع ، وأخذ في استمالة الناس بما فرق فيهم من
المال لم يجد منهم عند إظهاره أغراضه فيهم إلا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه
كما علمت ثم لما صارت الخلافة إلى الهادي وفي أعناق المسلمين المبايعة للرشيد
بعده أراد أن يخلعه ^(٧) عنها ويصيرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رعاه
الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمت بعد الأوبة من نخراسان .

وإنما كان المأمون أحق بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن
أمه هاشمية مثله ، فلو صارت الخلافة إلى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر

(١) المسعودي ٢ : ١٥ والمستطرف ١ : ٩٣

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٠

(٣) الحصري ٢ : ٤٩ والمستطرف ١ : ٩٣

(٤) المسعودي ٢ : ٢١٥

(٥) الأغاني ١٧ : ٧٨ وابن الأثير ٦ : ٤٣

(٦) ابن الأثير ٦ : ٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١١

(٧) ابن الأثير ٦ : ٥٨

على ذلك ، فكان يخشى الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعا إلى الواقفين لها من أهل البيت ، أو إلى من كان أقرب الهاشميين إلى استخلاف أبي العباس ، فان عم عم الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بن علي عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون ^(١) فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد ، فلا تسع الرشيد مخالفتهم في تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأي الذي تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته ، ومصيرها إلى من يحب ^(٢) من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر

هذا فصل أفردته لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين أبي جعفر ^(٣) إن صحت المقابلة بينهما ، فاني لم أجد في الملوك من جمع فنون السياسة إلى عقل الملوك وفضلهم ^(٤) وحكمتهم ودهائهم مثله ، تجتمع محامده في قربه من الخير وبعده عن البغي الذي كان طبيعة في أبي جعفر وبعض العباسيين ، حتى إذا صار إليه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تعاد إلى الناس الضياع التي اغتصبها آبؤه وترد الأموال المغصوبة إلى أهلها في جميع النواحي والأمصار ^(٥) ، فلوم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجا ورحمة واسعة ، بعد ما شملهم من المكروه في خلافة أبي جعفر وما استمر عليه المهدي من حفظ الضياع المقبوضة عنهم ، إما لطمع في استغلالها ، وإما استصوابا لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه إنه ظلم العباد في أموالهم .

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤

(٢) وهو المأمون عبد الله .

(٣) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يقتفى سيرة جده في السياسة ويطلب العمل بآثاره .

(٤) الفخرى ٢٣٣

(٥) الماوردي ١٥٦

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم ، حتى إنه ليزيد عماله تجلّة كلما عظم قدرهم واستفحل في الإسلام ملكهم ، فهذا رُوح من أمراء آل المهلب ، لما عظم في الدولة أمره ، ودانت الرقاب المتطاولة له ، أفرغ النعمة الواسعة عليه ، وجعل الولاية من بعده إرثا في ولده ، وكذلك إبراهيم من أمراء الأغالبة ، لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمره على إفريقية إلى أطراف الثغور ، وجعل له الولاية في بيته ليكون ممتنعا على العدو وكفيلا برد الفرّجة إلى ما وراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التي فيها مصلحة الملة وإن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوف ما كان ليصير على مثله أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال ، فان كان المنصور يحتال للأمر حتى لا يقع فيه ، فان الرشيد يحتال لما يقع في يومه من الأمور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الإسلام .

ولقد سمعت من يقول إن الرشيد يقتفى سيرة جده في السياسة ، وذلك مردود عندي من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم ، وإلا فان كان الرشيد يمشي بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالإحسان إليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته ، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطيعوا مغالبتة ، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلا واحدة غير أن سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم ، إذ يكون لصاحبها من دالة الرعية غبطة يحرمها البغاة الذين في نفوسهم مرض من الظلم ، إذ يجلبهم عن رعيتهم ستر الخوف ، ثم يقتلهم استنكار من حولهم من الناس والأشياء ، كما تقدم في الكلام على أبي جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت فيظن فيها خروج عن العدل لاستمراره على هضم حقوق الذرية ، وإن لم تكن مجرّاة على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم في كل الوجوه فإنما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين اللين والعنف . ولقد كنت أساير الرشيد في بعض الأيام فقال لي بلغني أن العامة يظنون بي بغض على ابن أبي طالب فوالله وتربة أمير المؤمنين أبي إني ما أحب أحدا حي له ، ولكن

هؤلاء (يريد الله) أشد الناس بغضا لنا ، وسعيا في فساد دولتنا ، بعد أخذنا بنأرهم من بنى أمية ومشاركتنا إياهم فيما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بنى أمية اليوم منهم إلينا فكنت في ذلك الوقت بعيدا عن الوثوق بصحة هذا الإيهام ، ولكن ظهر لى بعد ذلك أنه لا يروم إقصاءهم إلا على غير مكروه يصيبهم ، وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم الذى يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة فى يده من غير منازع له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفسا ، فلقد علمت أن المكروه الذى ألمّ بمحيى بن عبد الله بن الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسعه مخالفتهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنة ، وكذلك مقتل موسى بن جعفر الإمام لم يتسع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن متهما فى بدعة ولا ظنينا على دخلة مكروهة ، ولما قتلوه فى حبسه أظهروا أنه مات حتف أنفه ، ومشى الرشيد فى جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قریش فويق نهر عيسى الهاشمى ، فكنت أحيط به فى ذلك اليوم مع البرامكة فسمعت يترحم عليه ، ويظهر براءته من دمه ، غير أن تغاضيه عن هذه المؤامرة ، وإن هو لم يدخل فيها غرر يسأل عنه يوم الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم أن يتبعوا سنته التى هى العدل ، ولا يتسامحوا فى قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبى جعفر إلى الغاية التى يرجوانها جميعا من تأييد الدولة بها ، وإن لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدت للرشيد أعزه الله فضلا فى تدبير المملكة أحق بالثناء الجزيل ، وأبقى للذكر الجميل مآرا يناله لأبى جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيد من المشقة فى ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها ، والنظر فى تظلم الناس من ثقل يقع عليهم فى الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور

العمال . فاذا صار إلى البلدان العالية بما وراء خراسان حيث لا يعرف اللسان العربي أخذ الترجمة^(١) معه حتى لا يفوته شيء من أمر الرعية، فهو يحج سنة ويفز سنة، كذلك عادته من يوم ولي الخلافة^(٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه المهمة منه^(٣) :

فمن يطلب لقاءك أو يُرده ففي الحرمين أو أقصى الثغور

وقال الآخر^(٤) :

ألف الحج والجهاد فما ين فك عن غزوتين في كل عام

وربما رام في أسفاره أو بالزوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الأحاديث والأخبار فيتخفى في زى التجار^(٥)، ويطوف الأسواق مع جعفر وزيره ومسرور خادمه لاستطلاع ما لا يصل إليه خبره من أمر السوق والعوام، فنجم عن عنايته بهذا الأمر كثير من الفوائد التي صلحت بها دولته ورعيته جميعا، فقد قال جعفر (أعزه الله) إنا ما ضبطنا بغداد بالشرطة ولا عينا بتقدير الأمان وتميز المغشوش من السكة إلا بما وجدنا من الاختلال في تطوافنا بين الناس .

البرامكة نُكْستة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي يباشرها الرشيد إنما هي بإشارة البرامكة الذين رفعوا منار الإسلام^(٦) بصلاح مشورتهم إليه في أمور الخلافة، ولذلك صير إليهم النيابة

(١) المقرئى ٨ : ١

(٢) هو أمر معروف تجده في كتب المؤرخين وزاد في العقد الفريد على ذكره ما شيا أنه لما مشى إلى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما .

(٣) أبو الفرج والخميس ٣ : ٣٣١

(٤) فوات الوفيات ٢ : ٣٩١

(٥) الأغاني ٦ : ١٣٧ والالتىدى ١٢٦ والإسحاق ٩١

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٧

في الدولة^(١) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة، وحفظ اللسان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار بعض الفساد^(٢) فصار جعفر يسمى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره في عموم الخلافة، لأن الخطط كلها بيده إلا الحجابة لم تكن له لاستنكافه عنها لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والاداب التي تلزم بين يدي أمير المؤمنين^(٣)، وذلك مما يتره نفسه عنه، وهو بالموضع الذي علمت من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة.

ولقد كان يحيى اعزّه الله قائماً بأود الوزارة من قبل، وهو الذي قلده الرشيد الخلافة بحكمته ودرايته^(٤) حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلسني في هذا المجلس يمينك وبركتك، وقد قلدتني الأمر يا أبت، ثم دفع إليه خاتمه وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى، ويعزل من يرى، ويستعمل على الولاية من يرى، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي النديم^(٥) :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهرون واليها ويحيى وزيرها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة في المشرق حبا في الرشيد أن تعظم في الإسلام صولته، على حين لا يحرم أهل البيت قيام ملكهم فيما وراء البحر، مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة، وسلوك السنن الشريفة، فأنتج له حسن نظره أن يطوق أمر الجند إلى غير العرب الذين لا يقدرّون

(١) المقدمة ٢٠٧

(٢) المقدمة ويتضح ذلك من كتب الذين دونوا اللغة في أيام الرشيد.

(٣) المقدمة ٢٠٧

(٤) ابن الأثير والفخرى والطبرى.

(٥) المسعودى ٢ : ٢٠٧ وابن الأثير ٦ : ٣٩ والأغانى ٥ : ٤١ والمستطرف ٢ : ٩٧ والالتىلى ٩١ والمحاضرة ٣ : ١١٤ والسيوطى وابن خلدون.

بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من إخوانهم بما يكون بينهم من القوابة والدالة ،
فلقي دون بلوغ غرضه من هذا الأمر صعوبة كادت تفضي إلى الفتنة ، بما وقع من
الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد^(١) وغيره من أمراء الجيش ، إلا أن الرشيد كان
على موافقته^(٢) فيما يرى فيه مصلحته ، فاذا فتح الناس عليه باب الفرقة أرسل إليهم
الفضل أو هرثمة بن أعين^(٣) بجبرا الوهي في أقل من طرفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ، فقوضها الرشيد إلى الفضل
ثم إلى جعفر^(٤) بعده ، وعيهد بالمراتب إلى إخوانه وأقاربهم^(٥) ، وهم بمكان من
القطانة^(٦) التي توارثوها مع المجد طرافا وتلادا ، فقاموا بأود الوزارة وجمعوا إليهم
مراتب السيف والقلم ، يقول سلم الخاسر^(٧) في شرف الدولة بحاسن عقولهم :

إذا ما البرمكي غدا ابن عشر فهِمَّتْهُ أمير أو وزير

إلا أنه كان منتهى نظرهم في السياسة^(٨) إلى جعفر ، هذا السلطان ، وهو حاضر
الزوية ، مؤيد البديهة ، جامع لخصال الخير ، مؤتمن على الأسرار بارع في مهمات
الأمر ، وليس في أهل الأدب من هو أذكى^(٩) ولا أفطن ولا أعلم بكل شيء
ولا أفصح لسانا ولا أبلغ في مكتبة منه ، خلق جميل ، وأصل نبيل ، وعلم جزيل ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٥١ يذكر انحراف بني شيبان عن البرامكة كما مر .

(٢) المقدمة ١٥٩

(٣) راجع كتب المؤرخين .

(٤) و (٥) المقدمة والعقد الفريد .

(٥) ابن خلكان ٢ : ٣٦١

(٦) المحاضرة ٣ : ١١٤

(٧) العقد ٣ : ٢٧

(٨) الوطواط ٢٤٩ وابن خلكان .

(٩) الأغاني ٤ : ٨٥ والحصري ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢

وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما يُسرّع في استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب، كما يقول فيه الشاعر :

وزير إذا ناب الخلافةَ حادثٌ أشار بما عنه الخلافةُ تصدر

ووجدت في نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على مفارقتها في ساعة من نهار أو ليل^(١)، وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة بجانبه وأجلس بنى هاشم على الكراسى والوسائد^(٢) دونه، وربما قدّمه في المشورة على أحب أهل بيته إليه، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم بمال إلا برأيه ورضاه، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بنى هاشم^(٣) أن الرشيد غضب عليه فقصده باب البرامكة، فقال له جعفر أنت تقصّدي فهل من حاجة تبلغها مقدّرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك؟ فقال عبد الملك نعم. إن في قلب أمير المؤمنين على موجدة أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه جميل رأيه في، فقال له جعفر قد رضى عنك أمير المؤمنين، وزال ما عنده منك، قال عبد الملك وعلى أربعون ألف دينار دينا، قال هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنني أجل قدرك عن أن يصلحك بالمال غيره، قال وابنى إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الأولوية على رأسه، قال لتطب نفسك، إن الرشيد قد ولّاه مصر أو قال ما شئت من البلدان. فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والإعجاب به، حتى إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار، وكتب سجل ابنه على مصر^(٤). فهذا أمر يدلّك على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من المنة المرحية والشفاعة المقبولة عنده، بحيث إنه

(١) الاتليدى .

(٢) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم يجلس الخليفة الأغاني ٩٢ : ٤

(٣) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع تقفور في اللامس على جانب البحر على اثني عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعائة . ابن الأثير ٥٧ : ٦

(٤) الأغاني ٥ : ١١٩ والفخرى والأبشهي ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤

والاتليدى ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢

يضمن عنه ضمانات لا يجد بدا من وفائها، كما يدلك أن مشاركته في الملك لا تقف على حد السياسة فيما يبيده له من رأى جميل أو تدبير حسن ، وإنما يتناولها في أكثر الأحيان بما بينهما من الدالة التي ليس مثلها بين الاخوان^(١)، فإذ كر أنى رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفسا بغير محضره^(٢) ، بل كثيرا ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة^(٣) ، ويجلسان معا . على محبة ومصافاة خلان .

وإن كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فإن لجعفر فضلا في تدبير مملكتها أتم وأجمل في عين الرشيد ، وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب ، ثم يبيت على خطر الفتنة التي لا يأمن إن حدثت أن تبقى الخلافة في يده ، فلم يكن بد لصلاح أمره من سلوك السبيل الذى مهده له جعفر لتم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق . فوقفت مصلحة الدولة والاسلام جميعا على أن يتبع الرشيد هذه الخطة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدم ، ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمم .

ولقد شملت عناية جعفر خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم . إلا أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين^(٤) أشد منه عناية وأقرب ميلا إلى النظر في مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم يرلهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد ، التي لا يطيق الأعاجم مناجرتها فيهم ، إلا أن يصرف إليهم أرزاقهم في إبانها ويرضيهم بسعة العطاء من غير مال الخليفة^(٥) بما يقتصد فيه من نفقات الدولة . وأما مآثره في تدبير المملكة فإنها تتناول ضبط الأموال وترتيب

(١) الحصرى ٢ : ١٠٢

(٢) الاتليدى ١٦٩

(٣) الأغاني والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون .

(٤) إنما دون العرب الدواوين عملا بطريقة الفرس من قبلهم ولقطة الديوان فارسية كما هو

معروف .

(٥) د ر المسعودى ١ : ٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله .

ديوان الأعمال والجبايات^(١) على غير ما رسم أبو عبد الله في كتابه^(٢) على الخراج ، وإنما اقتصد من النفقة قدراً أبقاه للزيادة في أرزاق الجند . وأقام على السجلات قوما مهرة في الحساب^(٣) ، ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه ، وجعل لهذا الديوان شعباً ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات^(٤) ، وغير ذلك ، وأحب أن تحفظ دفاتر الخليفة للراجعة^(٥) لينظر فيما يتصرف فيه بموازنته للدخل الذي دُون في سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر في أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم ، وصح عنده مساواة الناس بالأحكام التي لا تفرق بين المسلم وغير المسلم^(٦) إلا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة ، وأقام وجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع^(٧) ليكون في ذلك حفظ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها^(٨) ، وأمرهم بأن يجلسوا في الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على سنن العدل الذي يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان (أعزه الله) يقول^(٩) الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنزى بمثل الظلم .

(١) المقدمة ٢١٢

(٢) ذكر القنبري هذا الكتاب ٦١٦

(٣) المقدمة .

(٤) الأغاني ٩ : ٢١ و ٢٦

(٥) ذكر الأغاني هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤

(٦) المأوردى ٣٩٣

(٧) العقد الفريد ٣ : ٢١١

(٨) المقدمة ١٩٦

(٩) العقد الفريد ١ : ١٣

ثم إنه نظر في صلاح الزوراء ودس فيها العيون بأمر عبد الله بن مالك صاحب الشرطة^(١) لملافاة الخلل الذى يطرأ عليها من وفود الأعراب واختلاطهم^(٢) ، وأقام العسس^(٣) بالليل لحراسة الدروب^(٤) إلى أن وقع الأمن في أحيائها ، وخيم السلام على أرباضها ، وذلك ينذر أن يكون في مدن الأعاجم ومحاشد مللهم ، فلقد ينمى إلينا عن قاعدة الروم أن المكروه نازل بها كل يوم لا محالة ، مع أنها محتشد النصرانية ومبأة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم ، مع أنهم حملة العلم المتقبلون في مهاد العمران على سعة واستقامة من الملك ، غير أن الترف قد غلب على عامتهم حتى لاسيبل إلى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء^(٥) .

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصالح به الملة والدولة جميعا بلغت منه الثقة به إلى أن يطوقه الساطة التى تقارن سلطته ويشترك فيها معه ، ففوض إليه القضاء بمجلس المظالم ، وهو القضاء الذى كان يباشره الخلفاء^(٦) من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهدي من بعدهم كما رأيت في موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يجلس^(٧) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه في توقيعه على القصص التى يرفعها

(١) ذكره الأغاني ١٧ : ٤٦ والمسعودى ٢ : ٢١٢

(٢) ابن خرداذبة ١١٦

(٣) الأغاني ٢ : ١٥٧

(٤) الأغاني ٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦

(٥) المقدمة ٤١٩

(٦) وكان هذا من أسباب التواني في دولتهم .

(٧) أبو الفداء ٢ : ١١ وابن الأثير ٦ : ٢٩ وأبو الفرج والسيوطى والذهبي ٢١

والمأوردى

(٧) الأغاني ٤ : ١٦٢

الناس إليه ولكن بالعبارة التي يتنافس^(١) في بلاغتها العلماء^(٢) . فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الأمثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعض عماله إليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكوك . فإما عدلت وإما اعتزلت »^(٣) . وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآية^(٤) . ووقع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » . ووقع في قصة محبوبس « العدل أوقعه والتوبة تُطْلِقُه »^(٥) . ووقع في قصة متظلم « طب نفسا فكفى بالله للظلم ناصرا » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئة حسنتين » ووقع وقد قرأ كتابا فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه مشورها . ويفصل فيها شذورها » ووقع في قصة متنصح « بعض الصديق قبيح » ووقع في قصة رجل تظلم من بعض عماله « أنا لمثله حتى ينصفك »^(٦) ووقع في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابتهم « يرحل عنكم » ووقع إلى بعض عماله « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »^(٧) ووقع في قصة رجل استأذنه في الحج « من سافر إلى الله نجح » إلى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها الأدباء^(٨) إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهما ثمنا^(٩) في أيدي

(١) الكثر ٩٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٧ والمقدمة ٢٠٧

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٧

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٣٣

(٥) العقد الفريد ٢ : ٢٣٢

(٦) العقد الفريد ٢٣٣

(٧) الوطواط ٣٥

(٨) السيوطي .

(٩) المقدمة ٢٥

الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذي ليس له من الرجال ، وقد فضّل الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة ^(١) ، وزاد الرشيد عزة ومنعة على نحو لم نره قديما في دول الخلفاء فتولى الله مكافأته عن المسلمين والإسلام بما هو واسع له من الجميل ، وجعل المجد لا ئذا بجنبه والسعادة حافة ببابه . آمين .

صلاح التجارة والمعاملة

أخرج بك قليلا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر ما يسمح لي المقام ، فإنه لما توفرت في أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام ، وقد نزلوا الأمصار التي كانت مستودع الدعة عندنا ومستقر ملاذ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر ، فتحولت طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش ، وأخذوا يتأثّلون الكسب ويطلبون حاجات الترف من جميع البلدان بما تيسر لهم من أسباب الاتصال في زمن الخلفاء ، فما أتم الرشيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيدا لسفر تجارهم ، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق ، فحملوا من الهند آتياتها ومن أصبهان وشيراز ويزد شراها ^(٢) ومن خراسان حديدتها ومن كرمان رصاصها ومن قشмир النسيج الملون ، ومن الصين الككّام والعود والمسك والسنور والسروج والغضائر والدارصيني والخلولنجان ، ومن اليمن العطر ^(٣) وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاح والمصوغات ، ومن عيذاب اللآلئ ^(٤) ، ومن الوقواق الذهب والآبنوس ، ومن الهند والسند القسط والقنا والخيّزان والكافور والعود والجوزبوى والقرنفل والفاغره والكجّابة والنارجيل ^(٥) والياب القطنية

(١) إعلام الناس وابن خلكان ٢ : ٢٦١

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٤٤

(٣) القزويني ٢٠٩

(٤) المسعودي ١ : ٣٩

(٥) ابن خرداذبة ٦٨

والمُخَمَّلَة والفيلة ، ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهها والماس والدر والسُّنْبَادَج الذى يعالج به الجوهر^(١) ، ومن ناحية الجنوب البقَم الدارى ، ومن البحر الغرب المرجان ويكون بأرض الفَرَنْجَة ، ومن الروم المَصْطَكا والغلمان والرقيق^(٢) ، ومن الشام الفاكهة والسلاح والحديد الذى يقلع من جبل لبنان . ومن روسيا جلود الخُزَر والثعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق جرجان^(٣) ثم تحمل إلى أصبهان والجزيرة وآمد ونصيبين^(٤) ويتجر بها .

هذه هى تجارة الشرق^(٥) قد حملت إلى العراق ، وأما تجارة الغرب فقد تعذر نقلها لبعد المسافة وتراعى الشقة ، ولذلك كان يرى الرشيد فتح البحر عند السويس^(٦) حتى يقرب المجال من المغرب إلى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق ، ولا سيما أن على البحر الرومى سواحل إفريقية وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة إلى الشمال ، وسواحل الروم والشام إلى الشرق ، وإنما لبلدان كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ، ولكن جعفر (أعزه الله) قد ثناه عن هذا الأمر وخوفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جدة ، فيخربون المواطن المشرفة^(٧) ، على حين لا يتوقع لقدومهم أثر ، فقال جعفر « يا أمير المؤمنين إن خرق السويس نرق فى الإسلام ولو أنك وجدته مخروقا بأيدى

(١) الأغاني ٥ : ٢٤

(٢) ابن خرداذبة ٨١

(٣) ابن خرداذبة ١١٦

(٤) ابن الأثير ٥ : ١٠١

(٥) الأغاني ٥ : ٢٤ وابن الأثير ٥ : ٢٢٥ والقزويني ٩ : ٢٠

(٦) المسعودي ١ : ٢٩٩ والمقرئ فى الخطط والسيوطى والمقدمه ٢١

(٧) السيوطى والمسعودي .

الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سده لأن مصالح التجارة لا تقضى على الإسلام بتضييع الفتوح التي دانت له ببذل الدماء « وهذا رأى لا يبدو إلا لمن ركب فيه إسباح الخليفة ومعدلة النظر ، فإن العلماء كلهم قد ضلوا عن إدراك ذلك ، وإنما خوفوا الرشيد علو البحر الرومي على بحر القلزم ، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عذاب والنوبة وسواحل اليمن والمجاز ، ولكن قوهم بعيد عن الصحة ، لما يعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطم مأوه على سواحل البحر الرومي مع كونه يعلوه من حيث الإقليم ، فما ثبتت عند العاقل إلا أن سطح البحور متساو في الشمال والجنوب ، ولم يسمع بحر أخفض من غيره إلا بحر لوط في أرض الأردن من إقليم فلسطين ، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقيانوس المحيط ، وإنما هو مياه تصب في متحدر من الأرض .

ولما اتسع نطاق التجارة في بغداد أصبحت موردا لأهل الإيعواز من البلاد كافة يتناولون فيها حاجتهم من المال ، فوقع غش فاحش في التجارة وصارت الصيارف من اليهود^(١) وغيرهم^(٢) يعطون ما لهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين^(٣) وأكثر منهما ، فأقام الرشيد محسبا يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان والمكاييل وينظر في معاملات التجار^(٤) أن تكون جارية على سنن العدل ، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء ، إذ الواجب على الملوك أن يمهّدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثر منه للتمولين المنسلخين للتجارة الذين نواهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم يبيعونها بما يشاءون من الغلاء ، فإن ذلك احتكار يفضى إلى فساد العمران كما مر

(١) الأغاني ٣ : ٨٥

(٢) الأغاني ٣ : ٨٣ و ٥ : ١٦١

(٣) كليات ٩٩ والأغاني ٢ : ١٥٤

(٤) الأغاني ١٧ : ١٠٨

في موضعه من الكتاب . وقد أخبرني الرشيد في بعض مجالس إلى أنه يروم أن يصلح معاملة التجار ويغير تقدير الدنانير والدراهم على وزن واحد صحيح ^(١) ، ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم ، مع أنه أصلح ما يكون للعمران ، وإن كان ضرب السكة في الإسلام قد حدث عن نكاية وقعت ضغائنها بين عبد الملك ابن مروان وقيصر الروم كما هو معروف ^(٢) فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تقدر أوزانها بعد ما ساءت المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قديما بالذهب والفضة وزنا ^(٣) ، وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها الكسروية والقيصرية ، فلما ذهبت سداجة الإسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية ، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم ، تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر ، فعنى عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم ، ف ضرب السكة في دِمَشْق ^(٤) وصرفها في جميع النواحي والأمصار ، ولكن من غير أن يقدر أوزانها ، فبقى منها الخفيف ^(٥) ، والثقيل وما هو بين بين ، ولذلك لم تسهل المعاملة بها بين التجار ، حتى إذا تنبه لها فاته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميز القديم منها عمداً إلى تعيين السنة على السكة المقدرة بعد أن كان يضربها خلوا من التوقيت إلا «بركة الله» في أحد الوجهين واسمه في الوجه الآخر . وهذا كان منشأ الخلاف في أول من ضرب السكة التي ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمر بن الخطاب ^(٦)

(١) المحاضرة ٢ : ١٧٤

(٢) الاتليدي ٢٧٤

(٣) المقدمة ٢٢٧

(٤) ابن الأثير ٤ : ١٧٤

(٥) ذكر الدراهم الخفيفة الأغاني ١٠٤

(٦) المقرئ ٠

ويقول غيرهم إنها لمُصْعَب بن الزبير^(١) ، ويقول بعض إنها لمعاوية بن أبي سفيان ،
ويزعمون أنه صوّر نفسه عليها متقلدا سيفاً^(٢) كأنه فاتهم علم موضعه من الخلافة
وخرّصه على متابعة الملة والشرع ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس
يجمع على رأى منه . ولم يقع إلى من الدنانير الموقوتة إلا ما ضرب هذا الخليفة
المقدم ذكره في السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة ، وعليه جرى
الخلفاء بعده في ضرب السكة ، بأن يسموا فيها « بركة الله » من وجه^(٣) ، وعلى
دائره « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمهم
من الوجه الآخر يحوطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقدرة فإن المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبري وهو أربعة
دوانق ، والدرهم المغربي وهو ثمانية ، والدرهم ايمنى وهو ستة والدرهم البغلي
« وهو الذى يقال إنه ضرب في خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكسروية »
وهو ثمانية دوانق ، فأمر الحجاج أن ينظر الأغلب في المعاملة فكان البغلي والطبري
وهما اثنا عشر دانقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق .
وأما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جمع عشرة دراهم
كان وزنها سبعة مثاقيل^(٤) والناس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج
إلا أن ما في أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم في الخراج إلا
الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية^(٥) واليوسفية والهييرية ، وهى أجود النقود
التي ضربها بنو أمية^(٦) على يد عمالهم في العراق مثل أبي هيرة ويوسف بن عمر
وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبق للغش
في التجارة مجال ، ولا يحصل عنف في جباية المال .

(١) ابن خلدون ٣: ٤٥٥ والماوردي ٢٦٩

(٢) الاتليدى نقلا عن الدميرى .

(٣) الأئس الجليل ١: ٢٤٠ والمحاضرة ٢: ١٧٤ والاتليدى ٢٧٤

(٤) المقدمة ٢٢٧

(٥) الماوردي ٢٦٩

(٦) ابن خلدون ٣: ٤٥٥

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا إلماع بذكر محاسن دولة الرشيد وإنها لدولة خيرٍ وصالح كما علمت ،
فما حدث أهل الأخبار أن الإسلام كان في أية دولة أعزَّ جانباً ولا أوسع رُقعة
مملكة^(١) منه في خلافة الرشيد . ولعمري إن الملوك الذين يتعهدون النصر مثله
في جميع ما يباشرون من الأعمال قليل في العالم ، فما رأيتُهُ والبرامكة أعوان له قد
نُكِبَ في حرب قط ، ولا توجهت عليه هزيمة ، وإنما أعزَّ الإسلام باجتماعه
في المشرق كله إليه ، ورمى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم
من الروم وسائر الفرنجة ، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من
الدول السالفة مقرونا بفضائل العلم وجمال الحضارة ، وكفى بشرف دولته أنه
اجتمع ببابه من الوزراء^(٢) والأمراء والتقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء
والمحدثين والقراء والرواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره
مثله ، فإن البرامكة أعوان دولته ، وأبا يوسف قاضيه ، وهَرثمة بن أعين أمير
جنده ، والعباس بن محمد عم أبيه جليسه^(٣) ، ومروان بن أبي حفصة شاعره ،
والأصمعي محدثه ، وأبا نواس نديمه ، والفضل من آل الربيع حاجبه ، وإبراهيم
الموصلي وإسحاق ابنه مغنياه ، وابن بجيتشوع جبريل^(٤) وبني ماسويه أطباؤه^(٥) ،
والعلماء والأدباء كلُّهم قيامٌ على بابه لا يفارقونه في حضر ولا في سفر ، حتى إنه
ليطلب شاعره في أطراف الليل^(٦) فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم .

(١) الفخرى ٢٣٣

(٢) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخميس ٢ : ٣٣٢ والمأوردى ٣٣

(٣) الخميس ٢ : ٣٣٢

(٤) الفخرى والمسدودى ٢ : ٢١١ وابن الأثير ٦ : ٧٥ والمقدمة ١٦

(٥) أبو الفرج .

(٦) الأغاني والالتلیدی .

وإنما قرب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب^(١) والحرص على إحراز العلوم^(٢) ، حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم^(٣) من حيث العلم والتواضع له ، لا من حيث السيادة عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أن التواضع طبيعة في نفسه ، لأنه لو لم يأته الكبر من ناحية العلم لأتاه من ناحية السلطان ، وكلاهما داع إلى الإعجاب بالنفس ، فكثيرا ما كنت أراه إذا انتصب في عرشه يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردّه^(٤) ، غير أنه ربما كان يتغنى بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع في نفسه من الإجلال له أن تحصل له الغاية التي يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر في تخير ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذي تقدم الإلماع إليه فيما مضى من الكتاب ، ورأيت يتوسع في أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام ، فإذا دخلت عليه عرضه على سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله في جارية^(٥) تركية له :

يَا رَبَّةَ الْمَتَرَل بِالْفِرْكَ وَرَبَّةَ السُّلْطَانِ وَالْمَلِكِ

تَرْفَقِي بِاللَّهِ فِي قَتْلِنَا لَسْنَا مِنَ الدَّيْلِمِ وَالْتَرْكِ

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والإسحاق ٩٠ والدميرى ١ : ٩٥

(٢) الشرفاوى ٢٢٢

(٣) القزوينى ١٠٦

(٤) السيوطى والأغانى ٩ : ٨٦

(٥) الأغانى ١٢ : ١٨

وقوله في قينة له (١) :

تبدى صدودا وتخفى تحته مَقَّةُ فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعتُ له خدَى فذلله وليس فوق سوى الرحمن سلطان
وقوله (٢) في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عمراه على فقدتها من
الحزن ما ضاق له الصدر ، وفرغ دونه الصبر :

قاسيت أوجاعا وأحزاننا لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيفما كانا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بعدك إنسانا
والله لا أنساك ما حركت ريحٌ بأعلى نجد أغصانا

إلى غير ذلك ، وكان من الفضل بحيث إن مادبه لم تخل قط من عالم أو أديب
أو شاعر. وكان يستدعى إليه العمري والفضل بن عياض (٣) وابن السماك الكوفي (٤)
وإسحق الفزاري وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في مسائل الدين (٥) ويبيكي (٦) من
مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم ، حتى إذا جلس معاوية المحدث الضرير
إلى طعامه قام من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لقدر العلماء ، فقال له معاوية
يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك لأشرف من شرفك (٧) .

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٥٧

(٢) السيوطي .

(٣) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخميس ٢ : ٢٣١ والإسحاق ٩٠ والسيوطي .

(٤) العقد الفريد .

(٥) سراج الملوك ٣٠

(٦) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والطروشني ٣٨

(٧) الفخرى ٢٣١ والسيوطي .

أما زينة الدولة من الأدباء فثلاثة إسحق بن إبراهيم النديم وعبد الله الأصمعي والحسن بن هانيء المعروف بأبي نواس ، وكلهم إمام في العلم ، إلا أنه غلب على إسحق الغناء ، وعلى أبي نواس الشعر ، وعلى الأصمعي الأخبار والنوادر والملح .

فأما إسحق فإنه بالمكان الرفيع من الأدب ^(١) ، وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدونات العلم ما ليس عند الذين يُعَنَوْنَ بجمع صنف واحد من صنوفه مثله ، ولقد رأيت عنده من كتب اللغة مثلاً ما ليس مثله في خزانة ابن الأعرابي ^(٢) ، وله مقام سام بين العلماء حتى إنهم ليهدون إليه كثيراً من تأليفهم ودواوينهم كأبي نواس وابن أبي عيينة ^(٣) وابن الأعرابي ^(٤) وغيرهم تشيظاً لعلمه وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرفة للتعيش ، وإنما هو ميل بنفسه إلى محاسن الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يغنى إلا في دور الرشيد والبرامكة وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورته في العلم على جلوسه إليهم في صفوف المغنين ^(٥) .

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغنى لوليت القضاة بين المسلمين ^(٦) ، ووجدت في نفسه من جميل الميل إليه ما كان يجمله على أن يقصده داره ^(٧) على سبيل التحجب ، ولقد كنت يوماً بداره وهي بباب الشمسية ^(٨) من الجانب الشرقي تلقاء قُطْرُبُلٍ ^(٩) ، بجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار

(١) الأغاني والحصرى ٢ : ٢٠٦

(٢) ذكر ابن خلكان ١ : ٩٣ أنه كان عند ابن الأعرابي خزانة جمع فيها كتب اللغة .

(٣) الأغاني ١٨ : ١٢

(٤) الأغاني ٥ : ٥٥

(٥) الأغاني ٥ : ٦٠

(٦) ابن خلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغاني .

(٧) التليدي ٢٨٦ والأغاني .

(٨) الأغاني ٥ : ٧

(٩) ذكره المسعودي ٢ : ٣٨٥ و ٣٩٧

الذي يركبه (١) في ساحات القصر وجناته للترهة ، ومعه خمسمائة نفر من خدمه وعلمائه وندمائه (٢) ، فقام إسحق بالواجب من إكرام وفادته (٣) ، وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفى الجمع كله ، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء ، فقال الرشيد لست أريد هذا وإنما شوق في النفس دعاني إلى الأتس بقربك .

وأما الأصمعي فإنه قديم بغداد (٤) في خلافة الرشيد في جملة من وفد عليه من العلماء . وهو إمام في النوادر (٥) والأخبار وأيام الناس مشهود له بصدق الرواية ، ولقد حدث الرشيد يوما عن ملوك بني أمية فقال إن سليمان كان نهما إذ قدم إليه السباط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمه ، وإن يزيد كان إذا جلس للشراب يسقط الخمر في ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله ما أصدقك في نقل الأخبار ! والله إن ثيابهما عندي وإن الدهن لنفي أكام سليمان والخمر في ثياب يزيد (٦) ، على أنه لم يكن بيني وبينه مع طول المدة التي أقمتها في بغداد قرب ولا استلاف لانقطاعه عن مجالس البرامكة ، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد ، فأراه لا يغفل عن نادرة مليحة إلا يذكرها له ، ولكن بالألفاظ التي تأخذ بجامع القلوب ، وكنت يوما بين يديه وقد بدر من رجل ظريفة فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعي (٧) . وقد أخبرني بعض أصحابه أنه أقام في صباه بالبادية أياما طويلا يستطلع فيها عادات العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم ، وقد شاهد ما يقيمون من المجالس

(١) الأغاني ٥ : ٣٠ و ٤٦

(٢) ذكر ياقوت ٤ : ١١٨ أن الخليفة كان يركب في كذا وكذا رجالا وخداما .

(٣) واتخذ الفرش من الخنز المظهر بالسنباب كذا في العقد الفريد ٣ : ٢٤٠ وهذا نص كلامه "فدخلنا دار إبراهيم الموصلي فاذا هي لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خنز مظهر بالسنباب" .

(٤) ابن خلكان ١ : ٤٠٨

(٥) الشريشي ٢ : ٢٧٩

(٦) المسعودي ٢ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠ وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٧) المسعودي ٢ : ٢١١ والأتليدي ٩٦ والعقد الفريد .

والأسواق ، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق ، وما وقع لبناتهم مع الشعراء ، فلما أقام ببغداد أخذ يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو أخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار علماً في المدينة ، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه .

وأما أبو نواس فإن الشعر هو الذي يقدمه اليوم عند الرشيد ، وقد (١) كان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضرني شيء ، فقال بجيأتي (٢) إلا ما قلت شيئاً ، قال كان الكذب عملي واليوم هجرته يا أمير المؤمنين (٣) ، فضحك وقال هذا أحب إلى من الحديث ، وله كلام ظريف في المجنون والخلاعة (٤) وحوادث تدل على خفة روحه . وكان إسحق يتعصب له (٥) ويشيد بذكره ويجهز بتفضيله ويحلب له الرشد من الرشيد ويحط من قدر الأصمعي لتنافس بينهما (٦) حتى أخذ المقام الأول بين الندماء وبني لنفسه الدور (٧)

(١) وربما حفظ له شيئاً من أبياته يمثل بها في مجالسته الأدباء فلقد سمعته مرة يقول لو قيل الدنيا صني لنا نفسك وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيت تكشفته له عن عدو في ثياب صديق
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

المقد الفريد ١ : ٣٦٩

(٢) كلبه يقولها الخليفة عند التحجب الأغاني ٦ : ٧٥

(٣) المستطرف ٣ : ١٠

(٤) الكنز ٩٤

(٥) الأغاني ٥ : ١٠٧

(٦) الشريشي ٢ : ٢٧٤

(٧) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغاني ٣ : ١٦١

التي لم يبين مثلها عطاء الناس ، بينما الأصمعي يستقرض من أصحابه (١) حاجته من المال .

ومن خلال أبي نواس الماثورة أنه يميل مع أهل البيت سرا لا يحسر على المجاهرة به ، وقد قيل له في إعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى في شعرك وهذا على بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئا ، فقال والله ما تركت ذلك إلا إعظاما له وليس في قدرة مثلي أن يقول في مثله وأنشد (٢) :

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادما لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون للخروج إلى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

(١) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر المسعودي ٢ : ٢٢٣ أنه روى في دار الأصمعي خباء مكسور

وعليه دراعة خلقة ومقعد وسمخ وكل شيء عنده رث .

(٢) ابن خلكان ١ : ٥٧٤

الرسالة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى علىّ في بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين ما زلت منقطعا فيها إلى البرامكة حافظا لمقامي في الدولة تحت ظلهم وعنايتهم ، وكنت أتردد في خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بي في خلواته إلى أن صرت منه بالمتزلة التي لا يطمح إليها غيري من المقرّين إليه ، وكنت أقف على أمور بيته وأولاده ، فوأيته (أكرمهم الله) صالح السريّة شديد الإغراق في الدين محافظا على أداء الصلاة في أوقاتها وشهود الصبح لأول وقتها ، يصلي في كل يوم ليلة مائة ركعة لا يتركها إلا لعلّة (١) ، وأذكر أنه لما حصل في أحد الأعوام كزنة وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتدادا عظيما أمرهم بكسر الملاحى وكثرة الدعاء والتوبة (٢) ، وذلك دليل على موقع العبادة عنده ، ومظهر يروم منه تأييد الدولة بإجلال الدين حتى يكون الإسلام مغتبطا بمناحيه .

وإن كنت رأيت له في تدبير المملكة ذلك التصرف الجليل فإني ما وجدته له في تدبير أهل بيته ومواليه ، وإنما يرجع الرأي في ذلك إلى زوجه أم جعفر ، وهى أنفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة ، وقد ربيت في مهاد الدعة والدلال كما يشير إليه اسمها ، فانما سماها أبو جعفر جدها بزبيدة لغضاضة بدنّها ، وقد كان يرقصها تهللا بها وإعجابا بملاحتها ، فسماها بزبيدة لذلك (٣) فلما بنى بها الرشيد ووجدها طرفة حديث ومصدر رأى جميل لم يربدا من الانقياد إليها في قضاء ما ترومه من

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧ والفخرى ٢٣٠ والمقدمة ١٥

(٢) المستطرف ١ : ٨٢

(٣) الاغانى ٩ : ١٠٢ والشرشى ٢ : ٢٤٥ والخصرى ٣ : ٢٣٦

الحاجات ^(١) ومن ذلك أنه مكنها من بيوت المال فأنفقت من سعة ما يُنْفَى على ثلاثين ألف ألف دينار، فبنت مسجدا مباركا على ضفة دجلة بمقربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة ، ومسجدا سايح الحسن في قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر ^(٢) بين باب خراسان وشارع دار الرقيق ^(٣) ، وحفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المشاش ^(٤) ، ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا إلى مكة ، فبلغ ما أنفقته عليها ألف ألف دينار، وهذا من الأعمال التي لم تباشرها امرأة في الإسلام إلا الخيزران أم الرشيد فإنها عَمَرَت كثيرا من المساجد ^(٥) أيضا وبنت بمكة دار ابن يوسف التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا ^(٦) جزيل البركة ، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذي خلفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائة ألف ألف درهم ^(٧) فان لم يكن عند زبيدة من المال ما يبلغ هذا القدر الجسيم فإن لها في السياسة رأيا تسمو به إلى التدخل في أمور الدولة كأفطن من يكون من الرجال .

وقد صير الرشيد أمر بليته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد ، وهو حاجبه وسيد مواليه ^(٨) . وله في قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزته من خدم وحرس وغلمان ، والكاتب له زياد بن أبي الخطاب ^(٩) يقيم بمقربة من مجلس يوسف

(١) في المسعودي أنها كانت من الرشيد بالمتزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢ : ٢٢٧

(٢) ياقوت ٤ : ٤٢١

(٣) ابن خلكان ١ : ١٨٩ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٤) المسعودي ٣ : ٤٠٢ وابن جبير ١٧٣ والشرشي ٢ : ٢٤٥

(٥) ابن جبير ٢٧٦

(٦) المسعودي ١ : ٣٠٦

(٧) المسعودي ٣ : ٢٠٧

(٨) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣

(٩) الأغاني ٤ : ٩٩

ابن القاسم صاحب ديوان الإنشاء^(١) ومن قام بين يدي الرشيد حين أخذت له البيعة ، وفي ذلك دليل على مكان كتابه من الشرف وعلو المرتبة . ولا غرو فإن له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمرء والحكام مثله ، إذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلا بإذنه ورضاه ، وكثيرا ما رأيت الملوك يتلفون بالهدايا إليه ليخاطب الرشيد في حاجاتهم ، إذ ليس في أهل بيته من يتجرأ عليه سواه^(٢) حتى كان إذا ركب الخليفة لا يحسر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيره^(٣) .

وإلى مسرور الأمر فما يختص بالسراري والقيان وإنهن لكثير في دار الرشيد يبلغن زهاء ألفي جارية^(٤) يرفلن في أحسن زى من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهب ، غير أن المقدم عليهن جميعا ثلاث أهدهن إليه الفضل بن الربيع : سحر . رضاء . وخنث ذات الخال .

أما حريم الخلافة فإنه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر ، وأعظمها دائرة أم جعفر ، لها قصر السلام كله ، وهو أطرف القصور وأبهجها زينة وأجملها في العيون والقلوب موقعا يقول فيه إبراهيم النديم^(٥) :

سُقيت الغيث يا قصر السلام فنعم محملة الملك الهمام
لقد نشر الإله عليك نورا وخصك بالسلامة والسلام

(١) المحاضرة ٢ : ١٣٢

(٢) الاثليدي ٢٨٦

(٣) الأغاني ٩ : ٩١

(٤) الأغاني ٩ : ٨٨

(٥) الأغاني ٥ : ٨١

ثم دائرة أولاد المهدي ، ثم دائرة أولاد الهادي ، ثم دائرة أولاد الرشيد من غير زبيدة زوجه . ولهن جميعا من الخدم والغلمان ما ينتهي إليه إسراف الملوك في السعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والإشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن في أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكاملة بالجواهر اقتداء بعُيلة أخت الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصابة لعب في جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه النساء ^(١) .

أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتأق فيه إلا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة ، وإنما ينصرف همه إلى لذة المطعم بالتأق في صنوف الألوان ، وقد جلست إلى طعامه ^(٢) أكثر من مرة في مجلس كامل الزينة قد فرش به بالرخام الأخضر ولبس حيطانه بالوشى المنسوج بالذهب ^(٣) فرأيت يفتن في طعامه ولكن على غير شره في الأكل ، يبدأ بالمرق من السكاج وغيره تنشيطا لجسمه ، ثم يأكل الفاتر ^(٤) من الطعام من البقول وأشباهاها ، ثم الدجاج وأنواع الطير ، ثم الشواء ثم أنواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسق ^(٥) ، وهي رقاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتطرف بالخردل ^(٦) ، وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التي تشبه إليه ^(٧) ، فإذا اكتفى منه تناول الحلوى من الأسوقة والربيكة واللوزينج والفالودج أو غيرها ، ثم الفاكهة بعدها ،

(١) الأغاني ٩ : ٨٣

(٢) ذكر الأغاني ٥ : ٢٤ أنه ما كان يجلس إلى طعام الخليفة غير أمير وعالم .

(٣) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الأغاني ٣ : ١٨٤

(٤) المسعودي ٢ : ٢٢٠

(٥) المسعودي ٢ : ٤٢٦

(٦) الأغاني ١ : ٣٩

(٧) يتبدى بالطعام الحار وينتهي بأكل البوارد المسعودي ٢ : ٢٢٠

ثم الثقل (١) وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلل ، ولكن فى الصحاف التى لم أر
أظرف منها فى آنية الصين ولا أغلى ثمنًا وقيمة ، فكنت أحسب لشدة تأنقه
فى فنون المطعم أنه لو لم يمه النبي صلى الله عليه وسلم عن الأكل فى صحاف الذهب
والفضة (٢) لاتخذها كذلك ونزل فيها اليواقيت والجواهر . فإذا اكتفى من التعلل
جاءه الغلمان بماء الورد المسك (٣) فى قماقم الذهب مع شئ من الريحان فيغسل يديه
ويتبخر ، فإذا انتهى من الغداء دخل مخدعه للقيولة (٤) ، وإذا فرغ من العشاء
جلس للمغنين والندماء . كذلك عادته من يوم ولّى الخلافة .

أما أولاد الرشيد فكلهم مترف يتقلب فى النعمة والإسراف إلا أحمد (٥) فإنه
يحاول العزلة ويقعد مقعد ضنأة ويتكسب بيده فيما يقولون شيئًا ينفقه على نفسه
مع مقدرة أبيه كلها (٦) ، أما القاسم فإنه ذو كبر شديد ونعمة طائلة وبذخ زائد ،
وإليه ينتهى جمال ولد الخلافة (٧) ، وكان أبوه قد طوقه أمر الفداء الذى وقع
بين المسلمين والروم بعيد عودتى من خراسان فخرى ذلك على يده (٨) وعمره يومئذ
اثنتا عشرة سنة ، فتراحم ركب الملوك على بابيه ، ومكنه أبوه من بيوت المال
فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشتري الجوارى (٩) والغلمان ، ويقيم المجالس
للشعراء والمغنين والندماء ويقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات (١٠) إلى
أن يصيب بعضهم فى ناحية ما لا يصيبه من جوائز الخليفة من المال .

(١) المسعودى ٢ : ٢٢٠ والأبشهى ١ : ٨٤

(٢) الاتلدى ٩

(٣) الاتلدى ١١٣

(٤) الأغاني ٥ : ١١ والمستطرف ١ : ١٣٢

(٥) ولده من سرية لبعض نساءه العقد الفريد ٣ : ٥٦

(٦) ابن خلكان ١ : ٥٧

(٧) الأغاني ٣ : ١٥٩ و ٩٦ : ٩٦

(٨) ابن الأثير ٦ : ٥٧

(٩) الأغاني ٣ : ٥٧

(١٠) ذكر الأغاني ٣ : ١٦٨ و ٤ : ١١٦ عطاء أولاد الخلفاء .

أما الأمين والمأمون وليا العهد فإنهما دونه في الإسراف ولا سيما الأمين فإنه يوهيم أنه كثير العقل وإن كان ضعيفه ^(١) ، ويتخذ الوقار برقعا لوجهه لما يحدث به نفسه من أمر الخلافة . ولأنه ابن هاشمي وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم ، فإن أبا العباس وأبا جعفر والمهدي والهادي والرشيد كلهم أولاد سراري ^(٢) وأما عبد الله المأمون فإنه زينة أولاد الرشيد ، وسمته سمة خير وفضل وعفاف ، لم أر في أبيه حلة من الخلال المحموده ولا خلقا من الأخلاق الرضية إلا وجدتها في نفسه طبيعة تسمو به إلى أرفع مقام في أدب الدنيا والدين ، ولم أر في أولاد الملوك غير البرامكة (أعزهم الله) من يتعشق العلوم الحكيمية ^(٣) على حدائث سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم ^(٤) في جميع أنواع العلوم مثله ، فما أذكر أني دخلت عليه مرة إلا وقد لقيت في مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألفيت بحضرته ^(٥) جماعة من أئمة العلم ومنهم الخزيي والعباس بن زفر ومنصور النوى ، وهو السليم شعره من العيب لولا أن له طعنا في الشيعة يبتغي به مرضاة العباسيين ، ومحمد الراوية المسمى بالبيدق لقصره وهو المنشد للرشيد أشعار المحدثين ^(٦) ، وفي من أمراء آل نوبخت يقال له الفضل بن سهل وهو خليل المأمون ^(٧) وصديقه لا يصير على فراقه في نهار ولا ليل ، وإذا ركب في موكب أركبه معه على النجائب المخضوبة

(١) ابن الأثير والمسعودي والفخرى .

(٢) السيوطي .

(٣) المقدمة ١٨

(٤) الديميري ١ : ٩٨ والمسعودي ٣ : ٤٠٢ والعقد الفريد ٣ : ٤٣

(٥) الأغاني ٢ : ٢٢

(٦) الأغاني ١٢ : ٢٠

(٧) ابن الأثير وذكره الطواط ١٤٢

بالحناء وعليها القطوع والديباج^(١) ، وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا به إحداق الهالة بالقمر، منهم الكسائي وأبو محمد مؤدباه^(٢) وهم يتباحثون معه في مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم (زيد) على الرفع والكسائي يقول بل (زيدا) منصوبة بأن فتطرح العلماء الجملة الإعرابية التي دار عليها كلامهم وهي « إن من خير القوم أو خيرهم نية زيد »^(٣) فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله في ذلك اليوم وعرفت أنه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير إذا جلس للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه من التسلية أدبا وفائدة ، ولم يكن شيء من الملاهي أحب إليه من لعب الشطرنج^(٤) يمارسه كأبيه^(٥) لاستنباط الحيل فيه ، حتى لم يكن في الناس من يفضلُه فيه وهو القائل في الشطرنج^(٦) :

أرض مربعة حمراء من آدم	ما بين إلفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبا	من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على	هذا يُغير وعين الحرب لم تم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة	في عسكريين بلا طبل ولا علم

(١) ذكر زينة المراكب هذه الأغاني ١ : ٨٨

(٢) الأغاني ١٧ : ٧٢ والمستطرف ٣ : ١٣ والمسعودي ٢ : ٢١٣

(٣) الأغاني ١٨ : ٧٧

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٥٤

(٥) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف .

(٦) المستطرف ٢ : ٣٠٦ والمسعودي ٢ : ٤٠٦

وأما لعبه بالأكرة والطبطابة ورميه في البرجاس النشأ . وكره بالصوالجة في الميدان واقتناؤه طرائف الطير والخليل^(١) والحيوان . واتخاذه الديكة ليقا تل بعضها بعضا والأكبش ليناطح بها بين يديه إلى غير ذلك من ملاذ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يُعبدوا أمثال هذه الملاهى على سبيل المفاخرة والمباهاة ، فإنه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من الملك المترف وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التي تعود عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة . فقد عني بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدر العظيم الثمين ، رأيت في بعض مجموعاتة صندوقا أودعه خواتم الخلفاء جميعا من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفي صدر الدولتين ، فكان جامعا لجميع خواتمهم^(٢) إلا خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن ضاع من عثمان في برأريس كما تواتر في الأنباء^(٣) ما كف عن طلبه حتى يجده ، وفي هذا المجموع وأمثاله من المجموعات أدب مع الفكاهة والزينة . وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير وليس هو إلا التمر اليسير في جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

(١) من المعلوم أنه كان لأمرأ العرب العناية التامة بترية الخليل ووجدت في العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه في الحلبة قال في الجزء الأول ٦١ : ركب الرشيد في سنة ١٨٥ إلى الميدان لشهود الحلبة قال الأصمعي فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليان بن جعفر ولعيسى بن جعفر بجاء فرس أدهم يقال له الريذ لهرن الرشيد سابقا فابتهج لذلك ابتهاجا علم في وجهه وقال على بالأصمعي فنوديت من كل جانب فأقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعي خذ بناصية الريذ ثم صفه من قونسه الى سنبكه فإنه يقال إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأشدته شعرا جامعا ما فيه . . . فأمر لي بألف درهم . وذكر المسعودى ٣ : ٢٢٠ أن الرشيد أجرى الخليل يوما بالركة وكان في أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملهما فقال فرسى والله وفرس ابنى المأمون .

(٢) في العقد الفريد والمسعودى والمقرئى والخميس وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا يقشون عليها .

(٣) أبو الفداء ١ : ٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم .

جمال البرامكة وانهجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) فإنها في الجانب الشرق يازاء دور الخلافة ليس بينهما إلا عرض دجلة ^(١) ، وهى من الجمال والإشراق بمكان تسامى ^(٢) به قصور الرشيد ، لأنهم بنوها على السعة التى لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألف ألف ^(٣) درهم ، فهى مظهر الأتس والصفاء ، ومشرق الأنوار والسناء . مغشاة بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ^(٤) ، وقد فرشت مجالسها بالوش والإبريسم وزينت بالمساع الثمين والقمم الذهبية ^(٥) والجوامع المنقوشة ^(٦) والقوارير الفرعونية ^(٧) ولطائف الصين وغيرها من التحف التى تأتيم من الملوك فى سبيل المواضاة والاستمالة ^(٨) ، ولبست طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة ^(٩) مما قالت الشعراء فى مدحهم ، وهى تأتيم من مصنوعات الفرس ، لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بن مروان ^(١٠) ، ولا يكتبون على البسط والستور إلا كلاما يتبرك به ، بخلاف الفرس فإنهم يزينون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات .

(١) الفخرى والتليدى ١٦٧ والقزوينى ٢١٠

(٢) الدميرى ٢: ١٥٤

(٣) ابن الأثير ٦: ٦٢

(٤) كانت العرب تعرفه كما فى المقدمة ٣٥٧

(٥) الكثر ٣٦

(٦) الأغاني ٣: ٢٧

(٧) الأغاني ٦: ١٣٠ و ١٠٣

(٨) الفخرى ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفى ابن الأثير ٦: ٥٨ أنهم كانوا من المنزلة الكبرى فى عيون الملوك بحيث إن خاقان ملك الخزر حمل ابنته إلى الفضل بن يحيى تقربا إليهم فى المصاهرة .

(٩) رسم الأبيات على الأستار مذكور فى الأغاني ٥: ٨٦ و ١٠٠

(١٠) التليدى ٢٧٢

وقد اتصلت عمارة البرامكة في حي لا يخالطهم فيه أحد ، وهى من السعة بحيث تنتهى من الجنوب إلى شارع المدينة ^(١) ، ومن الشرق إلى درب دينار الصغير ^(٢) ، ومن الشمال إلى باب الشمسية ^(٣) ، وهو الموضع الذى فيه قصر يحيى المعروف بقصر الطين ^(٤) ، المسمى بذلك معارضة لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة ، وفي جوارهم موضع يقال له البردان ^(٥) . يشترى فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب ^(٦) ، لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم والسماحة ^(٧) ، وأصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك ، فإن يحيى إذا ركب يُعدُّ صُررا في كل صرة مائتا درهم ، ويدفعها للتعرضين له في الأسواق والشوارع ^(٨) . وقد قالت الشعراء في ذلك :

ياسمى الحصور يحيى أتيتك لك من فضل ربنا جتان
كل من مرّ في الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان

أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فما لا تحضرنى عبارة تفى بالإفصاح عنه ، وإنما للعين أن ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحفد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثله ، وإن إقبال المؤمنين عليهم من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون إليهم رجال الرجاء ويستقون من موارد إحسانهم ،

(١) ذكره الأغاني ٦ : ٧٨

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣١١

(٣) الأغاني ٥ : ٨ وذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ وقال إنه في الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الأثير ٦ : ٩٨ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد .

(٤) الأغاني ٥ : ٨ وياقوت ٤ : ١١٤

(٥) الأغاني ٥ : ٨ وذكر المسعودى هذا الموضع ٢ : ٢٦٧

(٦) الأغاني ٥ : ٧٢

(٧) الأغاني ٥ : ٧٢ والاتبليدى والابشهى والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون والفخرى وابن ثبالة وابن خلكان وغيرهم .

(٨) ابن خلكان ٢ : ٣٦٣ والفخرى ٢٢٠

نهلاً وعللاً لأشهر من أن أحاول نعته بالوصف الذى لا يعبر عنه القلم ، فكأنما
يبتهم محط الركائب يضعن فيه المدائح ويحملن منه المال .

ولقد رأيت من الأعراب من قصد الفضل من قضاة فسأله عن حاجته
فاستجده عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنا وبنفسك
يا أخا العرب ، وإنما تعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة ، فلما أخذ المال انصرف
وهو يبكى فقال له الفضل مم بكائك آستقلالاً للال الذى أعطيناك ؟ قال لا
ولكننى أبكى على مثلك تواريه الأرض ويأكله التراب وأنشد^(١) :

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حُرِّ يموت لموته خلق كثير

فنظر إلى الفضل بعد انصرافه وقال لى إن مثل هذا يقصدا من البلد البعيد
ليسترفدا مرة واحدة فى زمانه فيقوم بحرمة الصنيعة ، ومن الأمراء من نغمره
باحساننا كل يوم^(٢) ثم يغمط النعمة ويدب فيه مرض الحسد فيكون من أشد
الناس بغضاً لنا وسعياً فى فساد ملكنا .

وقد انفجر البرامكة بالكرم^(٣) حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر فى سعة
العطاء ، فيقال فلان من الملوك يتبرمك ، وقد أخبرنى الخازن القائم على بيت مالهم
أنهم يغالون فى كل سنة عشرين ألف ألف دينار^(٤) فإذا انقضى الحول لا يبقى منها
فى الخزائن دينار واحد ، فهم يتخذون الكرم قاعدة فى الحالين من نعيم الدنيا

(١) الاتليدى .

(٢) الفخرى ٢٤٠ والطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والمستطرف ٣ : ١٩٢

والأغانى ٥ : ١١٩

(٣) الأغاني وابن خلدون وابن الأثير وأبو الفداء والمسعودى والعقد الفريد والمستطرف والاستحقاق

والاتليدى والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٨

ويؤسها . يقول أبو الفضل (١) (أيد الله ملكه) إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تنفي
وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى . وقال أبو نواس في مدحهم (٢) :

إن البرامكة الكرام تعلموا فعل الجميل وعلموه الناسا
وإذا هم صنعوا الصنائع في الورى جعلوا لها طول البقاء أساسا
وقال فيهم نصيب (٣) :

عند الماوك مَصْرَّةٌ ومنافع وأرى البرامك لا تَضُرُّ وتنفع
إن العروق إذا استسرها الثرى أشر النباتُ بها وطاب المزرع
فإذا جَهِلَتْ من امرئ أعرافه وقديمه فانظر إلى ما يصنع
وقال أبو النضير البصرى :

إذا كنت من بغداد بمنقطع الثرى وجدت نسيم الجود من آل برمك
وقيل فيهم وهو منتهى المديح :

أتانا بنو الآمال من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كل عام إلى العدا وأخرى إلى البيت العتيق المستر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت ييجي وبالفضل بن ييجي وجعفر
فتظلم بغداد وتحولنا الدجى بمكة ما تمحو ثلاثة أقمـر
فما خلقت إلا لجود أكفهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض ييجي الأمر ذلت صعا به وناهيك من راع له ومدير

(١) الاتليدى في كتاب أعلام الناس .

(٢) الأغاني ٥ : ١١١ و ٣٠ : ٣٤ والحصرى ١ : ٣٧٥

(٣) الأغاني ١٠ : ١٠٠

وقال سلم الخاسر في يحيى^(١) أعزّه الله تعالى :

يا أيها الملك الذي أضخى وهمتّه المعالي
انت المنوّه باسمه عند الملمات الثقال
لله درك من فتي كم فيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر^(٢) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعا لطيفا في القلوب :
نام الخليلون من همّ ومن سقم وبثّ من كثرة الأحران لم أنم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا اعمد ليحيى حليف الجود والكرم
وقال فيه آخر^(٣) :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثني من والد بعد والد
وقال غيره^(٤) :

لا تراني مصافحا كفّ يحيى إنني إن فعلت ضيّعتُ مالى
لو يمسّ البخيل راحة يحيى لسختُ نفسه بئذ النوال
وقال غيره في كرم الفضل^(٥) رعاه الله تعالى :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد فقامت به التقوى وقام به العدل
إليه يسير الناس شرقا ومغربا فرادى وأزواجا كأنهم نحل

(١) الوطواط ٢٤٩

(٢) الأغاني ٥ : ١٣ والتليدي ٢٣٨

(٣) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ١٠٠

(٤) الفخرى ٢٣٦

(٥) اعلام الناس .

واعترضه وقت خروجه إلى خراسان فتي من التجار كان قد شَخَصَ إلى الكوفة
فقطِعَ عليه الطريق وأخذ جميع ما كان معه ، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال (١) :

سأرسل بيتا ليس في الشعر مثله يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأس في كل منزل أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

وقال آخر من شعراء البادية (٢) :

قد كان آدم حينَ حان وفاته أوصاك وهو يحود بالحِوَاءِ
بينه أن ترعاهم فرعتهم وكَفَيْتَ آدمَ عَيْلَةَ الأبناء

وقال فيه أشجع السُّلَمَى الشاعر (٣) :

وما قدّم الفضل بن يحيى مكانه على غيره بل قدّمته المكارم
لقد أَرَهَبَ الأعداءَ حتى كأنما على كل ثغر بالمنية قائم

وقال أبو النضير البصري (٤) :

ويَفْرَحُ بالمولود من آل برمك بغاةُ الندى والسيِّفِ والرمح والنصل
وتبسّط الآمال فيه لفضله ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال غيره (٥) :

ولأمة لامتك يا فضل في الندى فقلت لها ما يقدح اللوم في البحر
أردت لِيَتَنَّى الفضل عن سَنَنِ الندى ومن ذا الذي يَتَنَّى السحاب عن القطر

(١) العقد الفريد ١ : ١١٩

(٢) ذكر في العقد الفريد ١ : ١١٤ أن البيتين قِلا في الحكم بن حنطب .

(٣) الأغاني ١٧ : ٣٤

(٤) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٠٠ : ١٠

(٥) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ٢٩٨

مواقع جود الفضل في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر
كان وفود الناس لما تجملوا إلى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر
وقال آخر (١) :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رأيت بها غيث السحابة يُنبت
وقال ابن الخياط المكي (٢) :

لمست بكتفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدى
فأنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلقت ماعدى

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه في تقييل يده
فأذن له فما انتهى إلى الباب حتى فزق المال بأسره ، فعوتب على ذلك فقال
البيتين المذكورين ، فبلغ ذلك الفضل فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال
بعضهم (٣) وهو أمدح بيت في الكرم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء
وقال مروان بن أبي حفصة في جعفر وهو صبي (٤) :

بنى لك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن ينالا
كأن البرمكى لكل مال تجود به يدها يفاد مالا

(١) المستطرف ١ : ١٩٦

(٢) حلبة الكميت والوطواط ٢٥٠ والأغانى ١٨ : ٩٤ وهو يقول إنه أشدهما في المهدي .

(٣) ابن خلكان ١ : ٥٦٨

(٤) هما من بحر القصيدة التي رثى بها معنا ولم يثب عليها أحد من أولاده وقد قالها في مدح جعفر
البرمكى وألحق بهما بعض أبيات . ومما قاله مروان في هذه القصيدة في رثاء معن :

كانت الشمس يوم أصيب معن من الإظلام ملبسة جلالا
هو الجبل الذي كانت معد تهد من العدو به الجبالا
أقنا بالنيامة بعد معن مقاما لا يزيد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

وهي من جيد الشعر . الأغانى ١٨ : ١١٦ والحصرى ١ : ٣٧٧

وقال فيه أيضا (١) :

أفى كل يوم أنت صبٌ وليلةٍ إلى أم بكر لا تُفريق فتُصر
أحب على الهجران أكف بيتها فيا لك من بيت يحب ويهجر
إلى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سراها نحوه والتهجر
إلى واسع للجدتين فناؤه تروح عطاياهم وتبكر
وقال فيه (٢) :

لدولة جعفر حمد الزمان لبابك كل يوم مهرجان
جعلت هديتي لك فيه وشيا وخير الوش ما نسج اللسان
وقال العتّابي ، وكان في نفس الرشيد عليه موجدة واستعطفه جعفر عليه ،
فقال فيه (٣) :

ما زلت في غمرات الموت مطّرحا قد ضاق عني فسيح الأرض من حيلي
لم تزل دائما تسعى بلطفك لى حتى اختلست حياتي من يدى أجلي
وقال فيه أشجع السلمي (٤) :

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بأبوابه إذا نابها الحدّ الأفضع

(١) الأغاني ٥ : ١٥

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧

(٣) الأغاني ١٢ : ٧

(٤) الأغاني ١٧ : ٣٤

وقال فيه (١) :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس
فإذا تراءته الماك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامك جعفر وهم الألى بعد الخلائف سادة الإنس
ماضر من قصد ابن يحيى راغبا بالسعد حل به أم النحس

إلى غير ذلك من الأشعار التي لو حاولت تقييدها في هذا الكتاب لبلغت أثر
من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة ليس فيها بيت سخيف بارد . وقد
وجدت للرقاشي (٢) وجده ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت في مديحهم ، وهى
من البلاغة بحيث إن البرامكة (أعزهم الله) يروونها لأولادهم تفضيلا لها على
شعر غيره من المحدثين .

الدولة فى خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته ، فقد سبق القول
بأن دولته من أوسع دول الإسلام بل دول العالم رقعة مملكة ، فإنها تنبسط من الهند
وفرغانة فى الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الرقاق ، كذلك كان
امتدادها فى أيام أبيه فيما عدا البلدان التى غلب عليها الروم فى حروب متواترة قد
استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء فى رفع السيوف عليهم
منذ صدر الإسلام ، فإن الدولة الأموية قد حملت عليهم المرة بعد المرة وحملتهم

(١) الأغاني ١٧ : ٣٣

(٢) الأغاني ١٥ : ٣٥ ويظهر من كلام ابن الأثير ٦ : ٦٤ أن الرقاشي كان
شاعر البرامكة .

خسائر عظيمة من الرجال والمال ، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش ولم يزل أبو جعفر في مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء ، وكانوا مع ذلك لا يفترون عن الثورة ويأبون إلا نكث العهود ونقض العقود المبرمة ، فلما ولى المهدي أنحرج إليهم الرشيد^(١) وهو قتي بقيادة يحيى وزيرنا ، فركب في عدّة وأهبة لم يكن مثلها في الإسلام ، وتحركت في نفسه نحوه الجهاد حتى اتسم بسمة المحاربين في الجيش ، وحمل الرمح في يده^(٢) . وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها ريني لم تطق مقاومتها ، فهزم جندها وتفرق المسلمون في البسائط^(٣) يعقون الآثار ويبيحون الذمار ولا يبقون على أحد من الروم ، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المتجنّقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كيليكية ، وحملت إليه الجزية التي كان يحملها أسلافها إلى الخلفاء ، وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة في إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ، ففي نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء في أمرهم ما بقي لهم ملك تجاه دول الإسلام العظيمة .

ثم إنه بعد أن ولى الرشيد وقع في نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه . فبعث لهم العساكر وشحنها في أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمر الأساطيل بسواحل الشام^(٤) وسير الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويثبون الخراب ، ففتحوا وغنموا^(٥) وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافوا بمعقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم ، فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم ، ورأت الجند بين يديها وهوشيت ، صالحتهم على الجزية وراحت تحملها إلى بغداد وهي صاغرة إلى انقضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل واستشعروا

(١) أبو الفداء ٣ : ١٠ والخمس ٢ : ٣٣١ وابن الأثير .

(٢) الأغاني ١٧ : ٤٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٧٠

(٤) أبو الفرج : وذكر إمارة الأساطيل بسواحل الشام ومصر أبو الفداء ٢ : ١٩

(٥) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبي من أهلها ستة عشر ألفا ابن الأثير ٦ : ٧٠

من عزة الإسلام في غزوتهم تلك ما أفاضوا في التحدث به إلى هذا اليوم. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتصدر رايات الإسلام راويات .

ولما هلك ريني نصب الروم عليهم تقفور وكان ملكا شديدا البأس إلا أنه قليل الخبرة بأمور السياسة غير عارف بمكان الإسلام من الصولة والدولة ، بل كان يظن في المتمصرين من العرب فتورا في العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دعة العمران. فكتب إلى الرشيد في منتصف هذه السنة كتابا بنقض الهدنة التي كانت بينه وبين ريني يقول فيه :

«من تقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد فإن الملكة التي كانت قبل كانت أقامتكم مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا (١) ، وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيني وبينك » .

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يحسر أحد أن ينظر إليه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه » (٢) .

ثم حشد الجنود ليومه ، وركب في صفوف المترجلين والفرسان ، وحمل القوات والأقوات استظهارا على نفوذ العزيمة ، ولم يزل حتى وافى مدينة هرقل (٣) ونصب عليها القتال ، وهي مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الإسلام في الوصول إليها لخشونة مكانها ، فذك أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله أكتاف الروم فنفلهم رقابهم وأموالهم وفي ذلك يقول الشاعر المكي (٤) :

هوت هرقل لما أن رأت عجبا حواما ترمي بالنفط والنار
كأن نيراننا في جنب قلعهم مصبغات على أرسان قصار

(١) في تاريخ أبي الفداء أنه قال حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بجمل أضعافه إليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن إلى آخر الكتاب .

(٢) الأغاني ١٧ : ٤٥ والطبري وابن خلدون والسيوطي والمسعودي ١ : ١٥٨ وأبوالفداء ٢ : ١٨

(٣) أبو الفداء ٢ : ١٩

(٤) الأغاني ١٧ : ٤٧ والمسعودي .

وهذا كلام ضعيف لين ولكن قدره عظيم في ذلك الموضع والوقت (١) ،
ولم تقف هزيمتهم على هزيمة فقط بل كانوا يسمعون كثيرا من المعاقل والبلدان ،
فكان ذلك الفتح فتحا عظيما لا كفاء له . وهنأت الشعراء الرشيد قال أبو العتاهية
في ذلك (٢) :

قضى الله أن صفى لهرون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضيا

تحببت الدنيا لهرون بالرضا وأصبح تقفور لهرون ذميا

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قبل رغبوا في المسالمة والموادة ،
وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست أقول إن هذا الفوز
كان سهلا على الرشيد فإنه قد طوح من الرجال وأنفق من الأموال ما هو حقيق
بأن ينظر فيه ، فإن الروم أهل بأس ومراس شديد ، وهو يقاسى (٣) معهم الحروب
الصعاب ، ولم يكن في شأنه معهم حيلة ولا سياسة ، وإنما هي حروب تواصلت
تباعا وأخذ بعضها برقاب بعض لما يروم من نفوذ السلطان حتى يرتب عليهم
سيف الإسلام ، وإلا فإن الجزية التي يطمع فيها لا تبقى بالقليل من الأموال التي
تنفقها الدولة ، وهي بمكانها من الهجوم ومكان الروم من المدافعة في ظلال الأسوار ،
وفي ذلك تفاوت بعيد في خسائر القتال ، والذي يدل على قوة الإسلام أنه غزاهم
غزوات كثيرة ما أخفق في واحدة منها كما رأيت .

(١) الأغاني ١٧ : ٤٧

(٢) المسعودي ١ : ١٥٨

(٣) ذكر الأغاني ١ : ٣٨ أن الرشيد قال لاصحبي عقب قدومه من بلاد الروم أنشدني أحسن
ما قيل في رجل لوجه السفر فأشده قول عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضجى وأما بالعشى فيخضر

أخاسفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وفي العقد الفريد ٣ : ١٧٨ تكملة هذه الأبيات وهي قصيدة مشهورة يستحسن الطرفاء طريقة نظمها
لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين .

هذا كان شأن الرشيد مع صهْب السبال ، أما السياسة التي أتعبت خاطره فكانت منصرفة إلى إذلال العلويين في المغرب قبل أن تسود بهم الحال ، وتسود عندهم جموع الرجال . لأنه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم لتجاني عظماء دولته من أهل الرأي والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة إلا ضياع المال وضیعة الرجال ، ولذلك جعل الملك في إفريقية لآل ابن الأغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على الشرق كله ، فكأنه وقع بين أمرين مخوفين فاختر ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملك الأغلبة المغرب حتى إذا قامت دولتهم رسخت في مكانها ولم تتجاوز الرمال التي بين إفريقية ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب ، ولم يأل ابن الأغلب في مناوأتهم جهدا وهو لا يبلغ الغاية التي يرومها من إذلال ملكهم وتضييع نفوذهم في المسلمين ، لأن جندهم مطيع لهم فيما استقروا فيه من تلك الأقاليم ، وكلهم صادق الحملة مدرب على القتال ولا سيما قبائل صنهاجة من بطون حمير^(١) ، وهم أمنع الناس ذمارا ، وأبعد الفرسان مغارا . وذلك أمر طيب مني النفس لا بغضا في آل العباس لأنني لا أريد بهم مكروها ، وإنما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الانتجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم^(٢) كما يقول الفرزدق الشاعر في مديحهم . فلعمري إنهم أحق من الأغلبة بهذا الملك الذي أراه اليوم يثبت في أيديهم إلى ما شاء الله من الزمان لاتجاههم إلى غاية واحدة وسياسة راشدة ، فقد عرفت أن تمزقهم فيما مضى إنما حصل بتفرق دعائهم على أغراض لم تجع بينهم إلى الوحدة . وفيما تقدّم من الكلام عن أبي جعفر ما يبين لك أنهم لو لم يفتروا لظفروا . أما اليوم فإنهم مجتمعون إلى إدريس ابن إدريس وله دون غيره من أهل البيت «السلام عليك يا ابن رسول الله»^(٣) .

(١) ذكرهم ابن خلكان ١ : ١٢٢

(٢) الاغانى ١٤ : ٨٧ والالتلیدی ٥٤ والشبلنجی ١٧٠

(٣) ابن خرداذبة ٧٩

وإنما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بإيعاز البرامكة الأتجاد، وهم الآخذون بناصرهم والمتغرضون معهم^(١) والمقلدون الولايات لكثير من أهل الشيعة^(٢) إلا أنهم لا يتعمدون في ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته، لأن المغرب فيما يرون إذا انسلخ عن بغداد لا يُحدث في الخلافة ضررا لعظم الممالك الإسلامية، وإنما يضر التجزؤ بالدول إذا كانت الدولة منحصرة في إقليم غير متسع إلى طرف العالم وكان في جوارها أمة ثانية متغلبة فإنها تسطو عليها شيئا فشيئا إلى أن تلتهمها جملة واحدة، كما رأينا في سير الأمم الماضية، أما الخلافة الإسلامية فإن الجهاد في الأعاجم يعمل على استمرار ملكها ووقايتها، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك في أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل إليها فتحفظ خزائنها من إنفاق المال، ورجالها من تغرير القتال. وتبيت في شؤونها آمنة بحراستهم. اللهم إلا أن يكون فيهم من هو أشد سلطانا، وأكثر جنودا وأعوانا، وهذا بعيد عن أن يكون في دولة متجزئة من الخلافة، ولو انضمت جميعا إلى قيادة واحدة ما ناوت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلّة، حتى لقد يُحیی إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كمصر مثلا ما لا ينجي إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف.

فكان ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) يرون أن قيام الدولة العلوية في المغرب داع إلى صلاح الرشيد، وأنها تكون حجة للخلافة بما تجاهد لها في ردّ الأمم النصرانية.

(١) في تاريخ أبي الفداء ٢ : ١٢ أن الرشيد لما جهز الفضل بن يحيى إلى قتال يحيى بن عبد الله كتب إليه الفضل وبذل له الأمان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن إليه ويكرم وفادته عليه وفي ذلك دليل واضح على محبة البرامكة لأهل البيت. وذكر ابن الأثير أن الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين كان يتشيع وأن البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦ : ٧٠.

(٢) المحاضرة ٢ : ٨

وكان جعفر يقول لى إنه اولم يكن للرشيـد فى هذه البلاد النائـية إلاقضاة حاكـون
كما كان لملوك بنى أمية فى الأندلس ما ظهوروا على الفرنجة والـند بين أيديهم قليل ،
ولو أنه أثمنهم لاستنفدوا ماله ، أو استنصـهم لكانوا عليه لاله ، فيثبت بعد ذلك
أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيـد والمصاحـة على جميع المسلمين ،
لأنه إذا قامت دولتهم فى المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس فى يد المسلمين^(١) .
وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الفرنجة من البلدان التى فتـها طارق
ابن زياد والله يبيد أمما ويحيى أمما لا إله إلا هو ذو الملك والسلطان .

عمران بيت المال

لم يبق علينا بيان عظم دولة الرشيـد إلا أن نذكر قدر المال الذى يـمل إليه
من جميع الممالك والبلدان ، فإنه لم يسمع عن دخل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز
التـدر الذى يـمل إلى بيت المال فى زمانه ، مع أنه يسلك مع الملوك مسلك الحلم ،
ولا يضرب عليهم الخراج إلا على قدر ميـرتهم . وإن كان قد زال عنه القليل
مما يـمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية
التي غلب عليها الروم من الأموال التى لا يصح أخذها^(٢) من المسلمين كـخراج
والعشور التى تؤخذ على جميع غلاتهم^(٣) ، فقد بلغ المحمول إليه فى كل سنة نحو
من خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب ،
ما عدا الغلال والمصنوعات كما ستراه . فـمل الناس كثرة هذا المحمول على أن
يعدوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولوا إنه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب^(٤) ،

(١) نذكر هنا أنه قامت فى المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التى فتحت الفتوح وأعزت

الاسلام .

(٢) ابن جبـر ٧٦

(٣) الزرقاوى .

(٤) مقدمة ابن خلدون .

إلا أن ذلك غلو وإفراط في تعظيم الشيء ، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار . ويبعد أن يكون في العالم ألفا ألف دينار من الذهب ، ولو جاز وجودها ما صح أن تحمل كلها إلى بيت المال ولا يبقى منها شيء في أيدي الناس لمعاملاتهم . وتقديرهم هذا وإن كان بعيدا عن الصحة يدل على الكثرة وأن المال يحمل إلى بغداد بالصُّبر^(١) لوفور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصفه إلى خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بني العباس ، ولا يبعد أن عمالهم كانوا يحجزون من مال الجزية قدرا لا يحملونه إليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهما تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصنائع وأهل الحرف واثني عشر درهما من ذوى الفاقة والإعسار^(٢) : دون أن يكون في الدواوين عمل لذلك . ولما قام وزيرنا^(٣) ، أيدته الله بأعباء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يقرر الدخل في السجل من قبل أن يحصل في يديه ، فلم يبق سبيل إلى نقص الأموال إلا فيما يؤخذ من المكوس على السلع وما يتصرف به العمال من نفقات^(٤) ولاياتهم وليس هو إلا القليل في جانب الكثير من دخل الدولة .

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شيء من الزيادة والنقصان بتقل البلاد من حال إلى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل فقد كان حاصل السواد وهو أرض^(٥) ما بين الموصل وعبادان في الطول وما بين عذيب بالقادسية

(١) القزويني ١٠

(٢) المقرئ والمتطرف ١ : ١٣٨

(٣) هو جعفر بن يحيى البرمكي .

(٤) ذكره المقرئ ٢ : ٢٧

(٥) المأوردى ١٩٩

إلى حُلوان في العرض عشرين ألف ألف درهم في زمن المجاج (١) لكثرة الظلم ، فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران (٢) حتى صار يحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم . وكان حاصل فارس وأصبهان وكرمان في عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعد ما جباها عمرو ابن العاص في زمن الخيراتي عشر ألف ألف دينار » (٣) تدلّ إلى ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال فلما تولّاها البرامكة جباوا منها للرشيد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ، (٤) واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم .

ويحمل إلى بغداد غير هذه الأموال المقررة والغلال الكافية لأرزاق الجند وعلف خيلهم قدر من المصنوعات والغلات التي تكون في البلدان ، فيحمل من السواد مائتا حلة من الحلل النجرائية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الأحمر الذي يطبع به على طرف الرسائل السلطانية ، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألف رطل من السكر ، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد ، ومن أصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب الأسود . ومن مكران خمسمائة ثوب من المتاع ايماني وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون ، ومن السند مائة وخمسون رطلا من العود الهندي ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلاثمائة ثوب ، ومن خراسان ألفا نقرة من نقار الفضة وأربعة آلاف برذون وألف رأس من الرقيق يتخذون خدما في دور الخلافة ، ويكون لأمرأى بنى هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم ، وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلاثون ألف رطل من الإهليج وألف وثلاثمائة قطعة من صفائح الحديد ، ومن جرجان ألف شقة من الإبريسم . ومن قومس خمسمائة نقرة من نقار الفضة . ومن طبرستان ونهاوند ستمائة

(١) المستطرف وابن خرداذبة ٣٦

(٢) المستطرف ١ : ١٢٥

(٣) المقریزی ١ : ٩٨

قطعة من الفرش الطبرى ومائتا كسوة وخمسمائة ثوب وثلاثمائة ألف منديل وثلاثمائة جام . ومن الرى وقزوين عشرون ألف رطل من العسل ، ومن همذان ألف رطل من ربّ الرمان واثناعشر ألف رطل من التين ، ومن الموصل وما إليها وأعمال نينوى عشرون ألف رطل من العسل الأبيض . ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثناعشر ألف زق من العسل وعشرة بزة مرباة لصيد الملوك وعشرون كسوة من الحرير للبيت الحرام ، ومن أرمينية قدر من البسط ومن قنسرین والجند ألف حمل من الزيت ، ومن جند فلسطين ودمشق قدر كبير من الفاكهة اليابسة وثلاثمائة ألف رطل من الزيت ، ومن إفريقية مائة وعشرون بساطا ، ومن اليمن شئ كثير من المتاع ، وكذلك من نجد وعمّان واليامة والحجاز وكنكور وحلوان ومِهران وشهرزور وأذربيجان ومصر وجند الأردن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التى تصرف على الجند وتتفق فى مصالح الدولة ^(١) .

وهذا المال كله يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة إلا فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين للوازنة بين دخل الدولة ونخرجها . وقد تجمع كثيره فى بيت المال منذ صدر هذه الدولة حتى إن أبا جعفر (غفر الله له) لما أدركه الموت قال للهدى فى وصيته إنه خلف له من الأموال ما إن كسر عليه الخراج عشر سنين كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك ^(٢) ولقد أخبرنى يحيى (أعزه الله) عن خالد أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ما خلف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم ، ^(٣) فلولم يكن إلا هذا فى خزائن الرشيد ^(٤) لكفى دولته نفرا على دول الخلفاء ، وبهاء ليس مثله من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المنعة لأنه مادام بيت مالها

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن خرداذبة .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧

(٣) المسعودى ٢ : ١٩٤

(٤) ذكر ابن الأثير ٦ : ٧٦ أنه كان فى بيت المال لما توفى الرشيد ستمائة ألف ألف ونيف .

عامرا فلا تزال ممتنعة على العدو ، وأما البهاء فيأتيها من المال وإنفاقه في الوجوه التي ترفع الدولة وفيما يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون في نعيم العيش إلى تزيين دولهم برواج الأدب كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء إليه وانتفاعه بعلمهم في دينه ودنياه .

مجلس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه (رحمه الله) ثم يميزهم على موضعهم من العلم بما لا ديكاً يحصى من الجوائز ، وإن الذي كنت أرتاح إلى شهوده من المجالس بداره إذا حضر وقته هو مجلس الغناء ، على أنى لم أره في السنين الماضية أحفل منه في هذه السنة ، وكان الرشيد قد نشط له وقام بلبسته التي يلبسها في الصيف ، وهي غلالة ^(١) رقيقة يتوشع عليها بازار رشيدى عريض العلم مضرج ، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنائير ^(٢) يميز بها من يطيب منه المسموع وتصلح عنده الصنعة ، ومن حوله جماعة من بني هاشم والفضل وجعفر من البرامكة (أعزهم الله) ، وهما جالسان بجانبه على سرير الخلافة .

ولما اجتمع المغنون جلسوا في صفوفهم بناحتين من المجلس للمناظرة ^(٣) بينهم في الغناء . فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة إسحق النديم ، ومنهم المقصرون عن أدائه والمغنيون له وهم جماعة إبراهيم بن المهدي . وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم وإسحق أن إبراهيم تغنى بلحن قديم أضاع صناعته فرد عليه إسحق وعاب عليه تغييره فقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا في ذلك فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ويحيى المكي وعمرو

(١) ذكرها الأغاني ٥ : ٣٣

(٢) الأغاني ٩ : ٥٨

(٣) ذكر هذه المناظرة الأغاني ٥ : ٢٦ بين الموصلي وابن جامع .

ابن بانة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن محرز والهذلي وغيرهم ، وبقى مع الموصل المترفعون عن الأغراض والآخذون بحسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مُحَارِق وعلوية وعريب وبذل وسليم بن سلام وزبير بن دحمان وأحمد بن يحيى المكي ومحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم ^(١) وكان قوم إبراهيم بن المهدي قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثر عددا من حزب إسحق ، لأنهم كانوا يتقربون بكفالاته إلى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر إسحق وجهروا بتفضيله رجع إلى غرضه كثير من المجيدين ، ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعون ، فلم يكن من مفسد له إلا الذين تقدمت أسمائهم وجماعة من أولاد العباسيين مثل إبراهيم وأخيه يعقوب وأختها عليّة وعبد الله بن الهادي وعيسى بن الرشيد وغيرهم ^(٢) ممن يترفعون عن أن يقيد غنائهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة . فهذا إبراهيم ليس في الناس أعلم منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبع على الغناء . ولقد رأيته إذا غنى يجلس الرشيد قُرب كل من في دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعه فيه لحسن صوته ، وقليل ما كانوا يسمعون إذ كان لا يغني إلا على حال تصون عن الغناء وترفع إلا أن يدعوه إليه الرشيد في خلوة أو إذا كان عنده جعفر فيقول له أحب أن تشرف جعفر ^(٣)

(١) من كتاب الأغاني .

(٢) انظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء في الكتاب التاسع من الأغاني .

(٣) كذا في كتاب الأغاني وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحببا لأخيه وهي «لا تنقص من قدر جعفر شيئا» فقد ذكر صاحب العقد ١ : ١٠٠ أن منزله كانت عظيمة حتى إذا دعا إبراهيم بن المهدي لجعفر قال له إبراهيم جعلني الله فداك إنما أسعد بمساعدتك وآس بخالاتك وأعاد القصة نفسها في الكتاب الثالث صفحة ٣٤ وذكر في الكتاب الأول صفحة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبي أنت ما دعاك إلى أن تحمل عبدك هذه المنة التي لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢ : ٢٢٧ عن مسارة الرشيد لجعفر أنه كان إذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعا له .

بأن تغنيه صوتا فيغنى . ولقد كنت ذات يوم في خدمة أميرنا (أعزه الله) فغنى إبراهيم على أبيات لمروان بن أبي حفصة يقول فيها (١) :

طرقتك زائرة ففى خيالها زهراء تخاطب بالجمال دلالها
هل تطمسون من السماء نجومها بأ كفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقلها

فلما بلغ قوله « جبريل بلغها النبي فقلها » هنز حلقه فيه ورجعه ترجيعا
زُملت الأرض منه ، فما أظن أحدا يقدر على أداء الأصوات مثله إلا إسحق
المخالف له على هواه والمقربا له من جميل الصناعة لولا أنه أفسد الغناء القديم وجعل
للناس طريقا إلى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى في ذلك اليوم إبراهيم أبو اسحق وكان ذلك بإشارة مسرور العبد
إذ كان أمر المغنين مفوضا إليه (٢) ، وإذا أحب الرشيد أن يسمع صوتا (٣)
أشار إليه فأشار هو إلى المغنين فغنى إبراهيم :

ولى كبد مقروحة من يديغنى بها كبد ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح
واللحن فيه ماخورى (٤) لا يعرفه أحد مثله . ثم غنى على أبيات قالها
في بعض قرى الرى :

أنا فى الرىّ مقيم فى قرى الرى أهيم
ربما نهنى الاخ وان والليل بهيم
حين غارت وتدلّت فى مهاويها النجوم
للىّ تعصر لما أينعت منها الكروم

(١) الأغانى ٩ : ٧٢ والاتليدى ٢٨٧

(٢) الأغانى ٦ : ٧٤ والمسعودى ٢ : ٢١٩

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٤٢

(٤) الأغانى ٥ : ٣٦

ولحنها من الثقيل الأول باطلاق الوتر في مجرى البنصر^(١) ثم غنى :
ألا يا سلمى يادار مى على البلى ولا زال منها بجرعائك القطر

الشعر لذى الرمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثانى^(٢) . ثم غنى :
وقفت على ربع لمية ناقتى فازلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبته تكلمنى أحجاره وملاعبه

الشعر لذى الرمة أيضا والغناء ثانى ثقيل مطلق فى مجرى البنصر^(٣) ، فأجاد
إبراهيم حتى كأن كل ما فى المجلس يحييه ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، فطرب
الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما فى شعر ذى الرمة
لأنه كان يحفظ أبياته كلها فى صباه ، فكان إذا غنى فيها صوت أعجبه أكثر من
جميع الأصوات التى يصنعها المغنون فيما لا يحفظه من الشعر ، ففطن إبراهيم لذلك
وطاب إليه أن يقطع شعر ذى الرمة ويحفظ على غيره من المغنين أن يداخلوه فيه
فأجابه إلى ذلك فأصاب إبراهيم عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير^(٤) .

ثم أشار مسرور إلى إسماعيل بن جامع القرشى وهو من المتعصبين على
إسحق فغنى :

لم تمش ميلا ولم تركب على قتب ولم تر الشمس إلا دونها الكلال
تمشى الهوينى كأن الريح ترجعها مشى اليعافير فى جيئاتها الوهل

الشعر للآعشى^(٥) والغناء الأول لابن سريج بلحن الرمل بالبنصر^(٦) ثم غنى
بلحن خفيف الثقيل الأول بالوسطى^(٧) على أبيات عمر بن أبى ربيعة :

(١) الأغانى ١ : ٢

(٢) الأغانى ٥ : ٣٩

(٣) الأغانى ١٦ : ١١٦

(٤) الأغانى فى الجزء الخامس .

(٥) العقد الفريد ٣ : ١٧٣

(٦) الأغانى ٦ : ٨٢

(٧) الأغانى ٦ : ٨٢

كان أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبة العينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أملّ ولا توفى المواعيدا
كاننى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يتغنى ما ليس موجودا
ثم غنى بلحن الهزج بالوسطى^(١) على هذين البيتين :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سراحا وما يغشى لنا النوم أعينا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب^(٢) ممن يحب الخلاعة فى الأصوات ،
فهو يميل إلى ظُرف الغناء والنغم الكثير العمل^(٣) كما يميل إلى ظُرف المعاشرة
والافتنان فى خلاعة الملبس^(٤) .

ثم أشار صاحب الستارة إلى إسحق بن إبراهيم صاحب هذا الفن بقاء غلام
من غلمان الدار يعود هندى^(٥) كان مودعا له فى خزانة المجلس^(٦) قد أصابحت
أوتاره قبل ذلك الوقت ، لأن العيدان لا تصلح فى مجالس الملوك^(٧) ، فضرب
عليه نغماتٍ صاح لأجلها القوم جميعا ثم غنى :

قل لمن صدعائبى ونأى عنك جانبى
قد بلغت الذى أردت وإن كنت لاعيبا

(١) الأغانى ٦ : ٧٧ و ٨٢

(٢) المستطرف ٣ : ١٨٨ والأغانى ٤ : ٩٨ و ٦٥

(٣) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ وقال إنه أحلى المغنين نعمة .

(٤) الأغانى ٦ : ٩٦

(٥) ذكر العود الهندى الاتليدى ١٣٠

(٦) الأغانى ٥ : ١٠٩

(٧) الأغانى ٥ : ٥٨

الشعر والغناء له ولحنه من الثقيل الثانى بالسبابة فى مجرى الوسطى (١) ، ثم غنى بلحن وضعه معبد فى أبيات لأبى صخر الهذلي (٢) . وهى :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعذك الحشر
ولمى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فطرب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوان من غنائك ، وأبو صفوان كنية يلقبها عند التعجب (٣) ، فغنى بهذين البيتين :

الطلول الدوارس فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها فهى قفر بسابس

غنائاً لم أجد أحسن منه موقعاً فى القلوب ، وكنت فى ذلك الوقت جالسا بمقربة من أبيه فقال " لو لم يكن من بدائع إسحق غير هذا لكفى . « الطلول الدوارس » كلمتان و « فارقتها الأوانس » كلمتان أيضاً وقد غنى فيهما استهلالاً وصاح وسمع ورجع النعمة واستوفى ذلك كله فى أربع كلمات وأتى بالباقي مثله . فمن شاء فليفعل مثل هذا أو ليقاربه " . ثم قال " والله ما فى زماننا فوق ابن سريج والغريض ومعبد ، ولو عاشوا حتى رأوه لعرفوا فضله واعترفوا له " (٤) والغناء

(١) الأغاني ٥ : ٧٥ و ١٢٦ و ٩ : ٥٤ و ٥٧ والشرشى ١ : ٣١٢

(٢) الأغاني ٥ : ١٦ والوطواط ٩٠ والالتهدى ١٤٣

(٣) الأغاني ٥ : ٥٢

(٤) الأغاني ٥ : ٨٧ و ١٢٨

لاستحق خفيف بالينصر . ثم وجد في نفس الرشيد إقبالا عليه وطربا من صناعته
فغنى لحنا صنعه في شعر للنخل اليشكري يقوله في بعض بنات الملوك المناذرة ^(١) :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
فدفعتها فتدافعت مشى القطة إلى الغدير
فلثمتها فتتنفست كتتنفس الظبي الغرير

فأجاد في الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة
الطرب « والله ما الغناء الذي يلين العريكة ويُفسح في الرأي والصدر ويُحدث
في النفس طربا إلا غناء هذا الرجل » :

ثم أشير إلى فليح بن أبي العوراء فغنى على لحن صنعه في بيتين لعدي بن الرقاع
العامل ^(٢) :

وكانها بين النساء أعارها عينه أحور من جاذر جاسم
وسنان أقعده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الأول بإطلاق الوتر في مجرى الينصر صنعه ^(٣)
في بيتين للمؤمل من شعراء الدولة الأموية :

ألا يا ظيعة البلد براني طول ذا الكد
فردى يا معذبتى فؤادى أوخذى جسدى ^(٤)

(١) الأغاني ٩ : ١٦٦ و ١٨ : ١٥٢

(٢) المستطرف والشرطي ٢ : ٢٨٠

(٣) الأغاني ١٩ : ١٤٧

(٤) في قول الشيخ ابن الفارض :

أخذتم فؤادى وهو بعضى فإلذى يضركم لو كانت عندهم الكل

النفات إلى هذا البيت .

وهو يعارض فيه اللحن الذى صنعه أبو إسحق فأجاد ولكنه قصر عن أن ينحو نحو صناعة الموصلى ، وإن كان قد مضى فى بعض كتبى السالفة ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة^(١) ، إلا أنه قد وجد اليوم من برعه وبرع الناس كلهم^(٢) فى طيب المسموع ومحاسن الصنعة .

ثم أشير إلى مخارق^(٣) من حزب إسحق ، وهو طيب الصوت يعد هو وإبراهيم ابن المهدي وابن جامع وعمر بن أبي الكنات من أحسن الناس صوتا^(٤) فغنى بصوت رخيم :

يا ربع سلمى لقد هيجت لى طربا زدت الفؤاد على علاته وصبا

فكنت أحسب أن الدنيا قد صارت أحرانا^(٥) لما ألم فى غنائه من إبراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ، ثم غنى :

إنى استحييتك أن أفوه بحاجتى فإذا قرأت صحيفتى فتفهمنى^(٦)
وعليك عهد الله إن أخبرته أحدا وإن أظهرته بتكلم

الشعر لابن هرمة والغناء لعبادل من مغنى الجحاز ، ثم غنى :

فبت فيما شئت من نعمة يمنحنيها نحرها والفسم
حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمُرزم
خرجت والوط خفى كما ينساب من مكنه الأرقم

الشعر لاسماعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل^(٧) .

(١) ذكر مثل هذا الأغاني ٤ : ٩٨ ، ٩٩

(٢) الأغاني : وابن خلكان واللاتيلذى وحلبة الكيت .

(٣) ضبطه ابن خلكان ١ : ١١ بضم الميم .

(٤) الأغاني ٩ : ٣٥

(٥) الأغاني ٢ : ١٨٩

(٦) الشعر مذكور فى الحصرى ٢ : ١٨٣

(٧) الأغاني ٤ : ١٢٣

ثم غنى يحيى المكي بلحن صنعه في بيتين لمحمد بن أمية من كتاب إبراهيم
ابن المهدي (١) :

أحبك حبا لو يفيض يسيره على الناس مات الناس من شدة الحب
وأعلم أنى بعد ذلك مقصر لأنك فى أعلى المراتب من قلبى
ثم غنى بلحن خفيف الرمل (٢) :

طرقك زينب والمزار بعيد بمنى ونحن معرسون هجود
فكأنما طرقك برىا روضة أنف تسحسح منىها وتجود

فكان لحنه كثير العمل حلو النغم صحيح القسمة محكم الصنعة ولولا ذلك ما أطرب
الناس غناؤه وهو شيخ مسن :

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحق (٣) :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمت صرمى فأجمل
اغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ثم غنى (٤) :

أتيتك عائذا بك منك لما ضاقت الحيل
وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل
فان سلمت لكم نفسى فما لا قيته جل
وإن قتل الهوى رجلا فانى ذلك الرجل

(١) الأغاني ١١ : ٢٤

(٢) الأغاني ٦ : ٢١

(٣) ذكر المسعودى ٢ : ٢٩٦ غناء بهذين البيتين •

(٤) الأغاني ١٨ : ٨٣

الشعر لمحمد بن أبي محمد اليزيدي ويكنى أبا عبد الله ، والغناء له ثقيل أول
بالبنصر إلى أن قال :

وقفت على ربع لسلمى وعبرتي تَرَقُّقٌ في العينين ثم تسيل
أسائل ربعا قد تعفت رسومه عليه لأصناف الرياح ذيول
واللحن له هزج خفيف بالسبابة^(١) فطرب الرشيد وقال لو كنت حَمَمًا الوادئ
ما زدت على هذا الاحسان في هزجك^(٢) .

ثم غنى حسين بن محرز بلحن صنعه يحيى^(٣) المقدم ذكره في هذين البيتين :
هل هيجتك مغاني الحى والدور فاشتقت إن الغريب الدار معذور
وهل يحل بنا إذ عيشنا أنقُ بيض أوانس أمثال الدُمى حور
ثم غنى :

خمس دسسن إلى في لطف حُورُ العيوض نواعم زُهر
فطرقتهن مع الجرى وقد نام الرقيب وحلق النسر

الشعر للأحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر^(٤) ، فأجاد لكنه
لم تظهر له صناعة يسموها إلى مقامات المتقدمين في الغناء ، وكذلك جميع من غنى
بعده في ذلك اليوم إلا الزبير بن دحمان فأنى وجدت لغنائه موقعا حسنا في النفوس
وكننت أرى الرشيد يتمايل طربا من غنائه إذ غناه :

رضيت الهوى إذ حل بي متخيرا نديما وما غيري له من ينادمه
أعاطيه كأس الصبر بيني وبينه يقاسمها مرة وأقاسمه

(١) الأغاني ٦ : ١٢

(٢) الأغاني ٦ : ١٣

(٣) الأغاني ٦ : ١٩

(٤) الأغاني ١٦ : ٩٢

الشعر لبشار بن برد والغناء له هزج بالوسطى (١) ثم غنى :

أسرى بطارقة الخيال وما أرى شيئا ألد من الخيال الطارق (٢)
أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل مذ بنت قلابي كالجناح الخافق (٣)

الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رمل بالوسطى ثم غنى :

حييا خولة منى بالسلام درة البحر ومصباح الظلام
لا يكن وعدك برقاً خلباً كاذباً يجمع في عرض الغمام
واذكرى الوعد الذى واعدتنا ليلة النصف من الشهر الحرام

الشعر لأعشى همدان والغناء لأحمد النصيبى ولحنه من القدر الأوسط من
الثقل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البنصر وعروضه من الرمل (٤) فأجاد فى هذا
الصوت الإجادة التامة حتى ليس فى المغنين من يقاربه بلحن الثقل .

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات فى نوباتهم فلم أستحسن منها إلا صوتاً
لعبير صنعته فى بيتين لابن الدميثة (٥) :

وأذكر أيام الحمى ثم أنتنى على كبدى من خشية ان تصدعا
وليس عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا (٦)

(١) الأغاني ١٧ : ٧٣

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦

(٣) الأغاني ٩ : ٥٠

(٤) الأغاني ٥ : ١٤٦

(٥) الأغاني .

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٤٠

ولحنا واحدا صنعه في شعر وضاح التين :

إن الوشاة إذا أتو ك تنصيحوا ونهوك عن
إني تبيجنى اليك حمامتان على فنن
فاسقى خليلك من شرا ب لم يكدره للدرن
الريح ريح سفرجل والطعم طعم سلاف دن

حتى إذا ظن في نفسه اقتدارا على الصناعة وأراد أن يعارض إسحق باللحن
الذى صنعه في شعر العباس بن الأحنف وهو :

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى
كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

سقط في يده وقصر دون بلوغ المرام . وكان في جملة المغنين رجل أعمى يقال
له أبو زكار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخر من غنى في ذلك اليوم بدأ
بلحن صنعه في هذا البيت :

يا راكب العيس التي وفدت إلى البلد الحرام
وثني بأخر لآبراهيم الموصلى صنعه في بيتين لعمر بن أبي ربيعة ^(١) وهما
قوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفقت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن تغنى بهذه الأبيات :

با أيها القلب المطيع الهوى أتى اترك الطرب النازح
تذكر جملا فاذا ما نأت طار شعاعا قلبك الطامح

(١) الأغاني ٦ : ١٥٠ . وذكر ابن خلدون في المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوغر صدره
على البرامكة . وقد أترك ذلك ١٥

هَلَّا تنَاهَيْتِ وَكُنْتِ امْرَأً يَزْجُرُكَ الْمُرْشِدُ وَالنَّاصِحُ
مَا لَكَ لَا تَتْرِكُ جَهْلَ الصَّبَا وَقَدْ عَلَاكَ الشَّمَطُ الْوَاضِعُ

ولحنها ثانی ثقیل بالسبابة فی مجرى الوسطی^(١) فأحسن کل الإحسان
فی تأدیة النغم كأنه لا تظهر صناعته إلا بغناء ما فی معناه زجروتذکیر من
الأبیات^(٢) .

ولما تولى النهار اوما الرشید إلى المغنین بأن یحلوا صفوفهم ، ثم فرق فیهم
الجوائز بقدر أهلیتهم من الصنعة ، فمن مصیب ألف دینار ومن مصیب خمسمائة ،
ومن مصیب دون ذلك . ثم فرق فیمن یتخلل الغناء بضرب المعازف دون ما فرقه
على المغنین من المال ، فأصاب الجوائز السنية أربعة منهم وهم منصور زلزل^(٣)
وكان یضرب على عود من العیدان التي صنعها معارضة لعیدان الفرس وهی عجب
من العجب^(٤) ، وكانما ترتل المجالس بحسن نغمها^(٥) ، وبرصوم الزامر^(٦) وهو
أحسن الناس زمرا بنائی ، كان إذا زمر فیہ یحدث النغم الذى یریده مع صحة
المقاطیع والتقسیمات حتى كأنه ینطق بین یدیه بلسان آدمی . وجعفر الطبال وهو

(١) الأغانی ولكن لم یدکر لانی زکار صناعة بها .

(٢) انما نسبت لانی زکار صناعة النغم الحزن لانی طالما ذكرت البیتین اللذین غنى بهما جعفر قبل
أن ینکبه الرشید وهما قوله :

فلا تبعد فکل فتی سیأتی علیه الموت یطرق أو بغادی
وکل ذخیره لا بد یوما وإن کرمت تصیر إلى نقاد

فلم یتأمل لی صناعته إلا بمثل ما ذکرته لك بلسان الروایة .

(٣) ذکر صاحب العقد ٣ : ٢٣٩ انه مغم من الطبقة الثانية ولكنه قال بعد ذلك إنه كان

أضرب الناس للوتر .

(٤) الأغانی ٥ : ٢٤

(٥) ابن خلکان ١ : ١١

(٦) ذكره الأغانی ٦ : ١٢ فی غیر موضع والعقد الفريد ٣ : ٢٥٩ وقال إنه كان مغنيا .

يحسن التوقيع على الطبل (١) وكان يضرب بالكوبة (٢) في ذلك اليوم ، ورابعهم الغريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والتقر على الدف (٣) . ولما انصرف المغنون لم يبق في مجلس الخليفة إلا إسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة وقد طلع علينا من هواء دجلة في ذلك الوقت نسيم طابت النفوس به انتعاشا بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرها ، حتى إذا رفعت أستار الطيقان التي تطل على حدائق القصر وقعت في موضعنا شمس الغروب وهي ترسل علينا شعاعا متناثرا كالذهب يهتر في نواحي المجلس كاهتزاز الغصن الرطيب تحت خطوات النسيم حتى كان القصر يرقص بنا سرورا بأهله وعزرة مقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلا المحفوظ في ذهني من غنائهم مجردا عن بيان طرائقهم في الأصوات وصناعاتهم في وضع النغات ، لأنني لو أخذت في ذلك ما وعته الصحف الكثيرة الواسعة (٤) . وقد وقع تدوين هذه الرسالة في غرة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية .

(١) الأغاني ١٤ : ٥٤

(٢) ذكرها القناوي ٢١

(٣) الأغاني ٢ : ١٢٩

(٤) راجع كتاب الأغاني إن شئت فيها مطولا

الرسالة السابعة

في ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردتها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاوره فقهاء ، وحلق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليين ، ومراواة رواة ، ونوب مغنين^(١) . وذلك من الخطوط التي لا يتفق مثلها لغيري من المتصلين بالملوك ، لأنني كنت أقرب الناس مكانا إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الخطوة لديه بحيث إذا جلست إلى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع إلى محاسن المنادمة من إطلاق النفس على صفاء الإخوان ، فكان يعمد إلى مخدة^(٢) يجعلها تحت فخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول هلم بمحدثك^(٣) ، وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء . وكنت إذا انفردت يجلسه دون أحد من المقربين إليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكالات بالأزهار^(٤) منينات باللؤلؤ والزبرجد^(٥) وأخفر أنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهي إلى هُدًى من الليل ، فإذا أتاه من الحرم^(٦)

(١) واحدا نوبة وقد ذكرها الأغاني ٢٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون

اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب .

(٢) الأغاني ٥ : ١٢٢

(٣) الاتليدي ١١١

(٤) الأغاني ٧ : ٣٦

(٥) الأغاني ٤ : ٦٢

(٦) المسعودي ٢ : ٥٦

التفاح (١) المنقوش المطيب (٢) وغيره من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم على أن
أجلس الى طعامه (٣) ، وكان يجب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم لما
طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من
الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيرا وصلاحا ، وينعم فيها العلم وروحا واسترواحا .
حتى اذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداءه حقق لهم جميل
أملهم فيه ، وبسط يده لإقطاعهم الضياع العامرة ، واصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ،
بعد أن رأى جعفر وزيره ينتاع من صحفهم ما يأمر الترجمة بتعريبه (٤) ثم يعطيهم
زنة الكتاب المعرب ذهباً ، لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة (٥) (أعزهم الله)
وهم الذين استهزؤا همم العلماء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل
الكاغد لنسخ أسفارهم ، وود رأوا الرقوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل
السلطان لا تكفيهم في تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فرأوا من عمل الكاغد (٦)
ذريعة إلى نشر العلم الذي عنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا إلى انتفاع الأمة
به الا سلكوه ، وقد أعقبهم هذا المسلك نفرا تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأحداث
فسداهم الرشيد على ذلك ، وفي نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع
على كنوز الحكمة ما قد رأيت في كتب السالفة إليك ، فأنفذ رسله في إحراز
الأسفار القديمة ، وكتب بأشخاص الترجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم

(١) وجدت في بعض الكتب أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكهة لأنه اجتمع
فيه بياض الفضة ولون التبر ويلذ به من الحواس العين بهيجته والأنف بريحه والفم بطعمه . العقد الفريد
٣٧٥ : ٣

(٢) الأغاني ١١ : ٣٥

(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠ والقناوى ٣٦

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٣٦

(٥) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه .

(٦) لمقدمة ٣٦٨

من أمم النصرانية ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التي تفهمهما العامة وترضى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هذه الأسفار مهروا في استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها ^(١) ، فرقوا من الأدب المقام الذي لم ترقه أمة قبلهم في المشرق . وهذا من الأمور التي تدل على ذكاء العرب ^(٢) ونبيل الهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التي يرومونها من جميع المطالب في برهة يسيرة من الزمان ، فإنا لانجد في أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عندما صار الأمر إلى بني أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا الأعاجم ساطانهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالا . وما مثلهم في سرعة هذه الفتوح إلا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذي ينطق بما عندهم من الهمة والفتانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحا ^(٣) أصابو الرأي بالزيادة فيه بعد البحث والتحصيل ^(٤) ، وذلك غير ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعلم في خلافة أبي جعفر ^(٥) لأنه كان يعزز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتابة

(١) راجع المقدمة وكتاب حاجي خليفة .

(٢) المسعودي ١ : ٢٣٦

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٩٢

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٦٣

(٥) السيوطي وأبو الفرج ٢٤٦

أن يدونوا الأسفار الكثيرة لإذاعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معروفا عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذى وضعه الله تعالى فى صدورهم وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود ، فلما جاءت هذه الأيام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعيم بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التى وقعت فى صدر هذه الدولة وجهوا همهم إلى النظر فى فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم ، فكتبوا فى جميع فروعه وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة عهد بال عمران ما وجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب . وإنى أذكر أن الرشيد لما ركب إلى الرقة فى بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقا من أسفارهم^(١) ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها إلا نخبة مما فى خزائنه وقد وجدت فى قصر بناه بالقاطول ليخرج إليه للتنزه^(٢) خزانة كتب تحتوى على أكثر من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهدا على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التى دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

الطب والأطباء

كان أبو جعفر (غفر الله له) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم فبنى لتعليمه حلقة كبيرة فؤض أمرها إلى طبيب أعجمى يقال له « فرات بن شحنا » وهو من تلاميذ تياذوق^(٣) الذى كان طبيبا بدار الجحاج أمير العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصارى^(٤) دون المسلمين ولست أحسب السبب فى إعراضهم عن هذا العلم إلا ظنهم كفاية ما لديهم من المجرّبات التى توارثوها من مشيخة الحى

(١) الأغانى ٥ : ٦٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦٦

(٣) أبو الفرج ٢٠٠

(٤) فى الأغانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين .

وعدم حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة في كسب الرزق وترفعهم عنها كغيرها أنفة .
وذلك خطأ عليهم شئنه وخسرانه ، إذ قد خلت منهم في دور الخلافة مراتب
اسندت إلى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم في هذا العلم وعزبوا كتب جالينوس
وأبقراط من حكام اليونان وأضافوا إليها كثيرا مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم
على مقالات ارسبخاس^(١) وديمقراطيس^(٢) وغيرهما من العلماء الذين يرجع إلى
كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مُظْهِرُ الطِّبِّ في النصرانية رجل يقال له ماسويه أبو حنا وكان أميا
لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالت به المراتبة لا والتجربة
فيه إلى أن بلغ منه المكان الذي لا يدفع ، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا
فتخرجوا عليه في علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل بن يحنثيشوع فبرعوه في شفاء
الأمراض .

فأما يوحنا فإنه صار طبيبا بدار الخلافة ودون رسالة طويلة أودعها ما عرض
له من التجربة في معالجة أهل السقام ، واتخذ مجاسا أفرده للنظر في استنباط طرق
العلاج باجتماع الرأي مع غيره من الأطباء ، وكان الرشيد قد ولاه ترجمة الكتب^(٣)
التي وصلت إليه من مدونات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما
فأحسن تعريبها كل الإحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التي نال منها مشقة
عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التي عزبت في خلافة المهدي وأبى جمفر فإنها
لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها ، إذ كانت عارية من القواعد التي
وضعها الحكماء وليست تحوى سوى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من
الأطباء ، وكانت إلى الجهل والخرافة أقرب منها إلى العلم والحقيقة ، فلم يجد التراجمة

(١) المسعودى ١ : ٩٢

(٢) حاجى خليفة ٣ : ١٢١

(٣) أبو الفرج ١٣٧

في تعريبها عناء يجهد النفس . أما الكتب التي عربها ابن ماسويه فإنها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفسه .

وأما جبريل بن بختيشوع فإنه تنجر في جميع العلوم الداخلة في علم الطب ، وكتب في حياة الحيوان رسائل^(١) تدل على سعة اطلاعه ، وكان جعفر^(٢) (أعزه الله) شديد الحب له والاحتفاظ به حرصا على ما وسع صدره من العلوم ، فقربه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذ في دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدما^(٣) من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يشير به من هذا العلم حملهم على الإعراض عن الدجالين ، وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخرف منهم فيزعمون أنهم يَطْبُون الناس بالمواعظ^(٤) يملكون أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخرافة ، فوفق بعلمه إلى بلوغ الغاية التي رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تमित الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية من الأطباء كلهم من أمة النصرانية إلا عيسى أباقريش الصيدلانى ، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشر الخيزران في خلافة أبى جعفر بأنها تحمل مولودا ذكرا يصير إليه أمر الأمة ، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاما أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيبا في دار الخلافة^(٥) ، وقد سمعت من يقول إن الخيزران إنما قربته لمهارته في المجامة لا في الطب ، فإن صحت الرواية كان

(١) حاجى خليفة ٤ : ١٢٥

(٢) أبو الفرج ٢٣٥

(٣) أبو الفرج ٢٣٨

(٤) المسعودى ٢ : ٥٨

(٥) أبو الفرج ٢٩

عندى أحق بالثقة به حجما منه بالثقة به طبيبا ، إذ لست أثق من الطب إلا بما يحفظ الصحة للصحيح ، أما وسائل العلاج التي يزعمون أنها تبعد العلة عن العليل بعد تمكنها منه فما أنا من الثقة بها على شيء ، لأني أحسبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة ، وطالما وجدت للأطباء في العلة الواحدة آراء متباينة ، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف في الأمر الواحد لا يطابق الحق فيه إلا وجه واحد أما الحجة فإنها على خلاف ذلك ، والرأي فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله ، وإني وإن كنت على بعد من الطب لا أجد بدا من الإقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركبات العقاقير التي لم يسبق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، ولا غرو فإن للطب صناعة لا تبلغ أمانة منها إلا على طول التجربة والاختبار في المراتبة والممارسة ، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة ، وقد قال علي عليه السلام (١) :

ألا إن تنال العلم إلا بسنة سأنيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وإرشاد أستاذ وطول زمان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الإلماع إلى ذكر النجامة وأنها من العلوم التي كانت معروفة قديما عند العرب ، غير أن الاجتهاد فيها كان محصورا في نفر قليل من أتباع الأقبال الذين تداولوا ملكهم قبل الإسلام ، فلما جاء أبو جعفر قزب إليه المنجمين وقدم عليهم توبخت (٢) المنجم المشهور عندنا بين أعظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل ، فاتخذ في الزوراء حلقة شهدها كثير من الناس ، إلا أنه لم

(١) الكز ١٣٩ والشبلي ١٠٢

(٢) ذكره القزويني وابن الأثير وغيرهما في استشارة أبي جعفر أياه في بناء الزوراء .

يخلفه في علمه كالْمَوْصِلِي المنجم ، فانه كتب في الاصطrolاب سِفْراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولاً يُعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون إليها في علم النجامة والأفلاك .

ثم نجم بعده في المسلمين على بن عيسى الأصطرلابي^(١) وإبراهيم الفزارى المنجم ومهرا في استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت في خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة في علم الأفلاك وهيئتها نظمها إبراهيم هذا المنجم^(٢) بخاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور في الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان أذكر مما قيده في أقاليم الاسلام أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الأبواب إلى جُدّة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلا^(٣) ، وعمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعمل إدريس ١٢٠٠ في ١٢٠ فرسخاً ، وعمل فاس لأبي المنتصر ٤٠٠ فرسخ في ٨٠ فرسخاً^(٤) . ثم نبغ بعدهما تيوفيل بن توما الرهاوى^(٥) وكان المقدم على جميع المنجمين في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيليون في العصر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة^(٦) ، وأميروس هذا شاعر مجيد كان يعترف المعاني من بحار

(١) المسعودى ٢ : ٤٠٠

(٢) المسعودى ٢ : ٤٠٠

(٣) المسعودى .

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة منجا من الروم يقال له تيوفيل الرومى وأنه كان في أيام بنى أمية .

(٥) أبو الفرج ٢٢٨

(٦) المقدمة ٥٣١

التصور ويبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفا لا يسمو إلى متناوله إلا العقول النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو^(١) في كتاب بديح يرفعه إلى أسى مقامات العقول .

أما المنجمون في هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ما شاء الله اليهودي ، وأحمد ابن محمد النهاوندى ، ودونهما في الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى^(٢) المنجم . فأما ما شاء الله فيقال إن له حظا في علم الغيب^(٣) ، وكان في جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبى جعفر بعد نوبخت وكسبوا الإنعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة أخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الأفلاك . وأما أحمد النهاوندى فانه في الموضع الأجل من علم الرصد ألف فيه كتابا سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جنديسابور ما لم يسبق إليه أحد من المنجمين ، ودون في الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتابا آخر صور فيه الدنيا كلها للرشيد ببحورها وجبالها وأوديتها وأقايمها وبلدانها وسائر أماكنها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخا والفرسخ اثني عشر ألف ذراع والذراع اثنتين وأربعين إصبعاً ، والأصبع ست حبات وتسعين مصفوفات بعضها إلى بعض^(٣) ، وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر في معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

وقد أهدى إلى هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المستمال في السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرني أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج

(١) الأغاني ١٥ : ٨١

(٢) أبو الفرج ٢٤٨

(٣) ذكرها النسعودي ١ : ٢٧٨

إليه من المراجعة والإصلاح بسبب ما يعرض له من أمور الفلك الذى يباشر رصده فى هذا الوقت .

ولقد مضى فى كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك تقول فى هذا الباب إن الفرس برعوا فى النجامة على العرب ، لأننى رأيت هؤلاء يتجافون عنها ويعدونها هى والسحر^(١) الذى ينهى الشرع عنه علما واحدا ، بخلاف جماعتنا من الفرس فإنهم يوجهون عنايتهم إلى العلا فى مباحثهم ومناظراتهم ، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرصد وما ينبئ عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم ، وكان المقرب لهم فى الإسلام أبو جعفر المنصور^(٢) كما ذكرت ذلك فى مواضع من الكتاب لأجل أن يطلعوه على طوارئ الجو وحدث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب فى بروجها وينبئوه عن جذب الأرض وخصبها لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للولك ، ثم قريهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الأصطرب^(٣) فى جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال ولينظروا فى النجوم ويدركوا علم الأبعاد ويوقعوا زمن الكسوف^(٤) وعقدوا لهم مجالسا يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من الأفلاك التى تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا إلى من له علم بالنجامة

(١) القناوى ٥١

(٢) السيوطى .

(٣) ذكر صاحب الأغاني والالتيلدى أن جعفرا استشار الاصطرب يوم نكبه الرشيد .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٧٨٥ و ٢٤ المقدمة .

أن يعرب كتاب المجسطى لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الخلق (١) فكان يجتمع عليها المنتجمون وفيهم جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركوا في هذا العلم إلا بما يلمسون من معرفة الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذي يسمونه بعلم الأزياج (٢) .

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذي هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب فيه في صدر الإسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم من سمع من التابعين من غير أن يدونوه في الصحف ، فلما أسرع الموت في العلماء وكانوا كلهم شيوخا فزع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا يدونون (٣) الحديث مثل ما وجدوه في الناس محفوظا بطريق الإسناد ، ولكن من غير أن ينظروا في الرواية النظر الجلي ولا أن يعتمدوا في النقد الأصل المرعى . فكتب ابن جريج بمكة (٤) ومالك بن أنس بالمدينة ، ومعمّر باليمن ، وسفيان الثوري بالكوفة ، وهشيم بن بشير (٥) بالعراق ، والأوزاعي ببيروت (٦) من ساحل الشام ، وحامد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبي عروبة بالبصرة ، وذلك كله في خلافة أبي جعفر (٧) رحمه الله . وكان

(١) وقال إن المأمون أول من اتخذها في الإسلام وإنها كانت معروفة عند اليونان كما استدلل على

ذلك من العقد الفريد .

(٢) المقدمة ٤٢٧ وحاجي خليفة ٣ : ٥٦

(٣) الزرقاني ٥١ : ١٠

(٤) الزرقاني ١ : ١٠

(٥) ابن خلكان ١ : ٥٢ والاعاني ٥ : ٥٤

(٦) حاجي خليفة ٣ : ٢٨ وذكري ابن الأثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧

(٧) السيوطي

أصحهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم مالك بن أنس وهو رأس المحدثين^(١)، رأيته إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقلت له في ذلك ، فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمحداً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً ، ويقول أحب أن أتفهم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطعون على حكمة الفرس واليونان وما في أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة في وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ، ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أول من أخذ في ذلك فقيه الإسلام أبو يوسف ، وكان من عليّة أهل الحديث وهو الذي أخذ الناقلين بأغلاطهم^(٢) ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب^(٣) ، ثم أخذ أخذه العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو إسحق الفزارى وعبد الله ابن المبارك وهما أشهر الأئمة لأيماننا هذه ، والرشيد لا يسمع الحديث إلا عنهما . ولا يلتمس الرد على الزنادقة إلا متهما فكان إذا أخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضرهم الحدود أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به ؟ فيقول لهم وأين أتم يا أعداء الله من أبي إسحق وابن المبارك يخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً^(٤) .

(١) ابن خلكان ١ : ٦٢٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٧٦

(٣) العقد الفريد ١ : ١٤٩ و ٢١٣

(٤) السيوطي .

ولقد أخبرني هذان الإمامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكran فيها مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن ويزعمون أنه يحوى غير العربى الفصيح من الكلام ، وهذان المذهبان ^(١) فاشيان اليوم بين الناس ، والأول منهما أشد خطرا على الإسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجّة واهى الدعامة بما يعلم عن العرب أنهم خالطوا الأمم في تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظا استعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربى الفصيح ، فما ورد فى القرآن من الألفاظ الأعجمية إنما دخل فى العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق ^(٢) بحيث إنه لا يكاد يرى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد فى شعر البلغاء من الجاهليين ، وفى هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجاج قاطعة لاقتراءهم على الله منجدة لنار الفتنة التى كمنت طى مذهمهم ، وهذا من الأمور التى ينبغى أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر ، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ، ويكون آخر أمرها بوارا على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحو البلدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوة الإسلام .

ولقد عثرت فى مدقونات الفقه على كتب جليلة أجلها كتاب لآبى حنيفة فى الكلام ^(٣) اسمه الفقه الأكبر ، وله فى هذا العلم الشأو الذى لا يدرك ، وكتاب لمالك بن أنس سماه الموطأ ، وذهب فى استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرده به عن مذهب أبى حنيفة ، وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه فى صدره ^(٤) تفضيلا له على غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضا

(١) الدميرى ١ : ٩٨ والكشكول والانتقان ١ : ٦٨ وابن الأثير والالتلبدى ٢٤١ وغيرهم .

(٢) الإنتقان فى تفسير القرآن ١ : ١٤٩

(٣) حاجى خليفة ٤ : ٥٥٧

(٤) الزرقاوى ١ : ٩

على كثير مما دونه العلماء فيما يُستَق عن الفقه من علوم الأحكام ، منها لأبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله ، ومنها لابن شبرمة وابن أبي ليلى ^(١) ، وقد أفردا نظرهما في علم الفرائض . ومنها كتاب لقي يقال له يحيى بن أكرم جمع فيه ما استحسّن من آراء أصحاب المذاهب ، وهو الكتاب الذي أصبو إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية ، لأنني وجدت قبل صاحبه من قوة الفطنة ^(٢) وصدق الحدس ما يؤكد لي أنه إن مدّ له في العمر سيظهر الفقهاء .

أما الكتب التي وقفت عليها في علوم الحديث فإنها أكثر من أن يأخذها الإحصاء ^(٣) ، غير أن الإفادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء وبقى أن جملة ما في غير كتبهم مراجعة وإعادة لما سبقوا إلى تدوينه ، فكان أنفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر في غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر في نقل ما سبقهم إليه العلماء .

في تدوين اللغة

أما اللغة فإن العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية في الإصلاح وتدقيق النظر ، لأنه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلم اضطرارا إلى تفسير القرآن ، إذ كانت الكتابة مجهولة عندهم في صدر الإسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانا ^(٤) وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظ في صدور الرجال ، وكثيرها ضائع بين الرمال ، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقا من لغاتهم ، وقيدوها في الصحف بطريق الرواية والإسناد .

(١) حاجي خليفة ٤ : ٣٩٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٩٢

(٣) كتاب حاجي خليفة .

(٤) العقد الفريد ٢ : ٢٠٦

وكانت حروف الكتابة في أول الأمر موضوعة بغير علامات ^(١) وظل الناس يقرءون في مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحواً من أربعين سنة حتى كثرت التصحيف لوجود الحروف المتشابهة . ^(٢) وما أستغرب أن يقرأ بعض الناس وما يحدد آياتنا إلا كل جبار والأصل ختار، وعذابي أصيب به من أساء والأصل اشاء، وهم أحسن أثاناً وزياً والأصل ورثياً، والذين كفروا في غرة وشقاق والأصل في غرة إلى غير ذلك ، فوكل عبد الملك بن مروان إلى النضر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفراداً وأزواجاً فتميز بعضها عن بعض ونحى التصحيف في القراءة .

وضبط اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم .

وأول من دون اللغة مجموعة في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذي قدّمت لك في الكلام على البصرة ذكره ، وقد ضمن كتابه ^(٣) أصول اللسان العربي وقيد ألفاظه في مواضعها في الاشتقاق إلا ما كان دخيلاً عليه من كلام الأعاجم فإنه اكتفى من ذكره بالإشارة إلى عجميته ، وأسند روايته في ذلك كله إلى أكابر الحفاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدب الأمين والمأمون ^(٤) من أولاد الرشيد ، ومنهم سيبويه ^(٥) والفراء والأخفش وعلمهم النحو فقط إلا الفراء فإنه كثير الفضل على

(١) حاجي خليفة ٣ : ١٥٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٧

(٣) هو أول معجم كتب في اللغة العربية .

(٤) المسعودي ٢ : ٢١٣ والأبشهي ٢ : ١٣

(٥) وقت أبو الفداء ٢ : ٦٦ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال إنه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائي البحث المشهور في قولهم « كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور » قال سيبويه فإذا هي هي وقال الكسائي فإذا هي إياها فانصرف الخليفة للكسائي فعمل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر إلى شيراز وتوفي هناك

العربية بضبطها وتخليصها^(١) ، وقد بلغتني جلالتها في العلم ولكن لم يجعني وإياه مجلس إلى هذا اليوم^(٢) ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري وقد وقع إلى كتاب له في فقه اللغة لتعليم الرشيد^(٣) قبل تشرفي بتأديته ، وقد أودعه كلام العرب وقيود لغتهم وذكر المترادفات التي وردت لهم في جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيراً إلى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة ، وأتى على متابعة الألفاظ التي تصف الأشياء على ازدياد في معناها أو نقص يبعدها عن الكفاية .

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربي^(٤) ، لأني قد وجدت مبانة بين كلام العرب واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غير اللغة عند أولئك ، فأما إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوي هو الحافظ لمحاسن اللغة التي كان ينطق بها البلغاء والشعراء ، ويكون القسم الحضري قطعة من كلام العرب يخالطها كلام السوق^(٥) وألفاظ المعربين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العرب ، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التي نجد أسماءها في كتب الأعاجم ، كما أن في لغات الأمصار إضراباً عن تسمية الأشياء التي لا توجد إلا في بادية العرب . ثم إنني وجدت عند أهل اللغة قصوراً تسامحوا فيه وتغاضوا عنه ، وذلك أنهم عند ما يصرفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن يثيروا إلى ما كانت

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨

(٢) ذكر أبو الفداء أنه ولد في أيام يزيد بن عبد الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

(٤) يظهر هذا مما نقله الأصمعي وغيره من كلام العرب .

(٥) ذكر الأغاني كلام السوق في زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ في غير موضع أما ابن خلدون فيقول

في المقدمة ١٥ أما ملكة اللسان فكانت محفوظة في الأمصار إلى عهد الرمحشري وأمثاله من فرسان الكلام .

تختلف فيه لغة قوم عن آخرين ، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تسميه بها عرب كذا وكذا ، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثل ذلك مع إغفالهم مانحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد في تصريف الأسماء إلى ما يشتق منها من المعاني مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وشب بمعنى جلس وطفرة وذلك من الأضداد التي لا أظن أنها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب ، فإن الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير ، وبمعنى الطفرة في لغة قريش ^(١) . إلى غير ذلك ^(٢) .

الشعر في البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه في صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم قل القول أو كثر ^(٣) ، وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلا المفاخرة بين الأقوان كما سمعت الأصمعي يقول « الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجده في شعراء هذا الزمان فإنهم يغضبون أنفسهم على الإنشاد بما يستميحون الملوك من الأفراد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال

(١) في القاموس الوثب الطفرة والقفود بلغة حمير .

(٢) قيد العلماء في كتب اللغة كثيراً من الأفعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له نقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فرموا عن الشيء ونقيضه من هذه الأسماء والأفعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلاً لا ينحدر منه الرجل إلا أن يكون قد صعد إليه ثم لا يعقب الصعود إلا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب إلا بعد أن يكون حاضراً كما أنه لا يحضر إلا بعد أن يغيب وهذه هي الألفاظ التي يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة ولها لكثيرة في كلام العرب .

(٣) الأغاني ٢٠ : ٥١

الأعراب . وامتزجت بهم الأعراب وتجاؤا عن سكنى البادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للناشدة كدأبهم في سوق مجنة وسوق عكاظ وسوق ذى المجاز (١) فقدوا كثيرا من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلفوا طبيعتهم شيئا لا يقدرّون عليه فيقولون البيت ويحك كونه أيا ما (٢) .

وإنما سهل على المتقدمين الإجابة في هذا الفن أن شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين خروسيب ومدح وهجاء من غير أن يكون نابعة فيما سواه ثم إن كلام العرب (٣) كان سائرا في أيامهم على الألسنة فلم يعانوا إلى البلاغة تكلفا (٤) فيما قصدوا من المذاهب التي كانوا يفرّدون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بها موصوفين ، كاسترسال امرئ القيس في ملاذ الشباب بحيث أتى في نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيره موقع مثله من القلوب ، وإن هو إلا أرق المتغزلين حيث يقول :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلّ وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل
أغرّك منى أن حبك قاتلي وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل ؟
وبكدة عنترة بن شداد في القروسية إذ أتى في الحماسة (٥) بما لم يأت به أحد مثله كقوله :

لو سابتني المنايا وهى طالبة قبض النفوس أتانى قبلها سبق

(١) هي الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف في موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك في أول يوم من ذى القعدة الذي هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهب للحدج ويتفادون ويتفادون ويتسوقون إلى حضور الحدج ثم يحجون .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٥

(٣) الأغاني ٥ : ٢٥٢

(٤) الأغاني ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧

(٥) الأغاني ٣

وكفّح حاتم الطائي يده في سعة العطاء بحيث إنه يتهلّل بذكر السباحة
والمكرّمات في جميع شعره ويقول (١) :

أماوى إنّ المال غاد ورائح وييقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إن يصبح صدأ بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا نحر
تروى أنّ ما أنفقت لم يك ضارى وأنّ يدى مما بخلت به صفر

وكانت رفاعة السموأل بن عدياء في درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه أتى من
ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسنى طبقات الشعر وهو الذى يقول :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرّضه فكل رداء يرتديه جميل
تعرّينا أنا قليل عدينا فقلت لها إنّ الكرام قليل
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طلّ يوما حيث كان قليل

وكانت قطاعة أمية بن أبى الصلت إلى العبادة بحيث إنه أتى في ذكر أحوال
الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدّم ولا متأخر (٢) وإن قوله :

يوشك من فرّ من منيته في بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبّطة يمت هرّما للموت كاس والمرء ذائقها
لأحكم ما قالته العرب في وصف الموت (٣) إلى غير ذلك مما لا يتسع له المجال
فنقف منه عند هذا الحد .

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المعلقات السبع وهى أصدق شاهد على فضل
المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التى تدل على أنفة
النفس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة ، بما نعلم من إنسادهم إياها ارتجالا بين

(١) الأغاني ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨

(٢) الأغاني ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

العشائر فإن الحارث بن حِزَّة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها^(١) ، فيظهر من ذلك أنه كان لهم في الشعر شأن ضاع عن المحدثين سره لا انقلابه فيهم من الطبيعة إلى الصناعة ، لأن العرب كانوا شعراء جميعا وكلهم يرتجز في حرب أو استجداء أو مفاخرة^(٢) ، وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حتى إذا أنشدوه قول طرفه من أصحاب المعلقات :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قال هذا من كلام النبوة^(٣) ، ثم إن النساء كن يقلن الشعر أيضا في أيامهم حتى إن بعضهن قد فضلن كثيرا من الرجال مثل ليلى والخنساء وكتنهما شاعرة فصيحة ، ولقد وجدت من كلام ليلى في وصف الشجاعة ضروبا من الإبداع كقولها^(٤) :

مهفهف الكشح والسر بال متخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس مُسَاه ومُصبِحه في كل فج وإن لم يغز يُنتظر
ووجدت في تأبين الخنساء لصخر توجعا كثيرا بالبكاء عليه حيث تقول :

يذكرني طلوع الشمس صحرا وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي
وتقول في رثائه وهي تصف محاسنه :

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه دأ
فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
وتقول وهو أخفر بيت قالته العرب :
وإن صحرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

(١) أبو عبيدة والأغاني ٩ : ١٧٨

(٢) الأغاني ١٨ : ٦٤

(٣) العقد الفريد ٣ : ١٢٢

(٤) الأغاني ١١ : ١٧

ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير^(١) يرفعها إلى مساماة البلغاء من الرجال .
وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة ، وهم
يصفون الركن والطيف ويذكرون ربوع الأحباب وتعفية الرياح رسومها ومخاطبتهم
إياها فيما مضى لهم من عهود الأئس ويصفون ألم الفراق ووحشة الديار وما يخالج
قلوبهم من الصباية في وقوفهم بالعيس على أطلال الديار^(٢) إلى أن يتخلصوا
من هذا الاستهلال إلى ما يرون إنشاده فيما يأخذون به من المذهب ، ولكن
على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء ، إلا الذين يتوسطون
بالبلاغة في مطلعهم فيستمررون إلى آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلنون علوا
حسنا ثم لا يزالون صاعدين في بلاغة تُعجز الفصحاء ، ولكنهم نفر قليل مثل
امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني وهم المقدمون على جميع
الشعراء ، وموضعهم من البلاغة واحد^(٣) ، إلا أنه غلب على ذى القروح
التجمل بالمعاني وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة ، وعلى زهير
العناية بتقويم الألفاظ . وقد سمعت الأصمعي يقول وقد سئل من أشعر
العرب ، الذين شَرَّقَ شعرهم وغَرَّبَ ؟ فقال «زهير إذا رِغب ، والنابغة إذا رهب

(١) الأغاني ٦: ٨٣ و ٩: ١٦٣ و ١٤: ١١٦ والعقد ٣: ٢٣ وديوان الحماسة

والاتليدي ٢٥

(٢) إنما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمع والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق
ليجعل من ذلك سببا لذكر أهله الطاعنين من ماء إلى ماء وانجاعتهم الكلاء وتبعهم مساقط الغيث حيث
كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجد وألم الصباية والشوق لتبيل نحوه القلوب وتنصرف إليه الوجوه
ويستدعى إصغاء الأسماع فإذا استوتق من الإصغاء إليه والاستماع له شكا السهر والتعب وسرى الليل وقر
ما لقي من المكارة في المسير ثم بدأ في المديح فبعث في ممدوحه الميل إلى المكافأة وفضله على الأشياء وصغرها
في جنب قدره الجزيل وهزله إلى الفعل الجميل ، الحصري ٢: ٢٧٤

(٣) الأغاني وكباب الموازنة .

وامرؤ القيس إذا طرب . وعنترة إذا ركب . والاعشى إذا شرب^(١) ، ولئن يكن في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسر لا يؤمن معه الزلل ما أنا براء في أبياتهم ما يسمو إلى كلام النابغة في الفخر حيث يقول^(٢) :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ولا إلى براعة زهير في المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله^(٣) :

وإن يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

ولا إلى جمال الوصف الذي نظم امرؤ القيس في معلقته نظم اللائح في شذور الذهب فقد لا تحضر البغاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامه الذي ذهب مذهب المعجزات ، فإن العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهي معلقة في الكعبة إلى أن ظهر الإسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دون طبقة هؤلاء من الجاهليين فإن لهم من محاسن الشعر موصفا لا يتعدونه إلى التصرف في المذاهب الواسعة كافراد أبي داود بوصف الخيل ، وعلقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حجر بوصف الخمر إلى غير ذلك^(٤) ، وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدي^(٥) فإن له أبياتا حسنا ذكر منها هذا البيت الذي هو أشجع بيت قالته العرب :

قالوا الطعان فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل

(١) الأغاني .

(٢) خزنة الأدب ٥١١ والأغاني ٩ : ١٥٨

(٣) الأغاني .

(٤) الأغاني ١٥ : ٩٥ و ٩٦

(٥) الأغاني ٩ : ١٤٠

ولكنى وجدته إذا تعالى في شعره كثيرا لم يؤمن وقوعه في الانحطاط (١) ،
وربما أتى من الألفاظ بالغريب الذى يبعد عن الأذهان ، وهذا شيء يصح أن
نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجا إلى
السلامة من العيب إذ يجوزون للمتقدمين ما لا يجوزونه للتأخرين .

الشعر في الحضارة

ولقد وجدت في شعر الإسلاميين المتقدمين علواً كادوا يسامون فيه أهل
الجاهلية ، ولذلك يصح أن نعرف لهم بحاسن البلاغة مثل الاحوص وذى الرمة
وحسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والقطامي وجرير والفرزدق والأخطل وجميل
وكثير وكثير غيرهم ، فإن لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجد
إلا في شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين
إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة في كلام حسان بن ثابت حيث يقول :

لنا الحففات الغري لمعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
وكالا ستئثار بالفخر في شعر الفرزدق الذى يقول فيه (٢) :

ترى الناس إن سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أوماننا إلى الناس وقفوا
وكانت وجع في الرثاء في قصيدة الهذلى التي يجزع فيها على فقد أولاده لإطفلا
صغيرا بقى له ومن جعلتها البيت المشهور (٣) :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تنقع

وكالتشبيب في شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبى ربيعة (٤) بحيث إن لهم
في ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع عنوية الألفاظ وجودة السبك
ما لا يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

(١) الموازنة والأغاني .

(٢) العقد والأغانى والكشكول .

(٣) العقد والأغانى .

(٤) صاحب الأغاني يفضل على شعراء زمانه وربما فضله في النسب على شعراء الجاهلية .

ثم إن الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المحمدين ويفقد كثيراً من البلاغة التي كانت في لسان الجاهليين لإبراز المعاني في فصيح الكلام إلا أنه لا يخط عنه في الأوصاف البارة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه ، فلقد نجد لبعض المحمدين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم في طبقات المتقدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذي كان للجاهليين ، والعذر لهم في ذلك أن شاعر البادية إنما كان يلتمس الفصيح من الألفاظ ليسمو كلامه على كلام غيره من الشعراء ، واللغات إذ ذاك كثيرة في عشائهم ، أما اليوم فإن اللسان الذي نزل به القرآن معروف لدى كل إنسان فلا يضطر الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في الأمصار كافة . وإنما وجب عليه أن يتدع المعاني التي لم يسبق إليها غيره دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام ^(١) ، لأن الألفاظ السوقية لا تمنع ^(٢) أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر في الإسلام ^(٣) إلى طبقات ثلاث أقربها إلى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الاسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر إذ ذاك في ثلاثة من تميم ^(٤) وهم جرير والفرزدق وهو من نبغة ^(٥) الشعراء والأخطل النصرائي وهو الحميد في مدح الملوك ^(٦) ووصف النمر ، وكان المقدم عليهم جرير وقد فضل الشعراء ^(٧) بقوله في المديح :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(١) ذكر الأغاني ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الألفاظ (وذلك في زمن الرشيد) .

(٢) الأغاني ٣ : ١٣٣ و ١٧٣

(٣) أي في المتصرين من الشعراء دون أهل البادية .

(٤) الأغاني ١٩ : ٦

(٥) الأغاني ٩ : ١٤٧

(٦) الأغاني ٩ : ١٤٧

(٧) الأغاني ١٠ : ٢ وفي غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ١٤٣ والعمد الفريد

وقوله في النسيب (١) .

إنَّ العيون التي في طرفها حورٍ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وهذا من الكلام الذي تنهاه إليه رقة أهل الصبابة ، ولم نجد من بعده
مثله إلا في شعر جميل وكثير وقد استرسلا في وصف حياة الشباب وانقطعا إلى
النسب (٢) من مذاهب الشعر ، يقول كثير (٣) :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكل سبيل
ويقول جميل :

وما زلت يا بُنُّ حتى لو أنى من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
وما أحدث النأى المفرق بيننا سُلوًّا ولا طولَ الليالى تقاليا
على أنى راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا على ولا ليا
ومن كلامه (٤) :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلى ؟
وأول الأبيات قوله :

لقد فرح الواشون أن صرمت حبلى بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلا يا جميل وإننى لا قسم ما بى عن بثينة من مهل

والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه في النسب إلا قول الأحوص (٥) :

إذا قلت إنى مشتفٍ بلقاءها فحمّ التلاقي بيننا زادنى سقما

(١) الموازنة ٤

(٢) الأغاني ٤ : ٥٨ والكشكول والعقد الفريد ٣ : ١٧٢

(٣) الأغاني وزين الأسواق وابن خلكان والمستطرف

(٤) الأغاني والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ١٦٣

(٥) الأغاني ٤ : ٥٧

وأما الطبقة الثانية فإنها عصر أبي جعفر (رحمه الله) وشعراؤه من تقدم لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هي زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثر من أن يأخذهم الإحصاء ولكني لا أرى فيهم إلا أبا العتاهية وأبا نواس ومسلم بن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فإنه انقطع في شعره إلى ذكر أحوال الآخرة^(١) وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعاني الجليلة ما أبرزه في أحسن صورة . من ذلك قوله « روائح الجنة في الشباب » وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان^(٢) ، والناس يقولون إنه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكني لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن يتناول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام في هذا العلم الذي وضعه ولا سيما في بحر المتدارك ، فإن من العروضيين من زاد فيه على ما ذكر^(٣) ، وقد كان أبو العتاهية من الخطوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه في حضر ولا في سفر^(٤) ، ثم آل أمره إلى الزهد^(٥) فليس الصوف وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول^(٦) :

كأنّ كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكي لمعة الآل

(١) الأغاني ١١ : ٣٢

(٢) الأغاني ٣ : ١٤٣

(٣) المسعودي ٢ : ٢٦٥

(٤) الأغاني ١١ : ٣٢

(٥) الأغاني ١١ : ٣٢

(٦) الأغاني ٢ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ماهو فيه من زخارف الملك يادره بالتذكير والموعظة (١) فيبكي الرشيد من ذلك فيهمّ الجلاس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه إنه يرانا في عمى فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نواس فإن مذهبه في الشعر مضاد لمذهب أبي العتاهية وأكثر ما يتضمن شعره الغزل والزهو وذكر المنادمة والنخمر تبعا لما نعرف له من ممازحة الملوك (٢) ، فهو يذكر إبليس والنخمر في شعره كما يذكر أبو العتاهية الآخرة والجنة .

ومن استعاراته الفائقة قوله :

بَسَمَ الصَّبَاحَ لِأَعْيُنِ النَّدْمَاءِ وَانْشَقَّ جِيبُ غِلَالَةِ الظُّلَمَاءِ

وله في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادات عليها والاصطباح والاعتباق (٣) ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظ منه ، وهذا مما يدل على اقتداره في الشعر وإن كان مذهبه غير محمود عند أهل الصلاح ، وهو عندى شاعر الشعراء حقيقة (٤) ، وإني أفضّل شعره على شعر أبي العتاهية لأن قصائده كلها سالمة من العيب (٥) ، أما أبو العتاهية فانه وإن كانت له استخراجات لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد (٦) ، وقد

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٩ والفخرى ٢٣٠ والرطوشى ١٧ والكشكول .

(٢) الاتليدى وحلبة الكميت وترين الأسواق .

(٣) المسعودى ٢ : ٤٢٢

(٤) ذكر صاحب العقد الفريد في باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس

على الشعر وأطبعهم فيه .

(٥) القيروانى وابن خلكان .

(٦) الأغاني ٣ : ١٨٠

ذكر لي وراق في درب القراطيس (١) كنت آلف حانوته أنه مر به أبو العتاهية يوما وعنده ديوان لأبي نواس فوقه نظره على هذا البيت (٢) :

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فسألتني لمن البيت فقلت لأبي نواس فقال والله إنني أحب أن يكون لي هذا البيت بنصف شعري (٣) ، وأظن أنه لو وقف على قوله :

ليس على الله بمستكر أن يجمع العالم في واحد (٤)

أو قوله وهو أمدح بيت للحدثين :

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك تأسو كل ما جرحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت إسماعيل بن نُوبخت في مجالس البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول إن الأصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف أن يقال فيه من أبي نواس ، لأنني ما رأيت في أهل الأدب من هو أوسع علما في كل شيء منه وليس له في الشعراء من مبارٍ ، يعلق له بغبار . وكفى في تحقيق فضله عليهم أن كلامه كله موزون (٥) فإن الشعر رنخت في صدره ملكته وصار في نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء . وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني فإنه أرق الشعراء غزلا

(١) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت في الأمثال السائرة وأبدل بالشرط الثاني قوله « حتى يرى منها لها واعظ »

(٣) الطرطوشي ١٠

(٤) الأغاني واليتمة ١٠٢ وخزانة الأدب ٥٠٠

(٥) ابن خلكان .

وأظفهم صنعا وأكثرهم من المعاني حظا ^(١) إلا أن ميله مع أهل البيت وقوله الشعر في مديحهم هو الذي جعله مقصيا عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل في نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استسكان الناس بشعره ، وقد أبدع مصاغه ورصعه بذرر البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بمحضر من الجلوساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إيه يا مسلم أنت القائل :

أنس الهوى بنى على في الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس
فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحا عليه يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامته
من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول :

أنس الهوى بنى العمومة في الحشا مستوحشا من سائر الإيناس
وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس
فموجب الرشيد من سرعة بديته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين
فانه من أشعر الناس ^(٢) وامتحنه فسترى منه عجبا فوق له الرشيد وفي نفسه من
الميل إلى الأدب ما قد علمت ، ثم قال له أنشدنا أشعر بيت لك ، فقال يا أمير
لمؤمنين أفرخ روعي أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك فإني لم أدخل على

(١) ذكره ابن الأثير ٦ : ٥٢ بعض أبيات في عرض التاريخ وقال إنها حسنة جدا وذكر الحصري أيضا جملة أبيات وقال إن الطائي كان يعول عليه وعلى أبي نواس وإن مسلما أول من لطف بالبدیع . وكسا المعاني حلال اللفظ الرفيع .

(٢) كان مسلم بن الوليد من أشعر الناس ولكنني لم أره ترجمة في الأغاني ولا في ابن خلدون وما نقلته هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠ .

خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع في الإنشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له
التي تقول فيها « الوحل » فإني رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذي أوله :

أديرا على الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتى دحلى^(١)

حتى إذا انتهى إلى قوله :

إذا ما علت منا ذؤابة شاربٍ تَمَشَّتْ بنا مشى المقيّد في الوحل

ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى في الوحل ؟ ثم
أمر له بجائزة وخلي سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان الثلاثة
المقدم ذكرهم في الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية ولقد لقيت في بغداد كثيرا
غيرهم من الشعراء مثل العاني وأبي مصعب وأبي الشيص وأبي عبد الرحمن
العطوى وغيرهم ، واتصلت بى أخبار جماعة ممن يتصرفون في فنون الشعر
ويبتدعون القول الذى لم يشرّكهم فيه غيرهم إلى أن ينظموا القصائد التى ليس
في أبياتها حرف معجم . إلا أنهم قد كانوا فى أيام أبى نواس ومسلم بن الوليد
فضاع بينهما فضلهم ولم يكن لهم ذكر فى مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى فى بعض كتبى السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى بصحة ذوق
العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم أربعة نفر^(٢) ابن
سريج وابن محرز وهما مكيّان ومالك ومعبّد وهما مديّان ، إذ كان أصل الغناء

(١) فى المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات آخر من هذه القصيدة .

(٢) الأغانى ١ : ٩٨

ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه البلاد مجامع أسواق العرب ^(١) ، وكانت النساء يشاركنهم في صناعة الأصوات ، وقد نبغ فيهن عزرة الميلاء في الغناء الموقع إلى أن صارت أحسن الناس ضربا بعود ^(٢) ، وكان لها أستاذة يقال لها راققة فاحتذت منها في تنسيق الأنغام ، ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنيا بالفارسية فأخذت عزرة عنهما نغما وألفت عليها ألحانا كثيرة لينة كما نجد في غناء النساء ^(٣) ، ثم ظهر طويس المغني فصنع الرمل والهزج ^(٤) وأول ما غنى به على لحن صنعته قوله ^(٥) :

قد براني الشوق حتى كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسي ^(٦) وشهره بين الناس ، وكان بن سريج يضرب بالعود على غنائنا إلى أن ظهر معبد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الأصوات البديعة ما فضل فيه غيره من أهل زمانه المعاصرين له .

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذا عندهم عن الأذان ^(٧) ، فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطليموس في اللحن الثمانية ^(٨) عزّبه في خلافة

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٤٧

(٢) الأغاني ١٦ : ١٣

(٣) الأغاني ٥ : ٥٧

(٤) الأغاني ٤ : ٣٨

(٥) الأغاني ٤ : ٣٧

(٦) المستطرف ٢ : ١٨٨ والعقد الفريد ٣ : ٢٣٧

(٧) ابن خلكان ١ : ٥٧١

(٨) الأغاني ٨٩٥

أبي جعفر (١) أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم في الغناء ونبغوا فيه النبغة التي ما كنت أحسبهم يصلون إليها في زمن من الأزمان ، وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران : الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتن فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقل (٢) ، وابن سريج بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج (٣) وأحمد النصيبى بالانصاف (٤) وفليح بن أبي العوراء بلحن النواقيس ، والموصلى باللحن الماخورى ، أما خفيف الرمل فانهم يشتركون فيه جميعا بحيث لم أجد مغنيا إذا تغنى لنفسه يكاد يغنى إلا خفيف الرمل (٥) ، والثاني ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومن الأمراء وأهل النعمة أجرة واسعة على غنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يخرج بدر الدنانير لإجازة المحسنين (٦) منهم ولقد سئل حنين المغنى وقد دعى إلى مأدبة لا يعهد في صاحبها الساحة ، لم لا ترضى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفنلومونى أن أغلي بها الثمن ؟

ثم ظهر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبوبون للعلم ومقربون إليهم أهل الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين إبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو إسحق اللحن الماخورى الذى لم يشركه فيه أحد من المغنين ، وكان يظن لصعوبة المأخذ في ابتداعه أن إبليس هو الذى ألقاه عليه

(١) ابن نباتة .

(٢) الأغاني ٦ : ٦٦

(٣) الأغاني ٥ : ١٤١ و ٦ : ١٣

(٤) الأغاني ٥ : ١٦١

(٥) الأغاني ٧ : ٣٦

(٦) الأغاني ١٤ : ٥٥

فى المنام ، فلقـد طالما تهوَّس بالغناء وأمعن فى تنسيق الألحان على أتم إبداع وأحسنه موقعا فى النفوس حتى توهم أن الأرواح هى التى كانت تظهره له وتعلمه الأصوات التى يعجز عنها غيره من الإنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على موضعه الجليل من الغناء :

ما لإبراهيم فى العلم بهذا الشأن ثانى
إنما عمر أبى اسحق زين للزمان
جنة الدنيا أبو اسحق فى كل مكان
منه يُجنى ثمر اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجادة ابنه إسحق وقد وضع ألحانا لا يقدر شعبان ممتلى ولا سقاء يحمل قربة على الترم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا قعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم^(١) ، لأنه سما فى اقتداره على الغناء إلى أن يجعل فى نفس السامع تحركا لما يغنى بمعناه من الأشعار ، فيحملها على الكبر فى معرض المديح ، وعلى الحماسة والإعجاب فى مجال الفخر ، وعلى الرقة والصبابة فى استرسال الهوى ، وعلى البكاء والغصة فى موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلا عن إجادته فى ضرب العود ، ولقد كنت يوما بدار الرشيد وفى مجلسه عشر جوار يضربن على العيدان فوق خلل فى مجرى إصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين وترا^(٢) تتحرك بين أناملهن ، فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال مدتهم أزمانا طوالا يستعملونها ويمارسون طرائقها .

(١) الأغانى ٣ : ٧٩

(٢) الأغانى ١ : ٢٠ وفى الحصرى ٢ : ٢٠٦ قال إسحق إنما يجيد الغناء من بقرع مسمع

كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه .

وقد كتب إسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تميزاً لم يقدر عليه سواه^(١) حتى لقد خطأ يحيى المكي فيما دَوَّن من الغناء ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب فيها الأصوات إلى من ابتدعها من المغنين^(٢) غير أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغاني ونسبتها إلى أصحابها فضلاً أعظم من فضل يحيى فيما حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه في رواياته^(٣) لأن هذا هو المذهب الذي يتعصب له إسحق وينظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مر في موضعه من الكتاب .

ومن حذق إسحق في صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلا فيما اقتبسه من تقسيات أفليدس^(٤) وما هو إلا الترتيل اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه ، فقد ميز^(٥) أجناس الغناء كله ، وجعل الثقيل الأول أصنافاً ، فبدأ فيه بإطلاق الوتر في مجرى البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر في مجراها ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين الأول ما ذكرناه والثاني القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحناً واحداً ، وذلك بخلاف الذين دَوَّنوا الغناء قبله وبعده فإنهم أضاعوا صناعة الغناء القديم إلا أحمد بن يحيى المكي المقدم ذكره في كتاب له في الأغاني ونسبها يقال له المجرد^(٦) فإنه أصل يرجع إليه ويعول

(١) الأغاني ٦ : ١٨

(٢) الأغاني ٥ و ٦

(٣) الأغاني ٦ : ١٧

(٤) الأغاني ١٥ : ٨

(٥) الأغاني ٥ : ٥٢

(٦) الأغاني ١٥ : ٦٥

عليه ، ولست أعرف كتابا بعد كتاب إسحق يقارب كتابه أو يقاس به ، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين ، ورجع إلى الغناء القديم الذي سبق إلى التعصب له مغن يقال له «سياط» وفد على المهدي رحمه الله وأنا مقيم في الرسالة بخراسان فلم أوفق إلى الاجتماع به ، ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة ^(١) أن إبراهيم وإسحق تلميذاه ^(٢) وإليهما المنتهى في إجادة الغناء .

لُـمـعة في علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت مجهولة عندهم في صدر الإسلام بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم ^(٣) حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائنهم بالأديار ، أما اليوم فإننا نجدها في سكان الأمصار من العراق ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم إلى العلم ، وإنما همتهم ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم كما سبق الإلماع إليه في صدر الكتاب .

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة ^(٤) : رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية ؛ فأما العلوم الرياضية وهي النجامة والعدد والهندسة والغناء فإنهم نبغوا فيها النبغة التي لم تكن للتقدمين من أعم الشرق ، وقد تقدم في الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلak وارضادها ، كما أنك رأيت في الكلام على الغناء أن لإبراهيم وابنه إسحق

(١) الأغاني ٦ : ٦٥

(٢) الأغاني ٦ : ٩

(٣) المقدمة ٤١٩

(٤) حاجي خليفة : ٤٦٢

فما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلا تترين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم (أرشدك الله) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهي صناعة استخراج العدد المجهول من قبل المفروض المعلوم ^(١) إلا موضعهم من النجامة والغناء في تحريرها وإصلاحها والاعتبار في الأقسام التي تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هي العلوم التي يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التي لا غاية بعدها في الإصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لاقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذي أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل ^(٢) ، وقد عربت رسائلهما في خلافة أبي جعفر ثم أعيد تعريبها في هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل ^(٣) جعل مقالات إقليدس في جلد كبير سماه كتاب الأركان ^(٤) ، وفيه خمس عشرة مقالة يبحث في الأربعة الأول عن السطوح ، وفي الخامسة عن الأقدار المتناسبة ، وفي السادسة عن نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وفي السابعة إلى التاسعة عن العدد ، وفي العاشرة عن المنطقات ، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ، وفي المقالات الخمس الباقية بحث واسع في المجسمات ، ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات ، وألحقوا به أيضا علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس ^(٥) من اليونان أيضا فعرفوا ما يقع

(١) المقدمة ٢٢٤

(٢) ابن نيانة .

(٣) هو مهندس ذكره الأغاني ٦ : ١٩١

(٤) المقدمة ٢٢٤

(٥) المقدمة ٣٥٩

من الأشكال والقطوع في الأجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء ^(١) بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك ^(٢) فإن إجادتهم فيها كانت دون إجادتهم في العلوم الرياضية ، لأن طبائعهم ما تهيأت للعناية إلا بقول الشعر كما رأيت ، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم ، وقد بلغوا فيه الغاية التي لا مطمح وراءها إلا ما كان من كلام النبوة ، وإن كان شعر الجاهلية جافيا لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في القفر بين الإبل والوحش والمنازل الخالية ^(٣) فإن شعر المتمصرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعرا أرق من النسيم ^(٤) وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جناتهم وظهور ريح الصبا عندهم ، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذهاب إلى الغرب ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التي ينفتح فيها الطيب على غصن أندلسها الرطيب فيقول ^(٥) :

وإذا ما هبت الريح صَبَاً صحت واشوق إلى الأندلس

وديار الأعراب قفرو وإقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك مما لا يولده فيهم من رقة القول وحلاوته مانجده في شعر الأندلسيين .

(١) المقدمة ٣٥٨

(٢) حاجي خليفة ٤ : ٤٦١

(٣) الكشكول والأغاني .

(٤) راجع كتاب المقرئ وغيره من تواريف الأندلس .

(٥) المقرئ .

أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب في المنطقيات لأرسطو الحكيم (١) عربت في خلافة أبي جعفر (٢) بمنظرة عبد المسيح الحمصي وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش (٣) ، وقد اشتملت على رسائل ثمان ، أربع منها في صورة القياس وأربع في مادته (٤) ، وربما زادوا فيها بعض شرح وتفسير.

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها مما استخرجوه من كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن العلم إلا ابن العلاف (٥) خطيب هذا الزمان في رسالة له في الخطابة بدأ فيها بذكر سجنان وقس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم في الجاهلية والإسلام إلى أن أتى على بيان القواعد التي تلزم الأدباء في الخطابة ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ وإثارة المعاني في قليل من الكلام .

وأما العلوم الطبيعية وهي علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها في جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبي جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء وهو النظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض

(١) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وهي كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة وربت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمسة المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها فصارت سعا .
المقدمة ٤٢٩

(٢) المسعودي ٢ : ٤٠٠

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٩٧

(٤) المقدمة ٤٢٨

(٥) ذكره ابن خلكان ٩٢

وغير ذلك^(١)، وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة بما في متوعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة ، حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتهمرون في استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد ابن يزيد بن معاوية الأموي قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره^(٢) ، وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثني عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فيما ترك أكثر من خمسمائة رسالة في علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من العلم إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار ، فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيان الطرسوسي وهو تلميذ جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه فكتب سفرا جليلا في علل المعادن^(٣) ودون الكيمياء في سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مجرباته ، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين منها القوة النفسية وهي السيمياء ، ومنها القوة العلمية وهي الكيمياء ، وأدخل العلوم السحرية في السيمياء وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثله حكماء اليونان أنفسهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر^(٤) أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصروا دون الغاية التي بلغها منها ، وربما أكب عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازه ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصنوعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة

(١) الأغاني ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٣ : ١٤٣

(٢) ابن خلكان ٥ : ١٤٦

(٣) حاجي خليفة ٤ : ٢٤٦

(٤) المقدمة ٦٣

لاستخدام الجن^(١) في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الأهلية وهى السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليونان والفرس ، وإنما ينفرد حسن نظرهم فى علوم الدين كما رأيت وفى علم الكلام الذى وضعوه تحفظاً^(٢) من العلوم الحكيمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف^(٣) ، وقد رأيت لهم كتباً فى السياسة المدنية^(٤) يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن ما لهم من التأليف التى فيها رأى ونصيحة ، أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلا بضاعة مزجاة لأنهم لم يعنوا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرره فى نفوسهم من الفائدة وفى معاشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهوولى المؤمنين لا رب غيره ولا معين سواه .

أدب السير والحكايات

نُفرد هذا الباب لذكر الحكايات والقصص فإنها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهوالكاتب المشهور بالبلاغة^(٥) والذى كان قائماً بديوان الإنشاء فى خلافة أبى جعفر^(٦) ، له كلام

(١) المقدمة لابن خلدون .

(٢) ابن خلكان ١ : ٦٨٧

(٣) حاجى خليفة ٣ : ١٠٠

(٤) ذكر هذا ابن خلدون فى المقدمة ٣٢ وابن خلكان ٣ : ١١٢ و ١١٤

(٥) العقد الفريد فى باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ : ١٥٩

(٦) المحاضرة ٣ : ١٣٢

على الملوك يشهد بأنه كان عارفاً بالسياسة^(١) ومقالات في البلاغة تشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا أن أهل زمانه قد اتفقوا ، وهم دونه في العلم ، على أن يقولوا إن كلامه كان أكثر من علمه^(٢) ، لأنهم ما أحبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له في تعريب كتاب هندي يقال له كليله ودمنه^(٣) وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم والطير وأشير فيه إلى سلائقها من الحلم والمكر والجرأة والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق إلى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة ، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضرباً من الحكمة البليغة ، وهو يشتمل على غرضين سياسيّ وأدبيّ ، فأما السياسي فإنه داع إلى العدل وزاجر عن البغى ، وفيه بيان سلوك الملوك في آدابهم وتديبرهم لأموالهم وممالكهم وما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأن الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يقرب إليه أهل النخبة والفساد . وأما الأدبيّ فمضى بيان المعاش في ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد في تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغي لهم في سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يعد كتابه من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه حتى إن كسرى أنوشروان أنفذ طبيباً برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم^(٤) .

(١) الفخرى ٣١

(٢) ابن خلكان والأغانى ٨ : ٧٦

(٣) ذكره المسعودى ١ : ٣٨ والسيوطى وذكر المسعودى أن عبد الله ابن المقفع كان عالماً باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها إلى العربية غير كتاب كليله ودمنه كتباً كثيرة .

(٤) ذكر الحصرى أن سهل بن هرون ألف في زمن المأمون كتابه المسمى « ثلثة وعشرة » يعارض به كتاب كليله ودمنه وأنه كان ظريفاً عالماً حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضها الأوائل في كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزرجمهر الاسلام ٢ : ١٨٦

وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلا سماه « باب غرض الكتاب » وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب ، وذكر أن أغراض واضعه « يبدأ » الفيلسوف تنقسم إلى أربعة فأحدها ما قصد إليه من وضعه على السنة البهائم ليسارع أهل الهزل إلى قراءته ، والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للزهوة في صوره فيتخذ الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة^(١) ، وعهدى بجميع الكتب الأعجمية إذا عريت عريت إلا هذا الكتاب فإني رأيت في العربية أفصح منه في الفارسية ، وقد كان صبية البرامكة (حفظهم الله) يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطن لذلك أبان بن عبد الحميد^(٢)

(١) المقدمة ٢٥٧

(٢) ذكر في العقد الفريد ٣ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندما البرامكة وله قصيدة

أشدها للفضل بن يحيى فيها حلالة شمائله وبراعة أدبه يقول :

أنا من بغية الأمير وكثر	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب لبيب	ناصح زائد على النصاح
شاعر مقلق أخف من الر	يش إذا ما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة ونفاذ	أنا فيه قلادة لوشاح
لورى بن الأمير أصاحه الله	له رماحا صدمت حد الرماح
هم أروى عن ابن سيرين فى الفق	له بقول منور الإفصاح
لست بالضعف فى روائى ولا القد	م ولا بالمجمع الدحداح ؟
لحية كثة وأنف طويل	واقفاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح الن	س بصير بخافيات ملاح
كم وكم قد خبات عندى حديثا	هو عند الأمير كالتفاح
أيمعن الناس طائرا يوم صيد	فى غدو أو بكرة أو رواح
أعلم الناس بالجوارح والصي	د وبالخرد الحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد لله	على أننى ظريف المزاح

ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل عليهم استظهاره ، ويقول في مطلع ذلك الكتاب (١) :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذى يدعى كليلة ودمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

إلى آخر الأبيات فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان بموضع جليل من البلاغة التى ورثها عن أبيه .
فقد كان عبد الحميد من فحول الكتاب الذين فتقوا أحكام البلاغة وفكوا رقاب الشعر (٢) ، وكان نفرا للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة التى جمعت سحر البيان ، وأخذت يجامع الجنان ، يقال إنه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتباً فى دولة الأمويين قال لمروان سأصير عنك كتاباً إلى أبى مسلم فإن قرأه حصل عندنا وجه من الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الكتاب إلى أبى مسلم (رحمه الله) وكان عالماً بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقوا الكتاب على طيه فإنما فيه سحر غالب » على أنى لو سئلت التفضيل بين هذين الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب وتتحف بها خزان الملوك .

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره من كتب السير والخرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس (٣) وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الأمثال التى توسع العقول أدباً مع فكاهة وترويض أفكار ، وترجموا عن الفارسية كتاب هزار أفسان وسموه ألف ليلة وليلة (٤) ،

(١) الأغاني ٣٠ : ٧٣

(٢) العقد الفريد والمسعودى ٣ : ١٦٣ وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحديدات فى فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده .

(٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٤) المسعودى ١ : ٢٩٦

ومعنى هزار أفسان ألف خرافة ، وكان السبب في وضعه كما هو معروف أن ملكا من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غيرة عليها من الرجال ، فتزوج بحارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهرزاد وفي بعض النسخ شيرزاد ، فلما اتصلت به أخذت تحدّثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته إليه ، ووقفته على حيلتها عليه . وكان للملك قهرمانه يقال لها رسازاد أو دينارزاد ^(١) كانت موافقة لها على ذلك ، وفي هذا الكتاب دون المائتي سمر لأن كل سمر كان يحدث به في ليال عدة ، وهى من أظرف الحكايات التى وضعتها الفرس في غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تدواله النساخ والكتاب وأضافوا إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباع في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأتس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما فى الكتاب حكايات عربية لا يخاطها من كلام الفرس إلا القليل ، وهى وإن كانت بعيدة عن الصدق تظهر فضل العرب في أنهم يمتلكون فؤاد السامع بركة مأخذهم في تجميلها وروثها ، كالذى زعموا أن صيادا ألقى شبكته في البحر وظل نهاره طوله لم يظفر بسمكة ، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضاق به الحيل جر الشبكة فإذا هى ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستعيز بثمنه عن نصبه في ذلك اليوم ، فلما جذبها إلى الشاطئ وجد فيها ققما من نحاس وعليه خاتم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ففض ختامة فصعد منه دخان خيم على السماء ، فنظر في الدخان فإذا هو يجتمع ويتكون إلى أن وضع منه جان من صفته كذا وكذا . فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفرقا بحيث لا يتنبه السامع إلى

(١) كتاب الفهرست .

أن هناك خرافة ، فإذا انتهت الحكاية إلى ما أصاب الصياد من الجواهر والمال بعد أن خامره الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض ، واتمس في نفسه مثلاً لهذا المسكين فوجده كثيراً في الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سرا يريد به الكاتب من وراء الفكاهة .

وإجماع الرأي على أن ليس في حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعا ، فإن فيها من الوصف البارع ، والتمثيل الساطع ، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليه من وصف معاش الناس وأخلاقهم وما يتقبلون فيه من الأحوال التي توسعوا في وصفها ، إلى أدب جزيل الفائدة . فاما الحكايات التي ذكروا وقوعها في الإسلام فلا تبعد عن الأحوال التي تحدث ببغداد في أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزجون به أخبار الخلفاء من الخيال لنكتة يشوقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للولك ، مثل حكاية الخليفة الثاني وحكاية الخليفة والصياد إلى حكايات غيرها يظفرون بها الخبر عن الرشيد وجعفر ، أما ما ذكره عن طوافهما ^(١) مع مسرور ليلا في الأسواق متنكرين عن أن يعرفهم أحد فإن ذلك ليس بالموضوع ، وقد ذكرت مثله في رسائل السالفة إليك غير أنني جردته عن المبالغة التي يزين الرواة بها أحاديثهم ، كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلهما لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة .

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وإنما أقبل خلق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث يتعذر عليهم معرفة غثا من سمينها ، ولأن ناقل الرواية كان يحدّثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البلدان

(١) الاتلیدی ١٢٦ والأغانی ٦ : ١٣٧ وغيرهم .

البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل ، فلو حدثهم بأن في الشام مدينة من النحاس (١) أو بالعراق بلدا صار غديرا ثم انقلب مأوّه إلى عمارة وأسماكه إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع ، وإنما نقل إليهم أن ذلك كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب فأوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة .

ومن أطرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء . وغانية هيفاء . وشاعرة فصيحة وعجوز ذات دهاء وما توسعوا به في كلامهم عن العشاق ووصف هنأهم في التلاقي ، وتوجعهم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التي ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تتمثل في الضمير على سبيل التخيل ، كالذي يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كل من فيها نساء وتجارها نساء وجندها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال ، وأنه قضى بينهن أياما من النعيم أقل ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة في البحر على سبيل التسلية خرجت له من الأصداف صبية من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجنان ، إلى غير ذلك من الوصف الذي يحرك القلب ويملك الجنان .

وقد حلا لي من حكاياتهم أيضا حكاية السندباد (٢) وهي تشتمل على الحوادث التي وقعت له في أسفار سبعة أتى عليها جميعا في طلب المال وفي كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التي وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الأخطار لنيل العلا والفخار ، بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال المساس وعيون العنبر وعجائب البلدان التي نزل بها السندباد .

(١) المسعودي وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين .

(٢) ذكرها المسعودي في موضعين من كتابه أحدهما في صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئا والثاني في صحيفة ٣٨ وقال إنه كان في عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه السلام بثلاثمائة سنة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

وعلى بعض ألسنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجمة عنها. وهذا كلام فيه بعد عندي ، لأني طالما سمعت رواتهم يحدثون بمثل ذلك ، وفي مطلع الحكاية أن الحمال لما اشتد به الحر فط حمله على باب التاجر في ظل يتردد إليه النسيم الرطيب ، وتفوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عزة ذلك التاجر في كثرة غلمانها ، ويسمع تغريد القبارى والشحارير في جنانه . وينشق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لانتقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف ، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد إليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء والنعمى ، وعيش الشظف والبلوى .

ولست أظن في هذه الحكايات السندبادية إلا أن واضعها رجل قد عانى الأسفار ، وتقلب على متون البحار ، حتى عرف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تقلب الكتاب في أيدي الأدباء الذين عرّف علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحد من الرجال ، وإلا فإن في وصف الحروب من ذكر الكروالفر وحيل الفرسان ما لا يستنبطه إلا من طال وقوفه في ساحات القتال ، وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يستخرج فتواه إلا فقيه مجتهد في الأحكام الشرعية أيما اجتهاد ، ولو لم يكن هذا الاستدلال صحيحا لوجدنا في اختلاف الأقلام دليلا واضحا على اشتراك الأدباء في تأليفه ، لأننا نجد فيهم من يسترسل في المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفرسان أنه قتل في معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الإمكان إحصاء عددهم في يوم واحد فكيف بقتلهم ؟ ثم نجد من رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعدّه إلى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار للنظر في عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه في كلامهم عن العرب من ذكر المحاسن التي تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف ، والمساوى التي تفانوا لأجلها في طلب

الثأر وإدراك الغنائم ، أو مثل ما قصصوا إليه في حوادث زماننا هذا من ذكر أخبار النساء كما هي ، إلى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذي أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات .

تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار في أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين إلى ما وراء قرغانة ^(١) ، فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الأموال أحوالا شاهدوها وعادات جروا على سنتها ومباني حاكوا منها الزينة والإحكام ، وشرائع تفقهوا في استخراج ما فيها من أحكام .

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدثوا الحى بغريب ما نظروه ، وعجيب ما سمعوه . فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بي من أن في بعض الأمم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار ^(٢) ، وفي جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن منهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب ، ومن جسمه بحجم الثور أو الأسد ^(٣) ، ولقد سمعت من يحدث أن من البلغار من طوله أكثر من ثلاثين ذراعا يأخذ الفرس تحت إبطه كما نأخذ الطفل الصغير ، ويكسر بيده ساقه كما تقطع باقة البقل ^(٤) إلى غير ذلك . ولست أظن هذه الأساطير التي يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلا أنهم رأوا رسومها على الآثار التي خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون وغيرهم من أهل

(١) يستدل على ذلك مما دونته رحالة العرب وعلماؤهم في الجغرافيا .

(٢) ابن خرداذبة ٦٣

(٣) القرمانى ٥ : ٥٤

(٤) المستطرف ٢ : ١٦٢

الأعصر الحالية فحدثوا بها رجما بالغيب ، أو تحصيلًا لليقين من الريب . ظنا منهم أن أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت في قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قصا عنا من البلدان .

ولما دارت هذه الأساطير بين الناس وتناقلها الندماء والجلالاس ، أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها ففساروا إلى تقييد التاريخ في الأوراق حتى لا يتشوه على تهادى الأيام ، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظا في صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من أمثال هذه الأسانيد المحفوظة ، وهم يوقتون وقوع الحوادث السالفة مثل ما كان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى وهذا في حرب البسوس إلى غير ذلك ^(١) وأما الحوادث التي وقعت في الإسلام فقد أترخوها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصح في النقل والرواية من أخبار الجاهلية ، لأن شأن الرواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة أشهر من أن يذكر ، والحوادث إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطنوع النجم ، ولم يسلم لهم من الفساد إلا علم الأنساب الذي حفظته فيهم العصبية ^(٢) حتى اتصلت أنساب أشرافهم إلى أولاد إبراهيم (عليه السلام) مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات .

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ محمد بن إسحق ^(٣) في كتابه عن المغازي والسير وأخبار المبتدأ ^(٤) ، ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنفا ، ^(٥) ثم

(١) راجع كتاب الأغاني .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد .

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٦٤٣ وذكر أبو الفداء وابن الأثير أنه مات سنة ١٥٠

(٤) المقدمة ١٧٠

(٥) المسعودي ٣ : ٤٠١

أخذ أهل العلم في تدوينه بعد ذلك . ووضع مجد المعروف بالواقدي كتابا في فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) وأتى على ذكر الحروب التي سَعَرَتْ نارها على عمال الروم ، إلا أني رأيت يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول إنه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفا من المسلمين وإلى حصن كذا وكذا رجلا وإلى البلد الفلاني كذا خلقا عظيما مما لوجع إلى ما فرقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه في جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة النقل ، وكذلك إكثاره في عدد القتلى من الروم كان يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن في جندهم مثله في جميع ما لهم من البلدان ، فربما انفرد الواقدي في علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دَوَّن التاريخ بعده حماد الراوية وعبد الله الأصمعي وهما يعرفان أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويمليانها عن ظهر قلبهما إلا أن الخلل في رواية حماد أنه يقول الشعر على لسان المتقدمين ^(١) فيما يروم إسناده إليهم من نكتة أو من خبر فهو إلى المؤاخذة بما يدخل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقرب منه إلى الشناء على ما يضعه من الشعر الذي لا يفترق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روى لهم ألفين وتسعمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات ^(٢) . وأما الأصمعي فليس ثمة من الأمور التي تنتقدها عليه إلا أنه كثير الرواية واسعها حتى يكون فيها بعض المِرية عند كثير من أهل العلم ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقل بمدونات ، وهذا لا ينقص فضله في العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشيء الذي يزيد قدره على أن يكون مثله في صدر رجل .

(١) الأغاني وابن خلكان .

(٢) الأغاني ٥ : ١٦٥

ثم إنى وجدت الأصمعي وحامدا كليهما قد وقعا في الخطأ والقصور اللذين وقع
فيهما أهل الرواية قبلهما وبعدهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعا عن ذكر
محاسن الأعاجم من هو خارج عن دين الإسلام حتى لا يشغلوا كتبهم بذكر
مذاهب كفرهم ^(١) كما يقولون ، وأما القصور فلكونهم يذكرون الحوادث من
غير أن يستوعبوا مبدأها وغايتها ولا أن ينظروا في عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا
على الملوك معاييرهم فيما سقطت به دولهم بعد أن تسلموها بمكان عظيم من النفوذ
والسلطان ليكون في انتقاد الأشياء تذكرة للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواه
من العلوم الأدبية ببيان المحامد التي يسترشد بها والمساوي التي ينبغي الاستنكاف
منها والتنبك عن سبيلها .

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل
الجزيل فيما تمهروا في استخراجها من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد
من جميع العلوم والفنون والصناعات ^(٢) ، إذ كان لهم غير من ذكرنا من العلماء
كثير من النقاشين والمصورين والصناع مما يدل على أن لهم صورا على الورق
الصقيل ^(٣) تظهر خارجة وليست بخارجة ، وداخلية وليست بداخلية وفيها كل
غريبة من الإبداع ، ورأيت من رسومهم على الانية والأعمدة والقباب ما يبهر
البشر في إحكام الصناعة مع الخلاوة وتتمام الزينة مع الحسن والطلاوة ، وهذا
كله قد توصلوا إليه في عصر الرشيد وملوك البرامكة (أعزهم الله) وقد سمي
بالعروس ^(٤) لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الإسلامية

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب حاجي خليفة .

(٣) كلبلة ودمنة .

(٤) المسعودي ٢ : ٤٠١ والشرقاوي ١٢٢ وفي الحصري ٢ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة

روض الأزمته .

ولعمري إن فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهدا ناطقا ببلوغ الغاية من العمران إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان .

وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم (صلى الله عليه وسلم) والله نسأل أن يجعل حالنا بالستر الجميل ،
لأنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا رب سواه .

الرسالة الثامنة

رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبى إليك أفردته لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرنجة ، وأنا أكتبه اليوم على متن السفينة فى البحر الفاصل بين الروم وإفريقية . كان الرشيد يوم وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة ^(١) قد استدعانى إليه فأصبته فى مجلسه متنقلا كأنه يريد أمرا عظيما ، فاستدنانى ^(٢) إليه وقال إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يُقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك إليه بطائف نروم منه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه هى التعصب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ^(٣) ، فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة ، واجهد فى أن تسترق قلبه بخلاصة لسانك ، وتقدم إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفيه حقه يوم الفتح . ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجربى الأرزاق الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحب معك هذا اليهودى الذى جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شيخ مترف جليل القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدّمنا إلى مسرور أن يصحبك بالخدام مع الدواب والخيام إلى بيروت من ساحل الشام ، فإذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أمرنا الليث أن يوجه

(١) هذه اللفظة لقب رومى للقيصرة وقد وردت فى كتب العرب ووجدت فى ابن خلكان

١ : ٨٤ لفظه أنبرور بحذف الدال وهى تشبه أن تكون منقولة عن الفرنسية .

(٢) فى الأغاني ٤ : ٨٤ أن الخليفة يستدنى من يحبه .

(٣) راجع المقرئ وابن الأثير تجد كلاما مطولا فى هذه الحروب .

معك طائفة من الحرس إلى عيذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافقنا حاجين ،
فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة ، ويهدي قلبك الصواب
وهو ولي التوفيق .

فلما أذن لي بالانصراف أتيت البرامكة لأستطلعهم رأيهم في المصلحة فلقيت
جعفرا متزها في البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال اخرج
عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنى ذلك ؟ فقال علم الله أنى أنا
الذى أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام .
ثم أوما إلى الجلاس فتنحوا عن موضعنا ، فاستدنانى إليه وقال بم أوصاك ؟ فقلت
بكذا وكذا من الأمر ، فوجم ساعة ثم قال سبحان الله إلام يتأدى به تغير القتال ؟
لقد أشرت عليه بأن يعدل عن المناجزة الأمويين ، لأن لنا في الشرق ما يشغلنا عن
قتالهم ، وفي الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة في كل حين ما إن ضعفتنا عنهم مرة
واحدة فسدت دولته فسادا لا تقوم لها من بعده قائمة . وإن يكن الرشيد عن
موعظتى غنيا بما عنده من العقل والعلم فإن الملوك قد تطمح نفوسهم إلى ما وراءه
الشر من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم
تسؤكم » (١) ، فلنا وللاُمويين وقد كفانا الله شرهم ، فإن كانوا في شقاق
فلندعهم ينادون بالويل والحرب إلى ما وراء البحور ، وليس لنا أن نلقى برجالنا
في المواضع المحيضة ونوردتهم موارد الهلاك ، فإني أرى الجند يفتنون قبل الإشراف
على تلك المتالف ، كما أنى أحسب الأبرذور على ما يؤثر عنه من إثارة الرفق ولزوم
التؤدة بعيدا عن موافقته على ما يروم من الإيقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون
في ديارهم معتصمون في قلاعهم وقد عمروا أمصارهم ودقنوا دواوينهم وشكوا
في حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والعدة والكراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم

(١) سورة المائدة .

شيب الغراب (١) ، ولقد كان أولى بالرشيد أن يرى دول الأندلس درعا منيعا للإسلام وسيوفا مشهورة على الروم ، لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمن إن أرسل الجند أن يخونه القواد أو مات الأبرذور عن خلف لا يرعى اليهود أن يوجه من يقبض على عمالها من لدنه ، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فإن رغب عما فرط منه وإلا فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ أمنيته .

فلما كان الغد بكر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام ويخضه الرأي والنصيحة ولكن من غير أن يقوم ما بنفسه من الميل ويعيد به عن ركوب هذا المركب الوعر . فاستدعاني إليه وسأمني كتابه إلى الأبرذور وأمرني بأن أتجسس أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت . وأوصاني برجل من الأمويين في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان ينحشى منه استمالة أهل الشام إلى الفتنة رفعت ذلك إليه ليتدبر أمره (٢) ، ثم قال وإذا مثلت بين يديه « يريد قيصر الروم » فقل له عن أمية إنهم قوم قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العبادة وسعوا في الأرض فسادا وأنا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم . ثم أذن لي بالانصراف ، وكان يظهر من الميل إلى وجميل العطف عليّ بحيث كان يدعوني بلفظة الليب (٣) كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه .

(١) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق إلى الأندلس ووجدوا البمانية فيها غير مذمنة لدولتهم قاتلوهم قتالا أجوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبقى الرمق وبلغ استقتاها في سبيل الملك إلى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر « ابن الأثير ٦ : ٤ » .

(٢) ذكر الأتليدي ١٢١ والأبشي ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموي فليراجعها هناك من أحب .

(٣) ذكر الأغاني ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يرفع عن أن يدعو بعض خواصه يا حبيبي ونقل صاحب العقد من نوادر إسحق أنه لما دخل على المأمون استداناه إليه فدنا منه قال إسحق فرجع المأمون يديه فانتكأت عليه فاحتضني بيديه وأظهر من إكرامى وبرى ما لو أظهره صديق لى مواس لسرى ٣ : ٢٤٠ .

وكان في لطائف الخليفة إلى الأبرذور فيل عظيم ابيض كان عند المهدي (رحمه الله) أرسله له بعض ملوك الهند ^(١) ، وثياب فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب ، وبسط ديباج من طبرستان ، وأعطار من ايمن والحجاز ، ومسك وصندل وأعواد تد من الهند ، وسُرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلاييه من الذهب الملبس بالوشى ، ومِزولة كبيرة تدل على الأوقات في ليل ونهار ، وهى من عمل صنّاع بغداد ، وشَطْرَبَج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش ، صنعته نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تمثل الشاه ، وهى من الحسن بحيث إن الناظر إليها يكبر صناعتها وقد مثل فيلا يلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندى قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حمير ^(٢) ، وقد أظهر هذا الرسام فى تصويره من الخلق ما يستحق عليه الثناء ، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم ، وجعل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطى وهى لباس الهنود ، واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والأزمة ، وقاد الفرسان شيئا من السلاح ما عدا الجندى الذى أخذه الفيل بخرطومه فإنه يعالج نفسه للتخلص مما هو فيه ، وقد طرح سلاحه على الأرض وعليه سمة التوجع والانكماش ^(٣) مما يشهد للمثل بأنه من مهرة الصناع .

المرور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رسم لى طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم إلى بيروت على ساحل البحر ، وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقا بالفيل والدواب المثقلة بالأحمال ،

(١) ذكره الأغانى ٩ : ١٣٦

(٢) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥

(٣) هذه الأداة لم تزل إلى هذا اليوم محفوظة عند الفرجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك .

فاجتازنا بعد الانفصال عن الحاضرة بمدينة النيل التي مصرها الحجاج^(١) ، وهي بمتصف ما بين بغداد والكوفة^(٢) ثم عطفنا إلى الأنبار^(٣) ثم إلى مدينة الكوفة فترلت بها في رحبة خُنَيْس الأنصارى من أجداد أستاذى أبى يوسف رحمه الله^(٤) ، وهي فى مقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل^(٥) ، وقد طاب لى المقام بين أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت^(٦) ، (شرفهم الله) ولا سيمًا فى قوم كندة من ملوك النصرانية ، وهم من غلاة الشيعة^(٧) وأكثرتهم عالم وحكيم وأديب كان بيتهم معدن العلم ومظهر الحكمة ، وقد لقيت منهم إسحق الكندى وهو عامل الرشيد على الكوفة ، قلده الإمارة بإيعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة^(٨) ، ويغنون من إلف الرعاية فيما بينهم تعظيم الإسلام فى انتفاعه بحكمة الأمم وعلومهم وصناعاتهم ، وقد جروا فى ذلك على سنة أبيهم خالد (رحمه الله) وهو الذى قرب بعض النصارى إلى أبى جعفر كما تقدم فى موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق^(٩) ، وهى ذات ماء وشجر ونخيل^(١٠) ، وقد رُت أن تكون فى الكبر كنصف بغداد ، فحق تسميتها بالكوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم تكوف الرمل إذا ركب بعضه

(١) القناوى ١٣٥

(٢) ياقوت ٢٤ : ٨٨٣

(٣) المسعودى ٢ : ١٤

(٤) ياقوت ٢ : ٧٦٢

(٥) الأغانى ٥ : ١٦٦

(٦) هذا معروف فى كتب المؤرخين وذكر أبو الفداء ٣ : ١٤ أن كبير علماء الكوفة كان يميل

مع الإمام على كرم الله وجهه .

(٧) الوطواط ١٢٥

(٨) المحاضرة ٢ : ٨

(٩) ابن جبير ٢١٣

(١٠) القناوى ١٣٦

بعضاً (١) ، وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ، ولكنني لم يتيأ إلى زيارتهم لقصر الوقت ، ولقد وجدت إسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذي أكتفى من الدلالة عليه بأن أسف لبعده عن الإسلام . وهو يسكن داراً مباركة تعزى إلى عقیل بن أبي طالب (٢) ، وهي بإزاء المسجد المبارك الذي قال فيه بعض الصالحين إن ركعتين فيه تعدلان عشرين سواه من المساجد ، وإن البركة منه إلى اثني عشر ميلاً من حيث أتيته (٣) ، وقد زرت قبيل الانفصال عن المدينة ولم أرفى عمد المساجد كلها ما هو أطول من عمده (٤) ثم زرت مشهد على عليه السلام (٥) ، وتبركت به وقرأت عنده شيئاً من القرآن .

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عن الدواب المحملة ، فانقطعت في الفلاة مع جماعة من الحرس ، ورحنا نقطع القفر بعد القفر ، حتى إذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وظرائفها (٦) وحننت إلى مجالس البرامكة والدار عندهم جامعة ، وأوقات الأُنس بها رائعة ، فكنت أقول متمثلاً بكلام إسحق النديم (٧) :
على أهل بغداد السلام فإنني أزيد بسيري عن ديارهم بعدا
إذا ذكرت بغداد نفسي تقطعت من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا

(١) تقويم البلدان ٣٠١

(٢) الأغاني ٤ : ١٨٢

(٣) ياقوت ٤ : ٣٢٥

(٤) ابن جبير ٣١٣

(٥) تقويم البلدان ٣٠١

(٦) القزويني والأغاني ٥ : ٩٤ و ١٧ : ٧ وفي غير موضع .

(٧) الأغاني ١٧ : ٧٥ وذكر ياقوت في صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت فرجما لم يكن الشعر له بل كان من نظم إسحق لأنه كثيراً ما كان يذكر بغداد ويشوق إليها وهو في أسفاره مع الرشيد ويقول :

ذكر الأحبة فاستحقّ وهاجه للشوق نوح حمامة وحام
لم ييده في الصدر إلا أنه حيا العراق وأهله بسلام

ولم أزل مجدا في السير حتى بلغت دِمَشق في ائتنى عشرة ليلة^(١) ، ولَو أنى
سرت تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام^(٢) فما دونها ، فترلت فيها عند قاضيها
الإمام عمر بن أبي بكر بن تميم القرشي العدوي^(٣) في دار بناها عويمر أبو الدرداء ،
وهو أول من ولي القضاء بِدِمَشق ، وكان القضاء فيها يسكنون قصر الحجاج^(٤) ،
المعروف بالقصر الكبير .

أما الشام فإنها بلاد مباركة كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات ، إلا أنها نكدة
الحظ في تغلب الأمم الغازية عليها ، ولذلك قلت عمارتها إلى هذه الغاية بعد تغلب
الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما
قبيل أن يظهر الإسلام ، وقد كانت تمزقها الحروب التي تسعرت نيرانها بين
بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين للروم ، فانتقض عمرانها ودرست
سبلها وتداعت أحوالها إلى الانحلال بعد أن كانت في عظمة لم يكن مثلها في الدول
إلا قليلا ، وكانت فيها التجارة كأعظم ما يكون من النفاق وللعلوم والصنائع سوق
رائجة رابحة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من
مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وإنما دعا أهلها إلى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك
إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان في نفوسهم من التحزب

(١) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٢) الاثليدي ٢٦٣

(٣) قضاة الشام .

(٤) الاثليدي والمستطرف ١ : ٢٨٧

الذى هو أشد من الفتنة^(١) ، فكان ظهور المرسلين فيهم سببا لتعصب بعضهم على بعض وإن كانت مواعظهم داعية إلى المحبة والاتحاد . وهذا هو الأمر الغريب الذى لم يسمع بمثله فى البلدان ، فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبين وموطن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الأنصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس فى شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتا من شملهم ومتفرقا من كلمتهم وأغراضهم ، إلا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم . فانما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألا يتعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الأمم لا تحصل إلا بالاجتماع والعصبة ، سنة الله فى خلقه . انظر إلى الدول الرومية كيف عبث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ ، وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلا عند ما تحالف عليها صبيتهم^(٢) فيما يرومون إليه من طمع النعيم ، وانظر إلى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة ، فلما اجتمعوا فى المغرب إلى إدريس بن إدريس (رضى الله عنه) قام لهم ملك يرجف له الشرق ، فإن تنظر إلى ذلك كله وإلى كثير مما وقع وما هو واقع فى الممالك تجد أن الأمم لا تقوم دولهم إلا برابطة الاجتماع والعصبة ، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداع أحوالهم إلى الاضمحلال .

(١) هكذا كانت الشام فى زمن الجاهلية والإسلام فإن مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريد أن به إلى يومه مثل ذلك .

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد أنه قيل لبعض بنى أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا .

وصف دِمَشْق وأنها بهجة البُلدان

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغُوطَة امتلأت عيني من خضرة الأرض حتى تخيلت نفسي في جنة من جنات السماء ، ولا غرو فإن مياها وأشجارها ورياحينها لأفضل ما في الدنيا من المتزهات ^(١) ، يسير الرجل في رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضه على بعض ، وهي في أسمى مقام بين مدن الإسلام ، بعد دار السلام . قد اشتبكت فيها العِمارة ^(٢) وتزهت عن المثل في النضارة . لكنها ليست بالمفرطة في الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميل منها إلى العرض ^(٣) ، وهي لا تخلو من السقايات ^(٤) في أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقات فوق طبقات ^(٥) وتحتوى من الخلق على العدد الكثير ، والناس على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عادًا أول من نزلها من الناس وإنما هي إرم ذات العماد ^(٦) ، ومنهم من يذهب إلى أن بانيها الغادر غلام نمرود ^(٧) أو دمشق بن كنعان ، ومنهم من يزعم أن الذى اختطها هو دمشقس مولى الإسكندر الرومى ، ^(٨) ومنهم من يرى غير ذلك . إلا أنه ليس فيما يقولون حجة ترجع بهم إلى محاسن التحقيق في وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزّون بناءها إلى الروم ، فإن الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن أتى موسى كليم الله على

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٢ : ٥٨٩

(٢) القزوينى ٢٦

(٣) ابن جبير ٢٨٥

(٤) المقرئ ٣٠ وابن جبير وابن بطوطة وياقوت ٢ : ٥٩٠

(٥) ابن جبير ٢٨٥

(٦) ابن خرداذبة ٧١ والقرمانى ٥ : ١١٨ والشريشى ١ : ٢٠٧

(٧) الكز ٢٣

(٨) القرمانى ٥ : ١٩٣

ذكر دمشق في غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في ذلك فإن هي إلا مدينة أولية ^(١) قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبنى أمية دهرًا طويلا ونالت من العزة والعارة ما قل أن يناله غيرها من المدن ، ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقي ماثلا إلى هذه الأيام لكانت دمشق زينة الدنيا ، ولكنه شيد من طين ولين فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثاره ^(٢) فلم يبق منه إلا قلعة من الحجر تعزى إلى الروم ^(٣) وقصر يقال له قصر جيرون عليه أبواب عجيبية من النحاس ^(٤) وبناء يقال له البريص فيه كثير من العمد ، وتزعم العامة أنه كان يجري منه الشراب في قديم الزمان غير أن أركانه اليوم قيام وقعود . وحيطانه ركن وسجود ^(٥) ، وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز ^(٦) وللوليد بن عبد الملك ^(٧) وهما جميع ما تخلف عن ملوك بني أمية ، لأن ما نجا من معول الزمان لم ينتج من معول أبي جعفر ^(٨) ، كما مر في موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت أهل دمشق أحسن الناس خلقا وخُلُقًا ، يكرمون الفقراء ويتلمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة السائل ^(٩) ، ولو أن فقيرا أعرض عن كسرتهم لقالوا ويحنا لو علم فينا خيرا لتناول من طعامنا ^(١٠) ، وقد بلغني عن

(١) تقويم البلدان ٣٥٣

(٢) فلائذ العقيان ٥

(٣) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣

(٤) المسعودي ١ : ٢٤٢

(٥) المسعودي ١ : ٢٩٧

(٦) ابن جبير ٢٩٣

(٧) المقدمة ١٥٤

(٨) ابن الأثير والمسعودي ٢ : ١٤٣ والخميس ٢ : ٣١٤

(٩) الأبرشي ١ : ١٢

(١٠) ابن جبير ٣٨٨

فضلاهم أنهم يزهدون في الدنيا وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين في جبل لبنان^(١) ، غير أنى لا أطلق هذه الرواية إلا على فئة قليلة من الصالحين ، لأن جمهورهم مائل إلى اللهو والطرب ولا سيما في يوم السبت ، فانهم لا يشتغلون فيه إلا بالمجون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حَجَرٌ على المملوك ، ولا للوالد على الولد ، ولا للرجل على المرأة^(٢) ، وهذا أمر غريب لم أره في غير دمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم في ذلك ، لأنى رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والأحياء ، قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم^(٣) ، ويقال إنها من أعظم بيعهم بعد بيت المقدس .

وبقيت في دمشق ثمانية أيام إلى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الأموى الذى أتعب خاطر الرشيد أمره فلم أجد له غرضا في السياسة ولا هو طامح إلى ملك ولا إمارة ولا يحدث نفسه بشيء مما يقايق بال الرشيد حتى يخافه على أمره ، فأمسكت عن السعاية به لأنى رأيته وهو خلو من هذه الأغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس إلا ، وقد تهيا لى باستطلاع خبره أن أقف على سير غيره من أقارب الخلفاء متابعة لما نُقِلَ إلى من خبره فوجدت في الأولين عقلا وسياسة إلا أنه لما صار الأمر إلى صبيبتهم المستترفين استرسلوا في القصف والتهتك^(٤) ، وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية ، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم .

وقد انتهى ترف ملوكهم إلى الوليد بن يزيد^(٥) وهو الذى أخذت الخلافة في الانحلال بين يديه ، وتحرك الدعاة في نحر اسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة

(١) ابن جبير ٣٨٩

(٢) القزويني ١٢٨ وابن بطوطة ٢ : ١٩٧

(٣) ابن جبير ٣٨٥

(٤) الأغاني ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم .

(٥) الدميرى ١ : ٩٠

بأمور الملك وعكوفه على اللهو والطرب ^(١) وقيام خلافته بين الكاس والوتر ^(٢) وقد استرسل في التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده في بيت المال ، لأنه أفرط ، في الكرم إفراطا فاحشا حتى إنه لم يقل « لا » في سؤال سئله ^(٣) ، وكان إذا وصل الشعراء عدّ أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم ^(٤) ، وكان يتأنق في صنوف الملاذ من المطعم والمشرب والملبس فيقال إنه لبس القلنسوة من الوشي ^(٥) مذهبة ، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها في اليوم مرارا ^(٦) لشغفه بها ، وكان يتختم بالياقوت ، ووقع من خواتمه إلى بنى العباس ^(٧) خاتم يساوى أربعين ألف دينار ، ويقال في حسنه إنه كان إذا أخرج من محبسه أعضاء المكان من شدة لمعانه . وكان يسترسل في الطرب إلى أن يوجه رساله ^(٨) في طلب المغنين من الحجاز وغيره ، فتجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد ، وإنما هناك وجوه قد ساقط عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شرقتلة . هذه نتف من أخباره حدثتني بها مغنية كانت له يقال لها برق الأفق ^(٩) ، وهي اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر وقد أخبرتني في بعض حديثها أن الجوهر كان في صباها متدولا بين الناس ، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به فلا ثمنه منذ ذلك الحين ^(١٠) ، وهذا شيء من الإفراط في الترف لم نسمع بمثله عن

(١) المسعودى ٢ : ١٤٦

(٢) ابن خاقان ٤٤ في قصيدة ذكرها هناك .

(٣) أبو الفرج ٢١٠

(٤) الأغاني ٦ : ١٤٨

(٥) الأغاني ٦ : ١٤٦

(٦) الأغاني ٦ : ١٢٩

(٧) المستطرف ٢ : ١٩١

(٨) الأغاني ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودى ٢ : ١٤٦

(٩) الأغاني ٣ : ٨٧

(١٠) الأغاني جزء ٦

أحد من الملوك المترفين . ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصلوة وما صاروا إليسه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية .

ولما طال مقامى بدمشق تهيأ لى أن أزور أماكنها المشهورة ، فزرت موضعاً يقال إن هابيل وقابيل نزلا فيه ^(١) ، وموضعاً يقال له باب الساعات ^(٢) يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرايين فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبق في موضعه على الصخرة . وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين ^(٣) في جبل قاسيون ومقابر الشهداء ^(٤) وجبانة الباب الصغير ^(٥) ويدنها قبور ملوك بني أمية ^(٦) مهتمة والرخام عليها متكسر ^(٧) ، وزرت قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة ^(٨) يزعم الناس أنها مولد الخليل إبراهيم (عليه السلام) ^(٩) حزين الملائكة وإلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون إنها الحجارة التي رض بها قابيل رأس أخيه هابيل ^(١٠) ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم ^(١١) ، وفي حضيض

(١) القزويني ١٦٢

(٢) ياقوت ٢ : ٥٨٨

(٣) ابن جبير والشريشي ٢ : ٢٣٦ والطبقات ١ : ٢٩ والمسعودي ٢ : ٤٢

(٤) قضاة الشام .

(٥) ذكرها ابن خلكان .

(٦) الخميس ٢ : ١٤

(٧) المسعودي ٢ : ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير ٥ : ١٣٠

(٨) ابن جبير ٢٧٥

(٩) ياقوت ٢ : ٥٨٩

(١٠) القزويني ١٢٦

(١١) ياقوت ٢ : ٥٨٨

الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نبيا ماتوا فيها من الجوع وإني لأستحي أن أنقل حديثهم كما قالوه فإنهم يقولون إنهم سبعون ألف نبي^(١) كأن كل من عاش في الشام نبي أو ولي ، وفي طرف الجبل مما يلي الغرب ربوة^(٢) يقول المفسرون إنها هي المذكورة في قوله تعالى « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون بأن المراد بها ربوة في الإسكندرية^(٣) من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوى إلى مغارة بجانبه ، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين ولم يفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كرمان مشقوق^(٤) ، ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والخضرة في جميع جوانبه ، ولا إشراق كإشراقه حسنا وجمالا واتساع مسرح للأبصار . وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة^(٥) أكبرها نهر يزيد ونهر ثوري^(٦) وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بعض قرى مثل نيرب ومن^(٧) والسهم وسطرى^(٨) ، وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتطول الشجر عليه ، وفيها من الفواكه والتفاح والنخوخ وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثله صحة وطيبا^(٩) ، وإلى ما يليها من طرف الجبل موضع يقال له عين برما^(١٠) كان

(١) القزويني .

(٢) ابن بطوطة ١ : ٢٢٣

(٣) المحاضرة ٢ : ٣

(٤) ابن جبير ٢٨١ والقزويني .

(٥) تقويم البلدان ٣٥٢

(٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٧٨

(٧) ابن جبير ٢٧٩

(٨) كليات ٢٠٢

(٩) الكنز ١٤٤

(١٠) المسعودي ٣ : ٨٣

معمورا لأيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية كليل العين . وبقى الأثر من عمارته وذهبت العين .

ولقد كانت دمشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصاة من فضلات العمران ويعيها كثرة الوحول في أزقتها وتراكم الطين في ساحاتها ، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا في إزالة الأقدار ^(١) منها وقاية من الطاعون الذي كان يقع بها تباعا في السنين السالفة ^(٢) وهذا هو الأثر الذي تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشبيدهم البناء على الهندسة التي لا نجد أعظم منها وقعا في القلوب ولا أتم حسنا وجمالا في العيون ، كالذي يبلغنا عما بنوه في الأندلس ^(٣) من القصور التي حارت في جمالها عقول الفرنجة ، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم في دمشق فوجدتها بدعة الحسن مبنية بالبحر والصفاح والأعمدة مفروشة بالرخام الأخضر ^(٤) ، وهي تنتهي في البهاء والإشراق إلى أن يضرب بها المثل ^(٥) في إحكام رسومها وجلالة بانيها ، ولو لم يكن من تمام زينتها إلا الأعمدة المزخرفة منصوبة في أروقتها فرادى وأزواجا لكفى البصائر روعا ووسع الأبصار ابتهاجا . وأذكر أنه لما أدخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة ^(٦) لم يتحول نظري عن القصر لما راعني من حسنه

(١) أبو الفداء ١ : ٢٠٧

(٢) راجع ابن الأثير والمسعودي والعقد الفريد . وفي مروج الذهب من كلام عن الكوفة أنها

ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبأها ٢ : ١١٦

(٣) راجع المقرئ والعقد الفريد وابن الأثير .

(٤) الوطواط ١١١

(٥) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤

(٦) الوطواط ١١١

المفرط وأعجبت به من الزينة التي يكبرها الناظر ويقف عندها وقمة الداهل الذي به عقدة من السحر ، وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن ^(١) نخرمة وخرجات مزينة وطيقان مجسمة بالحص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الأفكار فتجده وتميل إليه الأبصار فلا تملّه .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي

هو أنخر مأثرة للملك بني أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره ، وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد ^(٢) والقصور ، وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، حتى كان الناس في أيامه إذا تلاقوا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العمارات وعن أي بناء شرع فيه خليفتهم ، كدأبهم في التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبدالعزيز ، وعن الطعام في أيام سليمان بن عبد الملك ، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد ، وليس في بلاد الإسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا وإتقانا ^(٣) وجمال رسم وتمام زخرفة وزينة ، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيان الثوري أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة ^(٤) .

كان موضعه قبل الإسلام بيعة للنصرانية تعرف بكنيسة مار يحننا ^(٥) ، ومن قبل ذلك كان بيت عبادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عنوة

(١) ذكرها الأغاني ٥ : ١٠

(٢) ابن جبير وياقوت ١ : ٥٩١ وابن الأثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزويني ١٢٧

(٣) ابن جبير ٢٦٣ والشرنوبلي ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧

(٤) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ وابن جبير .

(٥) ابن الأثير وأبو الفداء ١ : ٢١٠ وياقوت ٣ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٩٨

تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحا فأتتهى إلى نصفها الآخر ، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى فبقي نصفها في أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذي يهدم بيعتهم يحقّ ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يحقّ في سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده ^(١) فبادر المسلمون وأكلوا تخريبها حتى هاجت النصارى وعلا صياحهم ، فعوضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم بكنايس عدّة صالحهم عليها ^(٢) ، ثم وجه إلى ملك الروم ^(٣) في أشخاص اثني عشر ألفا من العملة والصناع المرشحين ، وتقدم إليه بالوعيد إن هو توقف ، ثم أكل هدمها سوى حيطانها ، وأنشأ فيها القناطر وحلّاها بالذهب وعلق فيها الأستار من الوشى والإبريسم ، وبقي العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيها ألف مرخم يجلب إليهم الرخام ^(٤) والمرمر من كنيسة أخرى لأئم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور ^(٥) .

وقد غريم الوليد في هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنة مائة وأربعة وأربعين قنطارا ^(٦) بالدمشق ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار ^(٧) ، وقرأت في بعض الكتب أن جملة المنفق عليه كان أربعائة صندوق ، وفي كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، ففي القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين . وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز ^(٨) قبل أن يلي الخلافة ، وقد اتخذ في المسجد

(١) ابن جبير ٢٦٤

(٢) الخميس ٣ : ٣١١

(٣) المقدمة ٢١٠

(٤) تقويم البلدان ٢٣٠

(٥) المسعودى ١ : ٢٧١

(٦) الخميس ٣ : ٣١١

(٧) ابن جبير ٢٦٣

(٨) المسعودى ٣ : ١١٩

ستمائة سلسلة من الذهب ^(١) للقناديل والثريات ، وزين جدرانها بفصوص من الذهب والفَسَيْفَسَاءَ ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثل أشكالاً من الرسوم لم ير أبهج منها في العيون ، ورفع عمده من الرخام المجزع طبقة فوق طبقة ^(٢) ، واتخذ الأساطين الضخمة فيما يحاور الأرض ، والسواري الدقاق فيما يعلو الحنايا والقباب ، وفي خلال ذلك صور المدن والأشجار بالألوان والذهب ، وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد « ربنا الله ، لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين » ^(٣) .

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خطوة أو ثلثمائة ذراع ^(٤) ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة . وأبوابه أربعة . أولها الباب الشرقي ويعرف بباب جِبرون ، وعليه عمودان من الحجر في غاية الإفراط في الطول والعرض ، يقال إنهما من بقايا الكنعانيين ^(٥) ، إذ ليس في وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما . ثم الباب الشمالي ويعرف بباب الناطقين ، وكان مدخل الكنيسة قديماً . ثم الباب الغربي ويعرف بباب البريد ، ثم الباب الجنوبي ويعرف بباب الزيادة وهو يُقْضَى بالخارج منه إلى دار معاوية ^(٦) المعروفة بالخضراء ، وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف . وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التي اتخذها معاوية (رضي الله عنه) عندما كان للمسلمين نصف الكنيسة ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، وهي أول

(١) ياقوت ٢ : ٥٩٥

(٢) ياقوت ٢ : ٥٩٣

(٣) القزويني وياقوت والمسعودي .

(٤) ابن بطوطة ١ : ١٩٩

(٥) القزويني ١٢٧

(٦) أبو الفداء ١ : ٢٠٤

مقصورة صنعت في الإسلام^(١) ، بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يقتلوه في أوقات الصلاة كما اغتالوا عليا عليه السلام ، فكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف^(٢) ، وإلى جانب هذه المقصورة خزانة مغطاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام^(٣) وأخرج إلى منها صاحب الوقوف خاتما من الفضة للوليد بن عبد الملك ، قد نُقش عليه «يا وليد إنك ميت ومحاسب» ، وآخر لأخيه سليمان وكلماته «أمنت بالله مخلصا»^(٤) ، فأخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتي إلى بغداد ليضيفهما إلى مالديه من خواتم الخلفاء ، وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رصاص يمتد منها إلى أن يغطي سطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار في عرض ثلاثة ، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة . وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه ، وكأنما القبة رأسه ، وهي في سمو الارتفاع بحيث تراها من أى موضع استقبلت دمشق . أما صحن المسجد فإنه من أجمل المناظر ، وعلى جدرانها آيات من القرآن الكريم ، ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومنتزههم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرءون ويتحدثون .

ولهذا الجامع ثلاث صوامع^(٥) واحدة بالجانب الشمالى وهي مذهب من أسفلها إلى أعلاها^(٦) ، وفيها مقاعد ومجالس ، واثنان بالجانب الغربى وإحدهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجدت في أروقته ودهاليزه وصحنه وفي المساجد المتشعبة منه ماء يجري بلا انقطاع ، وشاهدت في البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من

(١) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١ : ١٩٩

(٢) الفخرى ١٢٩

(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣

(٤) المسعودى ٢ : ١١٩ والخميس ٢ : ٣١٤

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٠٣

(٦) الشريشى ١ : ٢٠٨

المقصورة الصحابية تابوتا معترضا من الأسطوانة وفوقه قنديل موقد أبدا في الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ^(١) ، ومن حوله عمدة عجيبة قد ظهرت فيها عروق أخرى من غير ألوانها تتخللها العين منزلة فيها بأيدي الصنائع ، إلى غير ذلك من المحاسن التي حواها هذا الجامع المبارك ، وعظمت عن أن يحيط بها وصف ، فإني لأحسب الزائر لو تردد إليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبل ^(٢) من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسب أنه لا يزوره أحد إلا وهو يحدّد الدعاء لبانيه ^(٣) وإن لم يكن له ميل في السياسة مع الأمويين .

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رَجَعْتُ إلى قصّ الرحلة . رَكِبْتُ من دِمَشْق في غد اليوم الذي سافرت فيه الغلمان إلى بيروت ، فوصلت في منتصف الطريق إلى بلدة غناء ذات سور قديم يقال لها بعلبك « ومنها إلى الزبداني وهي مدينة على طرف وادي بردى ثمانية عشر ميلا » ^(٤) وهي ذات أشجار وأنهار وعيون وخيرات كثيرة ^(٥) وفيها الكرم الخصب . ولقد لقيت فيها فيلسوفا من النصارى يقال له قسطا بن لوقا ^(٦) ، صاحبنى في زيارة الآثار التي فيها وأخبرنى عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها في سياق الحديث .

(١) ابن جبير ٥٧٥

(٢) القزويني ١٢٧

(٣) ابن جبير .

(٤) تقويم البلدان ٢٥٥

(٥) ابن بطوطة ١ : ١٥٨

(٦) المقرئ في ترجمة يعقوب الكندي .

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة يجمع قلبى حيرة وإعجابا ، وأعظمها هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر ^(١) وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة فى الحجر ما لا يتأتى حفر مثله فى الخشب ، مع ارتفاع جدرانها وضخامة حجارتها وطول أساطينها وعجيب بنيانها ^(٢) مما يذهب العقول تعجبا من اقتدار الرجال على مثل هذه العظام . وقد أخبرنى قسطا هذا الفيلسوف أنه لا يرى إلا أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة فى فن الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التى تُقْلَهما إلا أعتق من الآثار الظاهرة ، وفى ظنه أنها وضعت فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، ولما جاءت الروم الأولى هدموا المعبد العتيق ، ورفعوا الهيكل المائلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التى تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم بأيدي عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى فى البنيان ، وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام كدأهم فيما يحدثون عن كل أثر ^(٣) من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين . وإنما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية ^(٤) يدلنا على ذلك ما نجد فى أطرافها من النقر التى تقضى بأنها كانت ترفع جرا بالأمراس بأن يمهدها فى الأرض سطح من التراب يرتفع شيئا فشيئا مع امتداده إلى أن ينتهى إلى حيث هى مرفوعة ، ثم تجر بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تغوص فى التراب صغيرة الحجر حتى تحتمل الثقل ، وتكون أشد من البكرات الكبيرة التى لا بد أن تلتوى تحت هذه الحجارة العظيمة ولا تأتى بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٢) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٣) نجد فى كثير من كتب العرب نسبة المباني العتيقة إلى الجن .

(٤) المقدمة ٣٥٨

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعطيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويبيتوا في أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم، فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلاف الألوف، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفالاته. فلما دانت لهم الشام وكان بعل^(١) معبودا فيها من الصابئة وغيرهم كما قال تعالى «أندعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين» بنوا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الإعجاز ايظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظام الأمور، إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إلى المنفعة موضع في نظر العقلاء. فهذا أحد اللولين اللذين يفضيان بالراق عليهما إلى سطح الهيكل قد اتخذ أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فصلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد اتخذت في أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبل للهيكل، فلو أنه أريد بها المنفعة لاقتضى ذلك أن تكون في أسفل الجدار لا في أعلاه، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ من قطعة واحدة قائما فيما يدانى الأرض أو يماسها، حتى إذا وهى أعلاه بقي هو في موضعه، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مرذا لهجوم العدو.

ثم إنه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجة للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهى دونه في البهاء والإشراق مضرًا بالنصرانية وحابس لها عن أن تعم الشام، فعمدوا إلى تخريبه ومحو الأثر المائل منه. وكان في القسطنطينية بطرك ذو عقل ودهاء يقال له قم الذهب يحنا، فأشار على القيصر أن يتخذ كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

الأثر الجميل ، فاتخذته كذلك . وفي رواية أنه أشار عليه بأن يعمل فيها الفؤوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر إلى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الأمم فقد شادته الروم الأولى لغرضهم في الدنيا ، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم في دينهم ، ثم مثلت آثاره لهذا الزمان ناطقة بعزة الله شاهدة أن لا باقى سواه .

ولما انفصلت عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البقاع وعرجت فيه على موضع يسمى بـكَرْخ نوح^(١) يزعم أهله أن فيه قبر صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقرّبة من كل قرية من قرأه ردوما قد تراكت أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت ، وصرفت من بعلبك إلى بيروت يومين في جبل لُبنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميل إلى عيون القرى لتنزيه النفس وإرواء الظمأ ، وإنها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمدّع في شعفاته . وأقمت في بيروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، وهي مدينة جليّة^(٢) على ضفة البحر ، طيبة الإقليم ، عليها سور من حجارة^(٣) تحف بها عمارة مشتبكة في سفح لُبنان كان يستجيدها الوليد بن يزيد المتقدم ذكره فيقول^(٤) :

رب يبت كأنه متن سهم سوف تأتيه من قرى بيروت

ثم يقول^(٥) والنفس تائقة إليها والقلب مشغوف بجماها :

ألا يا حبذا شخص حمى لُقياه بيروت

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام ، وفي مرساها مجتمع كثير من سفن التجارة ، ويحلب منها حديد^(٦) لبنان إلى ديار مصر ، وفي شرقيها نهر يغلظ في الشتاء قد بنى

(١) ابن بطوطة ١ : ١٣٣

(٢) تقويم البلدان ٢٤٧

(٣) الإدريسي .

(٤) الأغاني ٦ : ١٢٢

(٥) الاغانى ٦ : ١١٧

(٦) الإدريسي وابن بطوطة ١ : ٣٣١

له قدماء أهلها قناة^(١) يُجرون الماء فيها إليهم ، وإلى غربيها مشهد الأوزاعي (رحمه الله) ، وميلاده ببعلبك^(٢) وهو نحر المحدثين من أهل الشام ، وله في علم الحديث^(٣) مدونات جمع فيها الصحيح المروى عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرده به أهل تلك البلاد .

وقد كان لبيروت شأن عظيم في غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم بأعباء الدول الجسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية في الرواج ، حتى لأنها دُعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منازل وهياكل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها جلاء لم يرجعوا بعده إلى أن عاد إليها العمران في الإسلام بقيام الخلافة في دمشق ، إذ كانت المدن لا تصالح إلا بقيامها بالملك أو قيام الملك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنت قد شهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فاني لا أنكر ما في ريحها الشمالية من الرطوبة التي تحدث في الرأس أما لا يشعر به إلا الغريب الزائر^(٤) ، غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعتده من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بيروت ريح الصبا التي تتعش النفس ، تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، وربما وجدت هذا الموضع أصلح للسكنى من البلد العتيق . وفي ظني أنه إذا توافر العمران فسيضطّر الناس أن يحدّثوا بناءهم في هذا الموضع إذ هو أقرب وجها إلى نسيم الصبا منه إلى ريح الشمال .

وركبت البحر من هذا الثغر المحروس في أول يوم من شعبان ، وجرى مركبنا بهواء شمالي لطيف ليس بالثقل ولا بالخنيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ،

(١) تقويم البلدان ٢٤٧

(٢) أبو الفداء ٣ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠

(٣) ابن خلكان .

(٤) القزويني .

واستمر سيرنا في البحر نحو عشرين يوما إلى أن أقبلنا على مالطة ، وهي جزيرة في أول بلاد الفرنجة ، وبها كنائس معظمة لأمم النصرانية ، فليئنا يومين في مرفئها نتسوق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلية في ساحل الديار الرومية إلى غرب اللبديّة (١) .

لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نرها شيئا من زخارف البنيان . ولا وجدنا في أهلها أثرا من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الأبرذور أهل جاهلية وخشونة ، تستعبدهم طائفة طاغية من أنفسهم ، تجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس ، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميرا فؤض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال ، وجعله بمنزلة الوزير في الإسلام . وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب في ولايته ، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره . وائس في مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبني على علياء تشرف على المدينة ، يظهر أنه كان مسكنا لبعض أمراء الجاهلية ، وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبها هذا الأبرذور الذي نصر أمته ونصر القسيسين والرهبان كما هو معروف ، وقد نظر بعين العناية إليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم ، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم في أموره ويرجع في السياسة إلى رأيهم ، إذ كان القوم من دونهم همجا لا يعرفون القراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل ، ومعظمهم عبيد للتمول من التجار ، يموتون جوعا بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق تعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة تمسك رمقهم ، فأبن هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين أيديهم واحتوائهم أشرف السنن العادلة ؟ فكان الله تعالى قد خص هذه الأمة من الفضل والنعم (٢) بما حرم مثله أمة المغرب . فان

(١) تقويم البلدان ٣١٩

(٢) المسعودي ١ : ٢٣٦

العرب أحلى منهم وأحلم ، وأعلى وأعلم ، وأقوى وأقوم ، وأعطى وأعطف ، وأحصى وأحصف ، وأشرى للفخار وأشرف ، وأنفى للعار وأنف . وحسبى بما نقلت إليك من أخبارهم فى هذا الكتاب دليلا على ما ركب الله فى طبائعهم من الأتفة وعزة النفس ، وما آتاهم الإسلام من المحاسن التى تشرفهم وتعالى ذكركم .

وقد شاهدت فى ديار القوم كثيرا من الأمور التى أخاف إن أتيت على بيانها أن تجر الحديث إلى الخروج عما أنا بصدد من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتهم غير منطبقة على عادات الشرقيين ، بل كثيرها مستهجن أو باق على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم أن النساء يمشين فى الأسواق بلا نقاب ، ويجلسن مع الرجال سافرات الوجوه ، وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الأعراض صيانتها فى المشرق من وراء الحجاب . وقد وقع بينى وبين الأمير الذى صحبى فى مرسلية مذاكرة فى هذا الأمر وكان يظن أن المرأة ذليلة فى ملتنا وأن منع ظهورها إلى الرجال ناشئ من جهة استصغارها وتحقيرها ، فذكرت له أن الله تعالى قد وفاهن حقوقهن ^(١) فى الدنيا والدين ، ووعد الصالحات منهن نعيما مقيما فى الآخرة وأمر بأن تجرى عليهن الوراثة التى لم تكن لهن قبل الإسلام .

وكان أمير مرسلية عند ما اتصل به خبر وصولى بالرسالة قد أخرج إلى الجند ولم يترك شيئا من مظاهر الاحتفاء إلا أجراه فى سبيل تعظيمها وإجلالها ، فلما سألت عن الأنبرذور أخبرنى أن له غيبة فى رومة لأمر بينه وبين الباب ^(٢) الذى هو خليفة الأمم النصرانية ، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوما ، فاستطلت هذه الغيبة منه ، وخفت فوات الحج إن بقيت منتظرا رجوعه ، فرأيت أن أوافيه برومة ، فركب معى من لدن الأمير رسول إلى القيصر وجرنا عباب هذا البحر

(١) قد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله إن لنسائكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا إلى أن قال فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .

(٢) كنية البابا بالباب مذكورة فى تقويم البلدان ولفظها بتفخيم الباءين وتشديد هما .

الذى لم تجزه بعدُ سفن المسلمين إلى أن منّ الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة
بأيمن طائر وألطف ريح والحمد لله على جميل ما يولينا من النعمة ويتداركنا به من
اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذور خبر قدومى من لدن الرشيد فسير
إلى أمراء دولته وأهل حاشيته ويطانته ، فساروا بى إلى حيث هو مقيم فى دار
الباب ، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والإحكام ، وعنى البابون
من خلفاء بطرس كبير الخواريين بتجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهة جمعت
الجمال والحسن ، وكنت حين جاوز بى الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد
رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعباد قد طعنتهم رعى المنون ، فلما دخلت
عليه وجدته جالسا على منصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية ، وهى مجللة
بالذهب ، وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وفى يده قضيب
الملك ، وعليه حلة من الوشى كأعظم ما يكون من حلل الملوك ، وبين يديه حرس قد
وقفوا بالسيوف المشهورة والحرا ب والأعمدة ، وبينهم جماعة من العلوج وأشرف
العسا كرو طائفة من الخناتقة والرهبان المقدمين قد لبسوا الوشى الذى يقيمون به
الصلاة فى أعيادهم ومواسمهم ، ولكن لم نرمثله على من يجاورنا منهم فى المشرق
حسنا يعشى الأبصار بريقه ولمعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب على من الإجلال له وبلغته سلام الرشيد على
لسان المترجم ، فكلمنى بترفع الملوك الذين توقع جلالتهم مهابة فى قلوب الوافدين
عليهم ، ولكن من غير أن يكون فى نفسه جبروت ، وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه
ثناء جمىلا ، وكان الأمراء والرهبان يمدون إلى أعناقهم ويحدقون فى أبصارهم
كأنهم لم يروا من قبل مشرقيا على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى
الترجمان أن يذكر له هدية الرشيد وأنه يطرف بها جلالتة لارتباط المودة بينهما ،
فشكرنى على ذلك مرة ثانية ، ثم استدانى منه وأمرنى بالجلوس ، وأخذ يسألنى

عن رحلتى إليه عطفاً مال إليه بعد الترفع الذى استقبلنى به ، فكنت أجيبه بما تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة ، ثم سألتى عن الدولة فى المشرق وأنه يروم أن يكون الدهر للرشيد فى صفاء ، فأجبت به فى الإشارة إليه تحفظ عن ذكر بنى أمية ، والملا من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألت أنه يأذن لى بالدخول عليه فى خلوة وانفراد فأجابنى إلى ذلك وهو يظهر ائتناسه بى وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التواد .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتى أميراً من عطاء دولته ملك قلبى برقة نفسه ، وأحسن منقلبى بلطيف أنسه ، وأحل كرامتى عنده بالمحل الأرفع ، لم يترك أثراً مشهوراً فى رومة من قصر منيف ولا منزل مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء إلا سار بى إليه وأرانيه ليعظم فى عيني أمر الفرنجة ، فما كنت لأكبر من مبانيهم إلا الكنائس التى يعظمونها ويتأنقون فى تزيينها بالرسوم التى تنتهى فى الحسن وجمال الزينة ، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشاركة^(١) الذين ينههم الدين عنه^(٢) ، وإنما يكونون فى حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجداً أو قصرًا مزخرفاً كما علمت ، إلا أنه لا يصح انفرادهم بالحذق فيه دونهم لبطلان الموازنه فيما يتركه فريق يأخذ فيه الآخرون . وفى نفسى أن المسلمين لولا نهى الشرع عن التصوير ما بعد أن يفوقوا فيه الروم ، فقد رأيت من عمل الرسامين فى المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون فى جودة عمل الروم . ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة

(١) لم يكن للمشاركة فى زخرفة مبانيهم إلا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور؛ وقد ابتدعوا من رسومها أشكالاً تقيد الأبصار فى الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم فى الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التى اتخذوا فيها طريقة التزيين لئلا تعين بهجة وارتياحاً .

وهي تمثل رجالا ونساء وأولادا بحيث أن الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى ، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة ^(١) ، وهذه غاية في المهارة لم يبلغها إلا كبراء أرباب العقول من صناع الروم . وأعظم مشاهدت من كئاس رومة بيعة بطرس حوارى المسيح عيسى عليه السلام ، وهي من عجائب الدنيا ^(٢) ، وفيها من الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب ^(٣) ما أذكرنى جامع دمشق في بهائه وجماله ، وهي أبدع مشاهدته من مباني الروم ، وامتدادها مع مقصوراتها نحو ستمائة ذراع ^(٤) ، فيما سمعت ، وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك ^(٥) ، وهي مستقوفة بالرصاص مفروشة بأخضر أنواع الرخام . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للعمودية يجري فيه الماء دائما من نهريشق هذه المدينة ^(٦) كما تشق دجلة مدينة الزوراء . وفي صدرها كرسى مذهب يجلس فيه الباب في أيام المواسم والأعياد . وتحتيه باب مصفح بالفضة ^(٧) يوصل إلى السرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد ، ولكنى علمت أن أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قبض في أنطاكية لا في رومة ، وأن كرسى أنطاكية عندهم هو المقدم على كرسى رومة ، وفي هذه الأقوال نظرا لمحل لذكره في هذا الكتاب . وفي خارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد أربع من النحاس ، وفي أعلاه عمود من الصخر قد رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل من في رومة كأنها علم لموضع الكنيسة .

(١) القرمانى ٥ : ٢٢٤

(٢) المقرئى والمحاضرة ١ : ٣١ والقرمانى ٦ : ٥٥

(٣) القزوينى .

(٤) تقويم البلدان ٩٩

(٥) ابن خردادبة ٩٣

(٦) تقويم البلدان ٢١١

(٧) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة في أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل

الحروب الصليبية .

ولما كان الغد أذن القيصر لى بالدخول عليه فلقيته في ثياب من الديباج
وعليه تاج من الجواهر أعظم مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أن يظهر لى عظم
سلطانه ^(١) بما تحوى خزائنه من الجواهر والمال . ولما أمرنى بالجلوس بلغته
ما أوصانى الرشيد بتبليغه من أمر بنى أمية بالأندلس وما يروم من موافقته عليهم ،
ولكن بإيجاز أبعدت فيه التأكيد ليكون له إشارة إلى المصلحة ليس غير ،
نخاطبني بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزه الله) ، فأكبرت
ذلك من غير أن أعجب منه ، إذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد
على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد . وتتلاقى ولو على بعد البلاد .
ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكر في نفسه حتى ظننت
أنه سيقول لى إن من الناس من هم أقرب منهم ومن بنى أمية إليه . ثم انبسط له
بجال الحديث فقال إني لأرى الإسلام اليوم أقل اجتماع عصبية منه في أيام الخلفاء
الراشدين (رضى الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب . على أنى أرى دولة
صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رقعة مملكة . وأما أمر الأمويين فإنه وعرا المرام
لا يناله إلا على تمداد الأيام . إذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعميه على ضعفهم عن
رد العدو ، فلو شئت صاحبك عليهم لحوطوه بأطرافهم وقاتلوه بغرض واحد تدعوهم
إليه الحالة التي يقعون فيها جميعا من الغرر والإشراف على الخطر ، ولقد كنت أرى
تغلبه قسرا على الأندلس من قبل أن يوافيها الأمويون ، وقد كانت قضاتها على
أغراض متضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغلب الخيرة عليهم ، أما اليوم
وقد وافوها بالأموال ^(٢) فليس من السداد أن يبادئهم بالقتال على حين يأتون من
إفريقية بالمرتقة من الرجال « وهم الذين يكون أنفسهم للحروب » ^(٣) ، وربما

(١) ذكر صاحب الأغاني ٢ : ٢١ أن كسرى لما أتقذ رسوله إلى قيصر الروم عامله على السبريد

ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك .

(٢) المقدمة ١٥٨

(٣) المسعودي ٢ : ٤٠٩

تعذر عليه مقاتلتهم من المغرب لما هو ناشب من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوان من الأمويين وأهل البيت جميعا ، وقد قيل في الأمثال « إن الزئبر إذا جمع منه جبل يوثق به الفيل المغتم » ثم إنه ذكر لي عند ما استنصضته إلى مظاهرة الرشيد أن بينه وبين الأندلس ملوكا يجب أن يبقى معهم على عهد المسالمة والموادعة ، وأنه يوجه همته إلى مناصبة الملوك الذين هم في ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ما وقع بيني وبينه من الحديث ، وقد قال لي في خاتمة المفاوضات قل لأمر المؤمنين إني عنيت بحاجته وسأكون ظهيرا له فيما يروم واقراً عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصلحة منها إلى ما وراء التوادد الظاهر من السياسة كما رأيت ، وليئت في رومة ثلاثة أيام متواليات . وكان الأنبرذور قد اتخذ لي ويمة دعا إليها عطاء دولته ، وتكرم على بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف ، ثم طلب إلى أن آخذ الطريق إلى تونس لأوجه إليه منها برمة عظيم من عطاء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة ^(١) ، فأجبت بالامثال إلى ذلك ، فسير في صحبتي مركبا من أسطوله ليحملها إليه وغادر مركبنا ساحل رومة في يوم شديد الحر من شهر رمضان كأن الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضا وقد حَقَّ تسميته بـرمضان من الرمض وهو شدة الحر ^(٢)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على متن السفينة وبينى وبين تونس مسيرة يوم وليلة . والله أسأل أن يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل باليسير والتسهيل لا رب سواه .

(١) هو قبر يانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية .

(٢) الكنز ١٤٦

الرسالة التاسعة

المروء بتونس من بلاد العرب

كتبت إليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم أكتب إليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها إلى الرشيد . فإني لما قفلت من ديار الروم عرجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن ابن الأغلب وفادتي ، وأخرج إلى زورقا حملني عليه إلى المدينة ، لأن البحر يبعد عنها نحو عشرة أميال ^(١) ، وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامي بانخراج الرمة التي أوصاني بها القيصر إلى مركب الروم لإبعادهم عن صرف المسلمين اهتمامي بما سواه من الأمور . ثم إنني نظرت في شأن ابن الأغلب إبراهيم وانقطاع أهل الشيعة إلى حوزة إدريس بن إدريس (رضي الله عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، إذ كنت أوجب على نفسي أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد في هذه الرسالة التي حملني مجاشعها واستودعني فيها أمانته ، فاتصل بي من أخباره معهم جسيم حملت خبره إلى ملوك البرامكة (أعزهم الله) . وقد أذكرك حال العلويين في المغرب أيام علي وأبي بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله تعالى عنهم) من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أبهة الملك إلا ما تدعوهم إليه حاجة الخلافة ، وكذلك أهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافضة على القراءة التي قرأها علي (عليه السلام) إلا أن الأغلب (دمر الله ملكه) ينقم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلا أنهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل بيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التي ينقمها الأغلب من أهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم في صدر الإسلام وأسالت من دماء المسلمين بحارا بما تعصبوا له من الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب ، وكان أهل الشام في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن المقداد بن الأسود ، وكان عثمان أفي خلافته قد عقد مجلسا من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع لأقاليم والأطراف ، فجمع الرقاع والأدراج والخفاف والعُسب التي كان مكتوبا فيها القرآن الكريم ، وأمر بأن تحرق كلها وأن ينسخ من الصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر (رضى الله عنه) . وكانت مودعة عند حفصة^(١) زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) أربع نسخ^(٢) يبعث بها إلى الديار الإسلامية ، فتولى نسخها زيد بن ثابت الأنصارى^(٣) وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر^(٤) وقال لهم عثمان إن اختلفتم في شيء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم^(٥) . ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة في مكة والشام والكوفة إلا المصحف الذي كان في المدينة فإنه فقد في الحرب التي أثارها يزيد بن معاوية .

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر تَوًّا إلى الإسكندرية وفي نفسى أن أبلغها في عشرين يوما ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرة بضعة أيام إلى أن هدا نائر النوء وطابت لنا الرياح ، فسرنا بمعونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس . والقطر المأنوس . ليال

(١) أبو الفداء ١ : ١٦٦

(٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥

(٣) أبو الفداء ١ : ١٦٦ وابن جبير ١٠٢

(٤) الكندى .

(٥) أبو الفداء ١ : ١٧٦

خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار انتصب أمامنا في عِظَمِهِ وهول مرآه (١) حتى كأنه عمود يليق القبة الزرقاء ، ويصل بين الأرض والسماء .

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين ميلا ، وربما قدر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعا (٢) ، وهم يقولون إن بانيه الاسكندر الرومي الذي ملك معظم الدنيا أو ملك من خلفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروبا صعبا في البر والبحر ، فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد بن عبد الملك الأموى (٣) أنه سؤل له جَهْلَةٌ قومه أن يهدمه طمعا في الوصول إلى ما حوى جوفه من الكنوز الخبأة فشرع في الهدم والدمار حتى قوض جانبا من هذا المنار . ثم تعاظمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعوض به عنها فكف عن عجز لحقه ولوم نراه يستحقه . وكان مُقامى في الإسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الأبيوردى (٤) ثلاثة أيام ، وكنت أحب مع ما لقيت من أنسه ووجدت فيها من سعة العمران واستبحاره أن أمدت فيها بساط الإقامة لولا أنى خفت فوات الحج ، فانصرفت عنها في اليوم السابع من شوال ، وكنت قد استقرت كثيرا من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أجمل الكتاب بذكره ليبقى نفرا للمسلمين في استيلائهم على هذه المدينة التي ليس في بلاد الروم ما هو أعظم منها .

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤

(٢) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المائة قبل أيامهم أكثر علوا مما ذكره يقول ابن الأثير في حوادث سنة ١٨٠ إنه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المائة وربما ذكر المقرئ شيئا من ذلك في كتاب الخطط والآثار . ويقول القرمانى ٦ : ٦٤ إن طولها ألف ذراع إلى غير ذلك .

(٣) المقرئ والمحاضرة ١ : ٤٣ والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

(٤) ذكر أبو المحاسن ١ : ٥٢٢ أنه كان عامل مصر في ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة .

في ذكر الإسكندرية

الإسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعاً وأحفلها
بنياناً ، وإليها المنتهى في المنعة والحصانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض
والبحر محيط بها من جميع جهاتها ، ولذلك يصعب منالها على العدو وإن لم يكن
وراءها وعرولاً هضاب يتعزز بها جانبها من البر^(١) ، ولقد كانت في قديم الزمان
خاملة الذكر يقال لها رقودة^(٢) فلما تبوأها الإسكندر الرومي^(٣) وصارت كرسى
الملك بعده تجللت بجلال الحضارة . وتحلّت بجلال النضارة . واتصلت عمائرها
تحت الأرض^(٤) آزاجاً يجتمع فيها الماء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت
أسواقها في نهاية من الإبداع^(٥) ، وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع ،
بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهاره أجمع فلا يضل^(٦) .

ولقد لقيت في كثير من أماكنها وطرقاتها عمداً وألواحاً من رخام تحمل العامة
على النظر . بأنها هي إرم ذات العماد^(٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وأعظم
ما شاهدت فيها العمود المعروف بعمود السواري^(٨) وهو مائل للعيان في طرف
المدينة تحف به غابة من النخيل ، وهو حجر صلد من الصوان الأحمر ، يبتدئ
من قاعدة غليظة وينتهي إلى تاج مكمل بالرسوم ، والناس يقولون إنه كان في أعلاه

(١) يقول ابن خلدون في المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وإنه يسهل وصول العدو إليها .

(٢) المقرئى ١ : ١٤٧

(٣) القزوينى ٩٦

(٤) ابن جبير والمقرئى ١ : ١٥٠

(٥) ابن جبير ٣٦

(٦) تقويم البلدان ١١٣

(٧) المقرئى والمسعودى وياقوت وابن جبير .

(٨) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧

قصر معلق في الجول لأهل العلم والرياسة^(١) ، وإنه كانت فيه خزائن كتب أحرقها عمرو بن العاص^(٢) بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليه « الكتب التي ذكرتها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » ولكن هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهذا العمود أنه نصبه الروم معارضة للعمد التي اتخذها الفراعنة أمثال المسلات ، وطمعا في تخليد آثارهم في مصر إلى انقضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الإسكندرية أصحاب الذوق لطاف الطباع والخلق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبا عندهم واعتدال الحر والبرد في إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وهنُ البنية^(٣) . ووجدت لهم تصرفا واسعا في التجارة^(٤) ، لأن المال موفور عندهم ، والخيرات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم بالنهار^(٥) ، وسمعت أنهم بلغوا من سعة العيش إلى أن بنوا في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف دكان^(٦) ، وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله في البلدان .

أما المسلمون في هذه المدينة فإنهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت ، ويتعبدون على مذهب الإمام مالك^(٧) ، ولكنهم يجهرون بالسلمة في صلاتهم ويتدنئون بها عند الخطبة^(٨) كأني بهم قد اقتدوا في ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمرا على غير انقطاع . وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على

(١) المقرئى ١ : ١٥٩

(٢) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ والمقرئى .

(٣) المقرئى ١ : ٤٤

(٤) المحاضرة .

(٥) ابن جبير ٣٩

(٦) المقرئى والمحاضرة ١ : ٥٩ والقرمانى ٥ : ١٣٧

(٧) المقرئى .

(٨) المقرئى ٣٣٤

أربعمائة ألف^(١) بين نصارى ويهود، وهم يؤدون جزيتهم إلى الرشيد دينارا واحدا ميمونيا^(٢) بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين ، واستمرت على ذلك في عهود الخلفاء السالفة . وفي الإسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلا أن معظم سوادهم^(٣) روم يرجعون في أمورهم إلى بطركهم بالقسطنطينية ، وقبط ينكرون على الباب خلافته ليسيح ويرجعون في ملتهم إلى مطرك لهم يسمى مرقص^(٤) كرجوع المشاركة إلى بطركهم في أنطاكية^(٥) كما مر في موضعه من الكتاب .

وهؤلاء القبط هم أهل مصر الأولون ، وفي أيديهم الكنائس المعظمة التي لا يوجد مثلها عند الروم ، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين عليها تحت ظل الإسلام . وأعظمها بيعتان إحداهما كنيسة مرقص^(٦) وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوام^(٧) ، فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات في ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان^(٨) قد مؤه سقفيها بالذهب ، وصورت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث^(٩) ، وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم في ملتهم بأشياء لو بدت منهم في العراق أو الحرمين جلبت عليهم

(١) ابن خرداذبة ١٢١ والمحاضرة ٥٩ والمقریزی ١ : ١٦٢

(٢) ذكر صاحب الأغاني أن هذه الدنانير سميت بالميمونية نسبة إلى ميمون بن عامر ١٧ : ٧٢

(٣) المقریزی ٣ : ٤٩٢

(٤) ذكره المقریزی ٣ : ٤٩٣

(٥) المسعودی ١ : ٢٧١

(٦) المقریزی ٣ : ٤٩٢

(٧) ذكرها ابن خلدون في المقدمة ١٧٨

(٨) المقریزی ٣ : ٥١٩

(٩) القرمانی والمقریزی ١ : ١٦٢

الحين في أسرع من طرفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالإنجيل وإخراج آيتهم إلى الأسواق وحمل صلبانهم على رؤوس الرماح ^(١) وغير ذلك مما لا ينقمه منهم المسلمون ^(٢) ، وكأنهم إنما يتساحون في أمرهم تجنباً لإثارة السواكن أو طمعا في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء . بل مودة وإخاء . وقد وقع لهم وأنا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد، يتخذونه في اليوم الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك ^(٣) ، وعادتهم في هذا الموسم أن يجيوا ليلهم كله بالسروور، ويخرجوا آيتهم إلى الأسواق ، ويتوزوا تأسسهم بالشموع المليحة الأصباغ . فكنت أرى كثيرا من المسلمين يتابعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في أزقة المدينة ، كأنهم يشاركون النصارى في أفراحهم ، ويظهرون الأئس بهم إلى انقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتألقون في صنوف الملابس من الخز والديباغ والوشى الذي يصنعونه في مدينتهم ، ويضرب به المثل في جميع البلاد ^(٤) ، ونوع من الحنّان يتنافسون في لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخيط منه بدرهم فضة ^(٥) . وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة في لباس المسلمين ^(٦) مثل ظهورها في أهل الذمة ، فقد حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير ^(٧) ، ولبس ثيابا بأربعة آلاف درهم وصلى

(١) المقرئى .

(٢) المقرئى ١ : ٤٩٤

(٣) المسعودى ١ : ٢٧٢

(٤) الأغاني ٧٦٥

(٥) المقرئى ١ : ١٦٣

(٦) تزيين الأسواق ٢ : ٥١

(٧) مجمع الأنهر ٩٤

فيها^(١) ، وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوبا من الخنز^(٢) وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهتدة^(٣) ، فلا أرى موضعا بعد هذا لأن يكون لبس الحلل الفاحرة محظورا في الشرع^(٤) .

الديار المصرية والنيل

توسع بي الكلام إلى ما خرجت به عن قص الرحلة ، ولكنني أعود إلى ذكر الأمور التي شاهدتها في ديار مصر ، فإني ركبت من الاسكندرية أريد القُسطاط ثم أسوان ثم عيذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر . فمررت بدمهوروصا وربما وطنيدة وقلوب في أسرع مدة من الزمان . إذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعو يعترض الركبان . وكانت العجاة متصلة في طريقنا إلى القُسطاط ، ومن حولها اخضرار في السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرني من كان يصحبني من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعا في كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء^(٥) ، أولها شهر أبيب المعروف بتموز عند المشاركة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضياعها في بحر من الماء لا سبيل إليها إلا في الزوارق . وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بشرين أو أقطوبر^(٦) ، ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طينا علكا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الإبلين^(٧) وثلاثة أشهر زمردة خضراء

(١) مجمع الأنهر ٧٩٤ ونقل الشيباني عن ابن جريج أن ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف

درهم العقد الفريد ٣ : ٣٤٣

(٢) الزرقاني ٤ : ١٠٤

(٣) البخاري وغيره .

(٤) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

(٥) المنوفي

(٦) في المسعودي ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلها هي اليوم عندنا

(٧) عبد اللطيف ٣

أولها شهر طوبة الذي يمر بنا اليوم ينجم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدىء من برمودة المعروف بأبريلس عند الروم فيتورد الزرع ببلوغ الحصاد . ويكون كسبيكة الذهب في المنظر .

وإنما يجلب الخيرات إلى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها الجُرْز ما يحمل إليها النيل من الطين ويفيض عليها من الماء في أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستعيض بالمنفعة منه عن المطر الذي يحبسها الله عنها رفقا بمصالحها أن تختل ومساكنها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه ^(١) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرْز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فجعل الله عز وجل النيل من الغمورة والاستبحار بحيث يكفى البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره ، والناس يجمعون محاسنه في ثلاثة ^(٢) : الأول غمورته إلى أن يكون بحرا تسير فيه السفن . والثاني بعد منفجره إلى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيب مسلكه على رمال تروقه وتأخذ المزوجات الغربية منه . وإني وجدت له حلة من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن هي أنه يزدرع عليه مالا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم ^(٣) فكأن من نهر تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك ثم لا تحصل المنفعة منه مثل ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان أنه يبتدىء بالزيادة في شهر أبيب ، والقبط يقولون إذا دخل أبيب . كان للاء ديب ^(٤) . ثم يغلظ في مسرى وهو شهر آب ، ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة إلى أن يقف حدها في منتصف توت ،

(١) المنوفى .

(٢) المقرئى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥

(٣) ابن بطوطة ١ : ٧٧

(٤) المقرئى .

وهو شهر أيلول المعروف بسبتمبر عند الروم ، ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يتراجع
بالانحسار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم ^(١) :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي حين حاجتهم إليه ويمضي حين يستغنون عنه

وصفوة القول في هذا الفيضان أن منشأ السحب المطرة ^(٢) إلى ما وراء
خط الاستواء من تلك البطاح ، وللقبض فيه أقوال كثيرة لا موضع لها في هذا
الكتاب ^(٣) ، وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه « قبل حدوثه » من هبوب الريح
في أول يوم من بثونة وهو شهر حزيران عند المشاركة . وقد قرأت في بعض الكتب
أن هذا النهر هو نهر العسل في الجنة ^(٤) ، وأن حائدا اليهودي الذي تاه في الأرض
دهرا لم يستقر فيه بموضع وصل إلى الجنة مما وراء السودان ^(٥) فوجد أرضا ذهبيا
وترعا ذهبيا وتلاعاً ذهبيا ^(٦) ، ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل
قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله في دواوين الشعراء فأحببت
أن أذكره لك حتى إذا كنت بعيدا أن تعجب منه من حيث الحقيقة فلا أقل
من كونك تعجب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى الفسطاط نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(٧) ، فلما أصبحت وكان يوم الجمعة جمعت في جامع
عمرو بن العاص الذي قاد الجيوش الإسلامية إلى هذه البلاد وانتزعها من يد المقوقس

(١) المقرئ .

(٢) تقويم البلدان ٤٥

(٣) راجع المجلد الأول من خطط المقرئ .

(٤) المقرئ ٥١ : ١ والزرقاني ٣٧٥ : ١

(٥) الاسحاق ٢٦١

(٦) المنوف .

(٧) المحاضرة ٢ : ٨٩

كما هو معروف. وهو من المساجد المشهورة في الإسلام حسنا وتزيينا وإحكام صناعة، وجدت على حائطه القرآن الكريم مكتوبا على ألواح بيض من الرخام يقرؤه الإنسان وهو قاعد^(١)، ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشريقات العلويات. ولما مالت الشمس ركبت إلى موضع غربي المدينة يقال له الجزيرة وهو مجتمع اللهو والنزهة لإحاطة الماء به، وهناك المقياس الذي يعتبر به قدر زيادة النيل^(٢)، بناء سليمان بن عبد الملك الأموي في آخر المائة للهجرة النبوية المشرفة، وهو عمود رخام أبيض مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا من الأذرع القديمة التي كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التي تزيد عنها باصبع وثلاث إصبع^(٣)، وهو مبنى في موضع ينحصر الماء فيه فاذا انتهى الفيض إلى ثمانى عشرة ذراعا منغمرة فيه كان ذلك الغاية في طيب العام^(٤).

وقد أخبرني عبد الرحمن هذا القاضى النبيل أن ما يغمره النيل بمصر يبلغ مائة ألف ألف فدان^(٥)، والفدان عندهم أربعائة قصبة، والقصبة عشر أذرع، «وهو القدر الذي وجده هشام بن عبد الملك عند ما مسح البلاد»، وكلها ذات خيرات كثيرة. وغللات وافرة. مما يحمل الإنسان على أن يظن في أهلها اتساعا في النعمة واسترسالا في الطيبات من بسطة العمران، غير أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول^(٧) وتولاهم الشقاء،

(١) القزويني ١٥٧

(٢) المقرئى وابن جبير ٥١ والمسعودى ١٦٤: ١

(٣) ابن خرداذبه ١٦١ والمسعودى ٤٠٠: ١ والمقرئى ٥٩: ١

(٤) ابن بطوطة ١: ٧٨

(٥) المقرئى ١: ٨٠

(٦) المحاضرة ٢: ١٩١

(٧) المقرئى ١: ٤١ قول الرحالة مائة ألف ألف فدان انتقده ابن المدير بأن ما يزرع

في مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان.

ولم ينفقوا المال الذى أعطاهم الله فى مطالب السعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقوا القلوب رفقا فى جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئا من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقيب عليهم فى الخراج لما تسومع عنهم من تجبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتدارا فى تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الأمم .

فى وصف الأهرام

وفى غد اليوم الذى وصلت فيه إلى الفسطاط ركبنا إلى أهرام الجيزة ^(١) ، وهى ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم ^(٢) غربى النيل ، وهى من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطرا . وأبقاه على الأيام أثرا . والعهد بجميع الأشياء يخشى عليها من الأيام إلا هذه الأهرام ، فإنها صبرت على طوارئ الحدثنان حتى راح يخشى منها على الزمان . اثنان منها عظيمان وواحد دونهما فى العظم ، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان فى السمو ، يخيل للرأى أنهما نهدان قد نهدا فى صدر الديار المصرية ^(٣) ، وهما مبنيان بحجارة بيض صلبة قد اقتبعت من مغاور تحت الأرض بعيدة يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . وقد تقدمت إلى بعض من كان يصحبني من لدن السلطان أن يطلق سهما إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظة وساعد قوى فسقط السهم دون ثلثي المسافة ^(٤) ، أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مصلع مثلث الزوايا مربعها ، يبتدئ من قاعدة عريضة ويضيق قليلا قليلا كلما ارتفع إلى أن ينتهى إلى سطح صغير يكون مبرك بعيرين فى الهرم الصغير ومبرك ثمانية فى الهرمين الكبيرين . وهذا نمط فى البناء يزيد متانة يقوى بها على ممر الليالى .

(١) عبد اللطيف ٥١ والشرشى ٣ : ١٠١ والمقرزى .

(٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب .

(٣) تقويم البلدان ١٠٨

(٤) ابن بطوطة ١ : ٨٢

أما السبب الذى دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترا تحت ظل الإبهام ، فمن قائل إنها بنيت مستودعا للعلم ، ومن قائل إنها اتخذت لتخزين الرمال النائرة من القفر على الفسطاط ، وفى وجه من التاريخ أنها بنيت لدفن الكنوز^(١) واحتكار الحبوب لأيام يوسف عليه السلام^(٢) ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للأشياء ، فإن العلم لا تحفظه الحجارة إن لم يستودع صدور الرجال ، والرمل لا يحجزه سد غير متصل العارة ، وبين الهرم والآخرة فجة واسعة المجال ، والحب لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له وفى موضع لا يقدر منه أن يتناوله . ولست أظن إلا أن هذه الأهرام قد بنيت لحودا^(٣) للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة إلى هذه الدار ، ويعنون بتحصين مدافنهم من عبث الأدهار ليحفظوا فيها حلهم وأموالهم إلى يوم النشز كما كان يصنع فى جاهليتهم أهل مصر إذ يحملون مع الأموات مالهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون^(٤) .

وقد قرأت فى بعض الكتب أن باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد ، وجه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة فى اعتقادهم وكتب عليه «أنا سوريد الملك أكملت بناء الهرم فى ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له ملكا فليهدمه فى ستين سنة» (وفى رواية ستمائة سنة) ، والهدم أيسر من البناء ، وقد كسوته بالديباج الصرغ فليكسه بالحصير والحصير أهون من الديباج^(٥) ، أما توجيه زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع

(١) المقرئى ٣ : ٢٢

(٢) المحاضرة ١ : ٣٤

(٣) المقرئى وتقويم البلدان ١٠٨

(٤) عبد اللطيف والمحاضرة

(٥) ابن بطوطة ١ : ٨٢ والمقرئى والمحاضرة .

ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها . وأما الكتابة التي يعزونها إلى فرعون فإنني لم أجدها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحدا من الناس يقرؤها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرئت ما صح أن تكون كسوته بالحصير مما يعجز عظماء الملوك ، وسعته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خطوة ، إنما المعجز في هذه الآثار هو إحكام بنائها ^(١) بهذا الشكل البالغ النهاية في الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شيء تتلاصق به من الكلس وغيره من المواد ، ولو أن نجارا اتخذ صندوقا من الخشب ما أحكم عمله ^(٢) ووصل قطعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الإبرة الصغيرة .

ورب زائر يقف بهذه الأهرام فتشغله الدهشة بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضخام السلطة عظام الصول والحول . غير أني تمثلتهم في نفسى ملوكا عتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد في مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أني أتمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه في البر والإحسان . ولا انتفعوا به في غرض من العمران . بل رفعوا به جبالا شاهقة من الصوان . وليس في أحد الأمرين منصرف عن لؤم بهم أو لوم أوقعه عليهم ، فلئن أنفقوا المال في غير سبيله لقد أسرفوا في الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم بالعنت الشديد لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجبية من الحجر قامت كالصومعة ^(٣) ومثلت رأس آدمى وعنقا بارزة من الأرض في غاية العظم يسميها الناس بأبي الهول ،

(١) عبد اللطيف ٥٣

(٢) الابشي ٢ : ١٧٧

(٣) المقریزی ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠

ويزعمون أنها طَلَّسَ الرمل لئلا يغلب على أرض الجيزة^(١) ، وهى تشهد لصناع ذلك الوقت من القبط بحذقهم فى فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على كبره ، وجعلوا عليه حمرة لا يزال دهانها محفوظا مع الحجر^(٢) ، وكان الزمان يعيره رونقا وجدة ، حتى إنه ليخيل للناظر إليه أنه ذو مسحة من جمال وأن شفثيه تنفتحان للابتسام ، وقد أخبرنى حاجب الليث أنه كانت له لحية تكسرت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا^(٣) ، إلى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد^(٤) إن بمصر ثمانين كورة فى كل كورة مدينة عظيمة وفى كل مدينة آثار حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان^(٥) .

إلى عذاب فجدة فالبلد الحرام

كان انفصالنا من القسطنطينية فى بكرة يوم قارس برده ، وكانت العارة متصله فى طريقنا على شاطئ النيل ، فاجترنا بلدًا يعرف بمُنية ابن خصيب^(٦) فيه الأسواق والمرافق والحمامات ، ثم اجترنا بلدة يقال لها أنصنا وهى تبعد عنه بمرحلة طويلة^(٧) فيها شجر اللبخ^(٨) الذى تصنع منه السفن ، وكثير من العمود والصخر المجل

(١) القرمانى ٦ : ٥٥

(٢) عبد اللطيف ٥٩

(٣) عبد اللطيف ٥٩

(٤) المقرئى وكتاب المحاضرة للسيوطى .

(٥) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشر منها فى سائر البلاد وباقيها فى مصر ،

المقرئى والمحاضرة والقرمانى ٦ : ٥٥

(٦) ابن جبير ٥٤

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) المقرئى ١ : ٢٠٤

بالتقوش والرسوم ، وفي بعض الكتب أنها كانت مسكناً لسحرة فرعون (١) ، ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز (٢) وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه إلى جهات أسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته ملكة يقال لها دلوكة وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمه في مزاولة القنص (٣) ، مع أن الأقرب إلى العقل أن يكون بناؤها له خوفاً من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التي يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هي في الجانب الآخر . ثم مررنا بمنفلوط في البر الغربي (٤) وفيها قح مشهور برزانة حبه (٥) ثم بأسسوط وهي من النيل على ثلاثة أميال ، فيها الأفيون المصرى الذى يحمل إلى سائر البلاد (٦) وهو عصارة الخشخاش الذى يزرع فيها (٧) وفيها جاورها من البلاد ، ثم ركبنا مرحلتين إلى إنخيم وهو بلد مشهور فيه البرابا العظيمة التى صور فيها ملوك مصر (٨) وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النسر الطائر فى برج العقرب (٩) ، وهى مرفوعة من صخور منحوتة ، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والتقوش (١٠) ، وعليها سقف من الحجر مغشئ بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرر إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المسند لا يعلم ما هو ، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظام الأمور ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

(١) ذكر المسعودى ١ : ٢٨٤ الإسرائيليات من الأخبار بمعنى الحكايات التى لا طائل تحتها وربما

كان هذا الخبر لاحقاً بها .

(٢) المسعودى ١ : ١٧٢ والقردانى ٥٧٦

(٣) المقرئى ١ : ٣٨

(٤) المسعودى ١ : ٢٧٢

(٥) تقويم البلدان وابن جبير ٥٧

(٦) القزوينى ٩٩

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) القردانى ٦ : ٥٦

(٩) ابن بطوطة ١ : ١٠٤

(١٠) القزوينى ٩٤ وابن جبير .

ثم تَمَادَى بنا السير من هذه البلدة إلى دندرة وهى مدينة عتيقة يقال إنها من بناء قفطريم بن مصرام بن حام بن نوح عليه السلام وفيها برابا عظيمة من آثار الفراعنة يحف بها نخل كثير^(١) ، وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القبط صحة ما نقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة فى زمن كان به ظلام وجاهلية للناس ، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلا باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم ، وكذلك قوم موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلا بعد مقامهم فى مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد أن للقبط فى فلسفة التاريخ نكتة شغلت عقول الحكماء من كل عصر وأمة ، حتى ذهب أفلاطون فى بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التى بلغوها من الأدب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم .

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سيرهم وأسرارهم فلا لوم نوجهه عليهم من قبيل التقصير أو الإهمال لأنهم لم يغفلوا عما وجب عليهم نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا أن يستبقوه على الأيام صلة دائمة فيما بيننا وبينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان « الحجر » ليأمنوا اتصاله بنا وإفادتنا به الغرض الذى شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة . وإنما أفسد هذه الصلة علينا العفاء الناشئ من سنة الغلب فى الناس ، إذ يتعاقبون فى الأرض دولا بعد دول وأجيالا تحيا بموت أجيال . وتحتاج لحفظ نوعها أن تبيد الجيل الذى كان من قبلها وتسبل على آثاره ستر المحو والعفاء ، وهذا هو السبب الذى قطع الآخرين عن الأولين ، وعمى علينا قراءة رموزهم إن تبدل لنا غوامضها تغدنا علما واسعا من حكمتهم ، ونبا صادقا من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيت هؤلاء القبط من صور على الحجارة مودعة هذا العلم تنظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبار القدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لولم

يصممتها الوجم كأنى بها تنتظر أن نخاطبها بلسان تعرفه وإشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعوها من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت في آثارهم من الصور (غير الأوثان التي كانوا يعبدونها والحيوان الذى دخل فى ملتهم بطريق التكريم إلى أن صار له تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعياذ بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم هيات مختلفة لملوك وسوقة منهم تمثلهم فى معاشهم وأعمالهم وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم ، وليس بينها صور تمثل أناسا غيرهم من الأمم مثلما نرى فى آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنبط والكنعانيين والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خلطة مع الأمم ، ولا اتسعت لهم الفتوح فى دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا إلى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات وأغناهم مصرهم عما سواه من الأمصار . وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بلدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تثمره بأديتهم الجدداء من نعمة العمران .

عود إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقى ، وهى من أعظم مدائن مصر^(١) ، فيها قبائل من عرب عدن وغيرهم^(٢) ، وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلا قوص وأسوان وجهات بليس^(٣) ، وربما كانوا فى أسوان أكثر منهم فى بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قریش وقحطان وزار بن معد من ربيعة ومضر^(٤) ، وليس هذا أول عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبار السالفة^(٥) أنهم غزوها فى عهود الفراعنة الأولين واستقروا بها

(١) المقرئى ٢٣٦: ١ وابن بطوطة ١٠٠: ١

(٢) تقويم البلدان ١١١

(٣) المقرئى ٨٠: ١

(٤) المسعودى ١٩١: ١

(٥) المسعودى .

زمناً فيما لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان. وقوص هذه المدينة فرضة التجار
اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يحرق فيها النبل من غير أن
يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه ^(١) ، (وهي المعروفة بالحنادل والصخور)
فتنقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة إلى مراكب
المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحجاج إليها
في ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل .

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهي مفازة قاحلة
لا عمارة فيها البتة ، فكنا نبيت فيها حيث جن الليل علينا ^(٢) ثم نفوز إلى ورود
الماء من آبار أو مناهل لا نكاد نترك فيها جرعة ماء بعد سقاية دوابنا ، وكنت
إذا أصابنا رقدة من حرٍ أجلس في هودج على ظهور الجمال وأرعى عليه الأستار
محركاً للهواء فيهن على احتمال عنتها الشديد . إلا أن صحبي من لدن السلطان كان
يبرح بهم العطش ويجهد دوابهم في الأيام الآتية ، لأن السموم كانت تنشف المياه
في الأسقية ، فكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبعرة فارغة من الأحمال
ويعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نهلاً وعللاً حتى تمتلئ أجوافها ثم يشدوا
أفواهها كيلا تجترق فيق فيها الرطوبة فإذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبعرة من
هذه الجمال وسقوا خيلنا مما في بطونها ^(٣) ، وفي هذا من المشقة ما لم يتزل بنا
أشد منه في جميع ما طرqnه من البلاد ، ولم نزل في مكابدة عنائه الشديد وقد أضرّ
بنا الحر وأخذ منا مأخذه حتى سهل الله وصولنا بالسلامة إلى عيذاب ، والحمد لله
على جميل ما أولاه . حمدا يبلغ رضاه . ويستفيض النعمة من عليه .

وهذه المدينة هي آخر بلاد مصر ^(٤) ، وعاملها مفوض من لدن الليث
ابن الفضل الأبيوردى ، وهي موسعة بأسباب الكسب من الحجاج إلا أن مبانيها

(١) المسعودى ١ : ٤٧ وابن جبير ٦١

(٢) ابن جبير ٦٣

(٣) القزوينى ١٢

(٤) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٠٩

أشبه بديوت القرى منها بديوت المدن^(١) ، وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء^(٢) ، وليس لأهلها حرفة للتعيش إلا تعمير سفن للحجاج يسمونها الجُلَبات واحدها جُلْبَة وهي ملفقة الإنشاء ، ولا يستعملون فيها المسامير وإنما يخيطنون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسرا من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة^(٣) ، فتستمر عرضة للخطر وآفة للحجاج البيت ، يفرق الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة^(٤) .

ولما أخذت فيها نصيبا من الراحة ركب البحر ثلاثة أيام إلى جدّة ، وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج ، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت في ولاية الفرس . وفيها قبة مشيدة يقال إن موضعها كان منزلا لحواء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناء الرشيد منذ ثلاث سنين^(٥) ، وهو أحفل بآية في المدينة، فمكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القرين وهو محط رحال الحجاج (إسراعا في موافاة الرشيد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمت بركوبه إليها من مكة في صباح اليوم الذى وصلت فيه إلى جدّة ، فبلغته في جوف الليل ثم سرّيت منه إلى مكة المكرمة مهوى الأفئدة الصالحة ، فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتعثت إلى الله تعالى في موضع استجابة الدعاء^(٦) من البيت العتيق ، والحمد لله عز وجل على أن شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم.

(١) تقويم البلدان ١٢١

(٢) المقرئى ١ : ٢٠٣

(٣) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ١ : ٧٨

(٤) المقرئى ١ : ٢٠٣ وابن جبير ٧١

(٥) أى سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠٠ وابن جبير ٨٠



في ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرفها الله فانها بطن واد (١) بين الجبال تسع من الخلق ما لا يعلمه إلا الله سبحانه (٢) لأن الحجاج الوافدين إليها قد يزيدون على مائتي ألف في الموسم ، إذ كان الحج مفروضاً على المسلم المستطيع في العمر مرة لقوله تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» (٣) ، فلو قدرنا عدد الرجال بثلاثين ألف ألف ، وقدرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبها منهم في كل سنة أكثر مما ذكرنا ، فما بالك بمن يحج أكثر من مرة في عمره ، ويقال في اجتماع الناس إليها من جميع الأطراف إنه لو جمع ما يباع ويشترى بها من السلع والمأكول والبضاعات في ثمانية أيام وقت الموسم لأقام الأسواق (٤) في العراق كله ونال كل واحد من أهله نصيبه من حاجته .

ولها كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب ، أولها باب المعلى (٥) وهو إلى الشرق الشمالى ، ومنه يذهب الذهاب إلى الجحون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر في الأشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لما غلبه على الخلافة التي كان يناصب عليها الأمويين ، ثم باب المسفل وهو إلى الجنوب ومنه دخل خالد ابن الوليد يوم الفتح ، ثم باب العمرة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرها جبل حراء وهو الذى اهترحين كان فوقه النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما فقال له « اثبت حراء فما عليك إلا نبي وصديق

(١) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٠٨

(٣) سورة آل عمران .

(٤) ابن جبير ١١٩

(٥) ابن بطوطة ١ : ٣٠٤ وابن خلكان ١ : ٣٩٨

وشهيد» (١) وكان (صلى الله عليه وسلم) يختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذي خلق" (٢) .

وكفى هذه البلدة شرفاً أن بناها آدم (عليه السلام) (٣) وهبط إليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحي على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التي هي معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة مما ليس مثله في جميع العالم . فمما تبركت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبة الوحي (٤) التي فيها بنى النبي (صلى الله عليه وسلم) بخديجة أم المؤمنين (رضى الله عنها) والموضع الذي كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تبركت بلحمه وتقيله ، وزرت دار أبي بكر ودار جعفر بن أبي طالب ذى الجناحين ودار الخيزران التي قدّمت لك ذكرها في الرسائل السالفة ، وهي على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر المعروف بمنزل الأجير (٥) ، وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التي في الجبال والغار الذي أوى إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار ثور (٦) الوارد ذكره في القرآن ، ولكن لم يتيسر لي ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لي مزار بعض المواضع الميمونة التي هي في نفس البلدة .

وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حضين الملائكة لقوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (٧) ، وقد أخذ الناس في تعظيمه والحج إليه من الجاهلية والفرس والعاليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت

(١) ابن جبير ١١٢

(٢) المسعودي ١ : ٣٠٧ وأبو الفداء ١ : ١١٧

(٣) وربما لم يجده ابن خلدون خبراً صحيحاً كما في المقدمة ٣٠٦

(٤) ابن جبير والأزرق .

(٥) الأغاني ٣ : ١١٦

(٦) ابن جبير والأنس الجليل .

(٧) المقدمة ٣٠٦ والمسعودي .

الولاية عليه بعد ولد إسماعيل إلى جرحم وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم ،
وإلى ذلك يشير مضاض بن عمرو بن الحارث الجرحمي بقوله (١) :

وكنا ولاية البيت من بعد ثابت نطوف بذلك البيت والأمر ظاهر
كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ثم صارت ولايته إلى خزاعة ثم إلى قريش بعدهم وكانت صورة إبراهيم
وإسماعيل ماثلة (٢) فيه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك
زهير بن أبي سلمى في قوله :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرحم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إلى عبد الله بن الزبير
(رضى الله عنهما) ففرغ عن كسوته المسوح والأنطاع وكساه الديباج الملون واتخذ
له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيبه حتى يوجد ريح المسك
من خارج الحرم (٣) ، فلما رماه يزيد بن معاوية بالمنجنيق بعث إلى صنعاء في الفضة
والكس فحملهما ، ثم شرع في البناء على أساس الخليل إبراهيم عليه السلام ،
فكاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والتراعى ،
وأحرق مكة ورماها بالمنجنيق حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل الله السلامة

(١) الأغاني ١٣ : ١٠٨ وأبو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣ : ٢٧

وفي مرجع الذهب ١ : ٢٠٣ أنه ثابت بن إسماعيل ولعل في إحدى الروايتين أو كليهما تحريفا
وفي هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

وفي العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أشد هذا البيت وكان في زمن النبي صلى الله

عليه وسلم .

(٢) المسعودي ١ : ٣٠٥

(٣) الألبشهي ١ : ١٥

من شرور الأنفس وسيئات الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على الصفة التي بنتها عليها قريش ^(١) في أيام النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل النبوة ^(٢) ، فبناها على ذلك الرسم وهي باقية عليه إلى أيامنا .

وهذا البيت المكرم مبنى بالحجارة الصُّمَّ السود مفروش بالرخام المجزَّع ، وفيه عمد ضخمة من الساج ، وسقفه مغشَّى بالحرير الملون ، وهو قريب من التربع ، ونصفه الأعلى من الفضة المذهبة ^(٣) وله أركان أربعة أولها الركن الشرقى الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ولا يُدرى قدر ما استتر من الحجر فى الركن ^(٤) ، وسعته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده ^(٥) على ما هو معروف عند الكل ، ثم الركن العراقى وهو شمالى . ثم الركن الشامى وهو غربى . ثم الركن ايمانى وهو جنوبى . وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون ذراعا إلا الركن الشرقى فانه يزيد عليها ذراعا فى الارتفاع ^(٦) لانصباب السطح إلى الميزاب ^(٧) ، وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعا ^(٨) ، وبابها فى الصفح الذى بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شبرا من الأرض . وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش ^(٩) وطوله ست أذرع وزيادة ، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الأسود ويسمى ما بينهما الملتزم

(١) المقدمة ٣٠٧

(٢) أبو الفداء ١ : ٢٠٨

(٣) ابن جبير ٨١

(٤) ابن بطوطة ١ : ٣ ٣

(٥) المسعودى ١ : ٣٠٥

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠

(٧) ابن جبير ٨٠

(٨) الكنز ١٢١

(٩) العقد الفريد ٣ : ٣٥٩

وهو موضع استجابة الدعاء ويتراحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعة من نهار أو ليل ، وقد أخبرني أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خلوا من طائف به أو مصل ، وأخبرني وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعاره المقدسة أن في مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيما لها^(١) ، إذ كانت أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات « مقام إبراهيم » ومن دخله كان آمنا .

وفي الركن العراقى المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهى بالراقى عليه إلى سطح البيت ، وتحت قبو فيه حجر مغشى بالفضة^(٢) تبركت بزيارته ولمسه وهو مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذهب فى صحن الحجر قبر إسماعيل (عليه السلام) وموضعه رخامة بل رخامتان خضراوان فيهما نكت يميل لونهما إلى الاصفرار^(٣) حتى يخيل للناظر أن ذلك تجزيع بأيدي الصناع ، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقى قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة خضراء أيضا ، وفي مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئر زمزم^(٤) ، وهى البئر التى شرب منها الخليل عليه السلام^(٥) وداخلها مفروش بالرخام ، وعمقها فيما يقال إحدى عشرة قامة ، أربع فضاء وسبع ماء ، وماؤها إن شربه كما ورد عنه « طعام طعم وشفاء سقم » .

أما الحرم فانه يحقد بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عمد من الرخام^(٦) ، وله صوامع سبع ، أكبرها فى دار الندوة^(٧) وأصغرها على باب الصفا ،

(١) القزوينى ٧٧

(٢) الماوردى ٢٧٨

(٣) ابن جبير ٨٦

(٤) تقويم البلدان ٨٧ والشريشى ٢ : ١١٤

(٥) فى العقد الفريد ٣ : ٣٦٠ أن سققها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل

ركن منها عمودان من رخام متلاصقان .

(٦) فى العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين نحو ١٠ أذرع .

(٧) ذكرها الاتليدى ٧٦

وهو أكبر ابواب الحرم ، ثم بعده باب السلام وباب السدرة وباب الندوة^(١) ، وشاهدت في بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الأنصاري^(٢) ، نسخه بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمانى عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك ، ولا أدري في أى موضع كان قبل أن يوضع هناك ، لأنه لم يكن للحرم في تلك الأيام جدار ، وإنما كان موضعه دوراً^(٣) لم تتم زيادتها فيه إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلا في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وهو الذى زينه بالرسوم^(٤) وكتب اسمه في مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذى صنع ، ومما كتب على سارية منه خارج باب الصفاء (أمر عبد الله محمد المهدي "أصلحه الله" بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفاء لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين ومائة) .

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت في طريق إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار . فوجدتهم^(٥) يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التي تأخذ بثأر المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ، وبلغنى أن يجوارهم أعراباً لم يدخلوا في دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالجميم كافاً مخففة فينادون الرجل يا ركل^(٦) ، فوصلت من مكة إلى بطن مر^(٧)

(١) ابن جبير ٨٩ والكز ١٠٣

(٢) الكندى وابن جبير ١٠٢

(٣) المقدمة ١٠٨

(٤) ابن الاثير والخميس ٢ : ٣٢٠ وابن جبير ١٠٧

(٥) راجع مروج الذهب والأغانى وترتين الأسواق .

(٦) الأغاني ٩ : ١٣٩

(٧) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥

وهو واد خصيب ذو عين فؤارة ، ثم عطفت منه إلى عسفان وهي مدينة محف بها الجبال وفيها كثير من شجر المقل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان (١) (رضي الله عنه) ، ثم ركبت إلى الخليص وهو موضع في بسط من الأرض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كانة وخزاعة وهم متقاربون في المنزل وبينهم نسب لم تُرم فيه العصا (٢) ، ثم امتد بنا السير من خليص إلى بدر وهي قرية كثيرة الخيرات كانت بإزاء موضع من مواضعها يقال له القليب وقعة النبي (صلى الله عليه وسلم) المباركة التي أعز الله تعالى بها الدين وقهر المشركين (٣) ، ثم اتجهت إلى الصفراء في صدر النهار ، وهي تبعد من بدر بريدا ثم إلى الروحاء وهي موضع بئر يقال في الحكاية إن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان (٤) ، ثم رحت أفوز في الهضاب والبطاح حتى أقبلت على المدينة المنورة حرمها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرم وصليت في الروضة التي بين القبر المقدس والمنبر الذي كان موطن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ركبت إلى قصر الإمارة حيث حلت ركاب الرشيد ، فأصبته إلى مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يقال له قصر الفرجة ، وهو مزخرف بالصدف (٥) الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر ياقوت وزبرجد (٦) ، فلما وقفت بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمني به الأنبرذور ، فأخبرته بما توسم في غايتها من الخير وما وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر

(١) ابن جبير ١٨٦ والأزرق .

(٢) تزيين الأسواق ١١٤

(٣) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزويني ٥١

(٤) ابن جبير ١٩١

(٥) المقدمة ٣٥٧

(٦) ابن خلكان ١ : ٣٨٣

والغرب ، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة ، فشكرني على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إلى ذلك الصفاء الذي كان يشرفني به من قبل ، ولما أذن لي بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة فوجدت في نفوسهم ما وجدت في نفس الرشيد ، ليس من تجافهم عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم في أمر ظننت أنه وقع بينهم وبينه في المشاعر المباركة بحيلة المدالسين . التي تصادف محلا في قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتي إليك عن رسالتي إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق هذه المواطن المقدسة أن أذكر لك شيئا عن المدينة المتورة تبركا بذكره فأقول : إنني وجدت المسجد المكرم قائما على أعمدة من الحجارة الالامعة ، وسقفه من الساج المزين بالرسوم^(١) ، وجدرانها منزلة بفصوص من الفسيفساء^(٢) تمثل أشجارا وثمارا وأزهارا بأبداع ما يكون من الصناعة ، وهي من عمل الروم والقبط^(٣) فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك^(٤) ، ووجدت الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤطرة إلى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت ، وأعلىها مضمخ بالمسك والطيب^(٥) ، ورأيت القبر المقدس مبنيًا برخام يقال إنه من عمل وردان^(٦) ، وعلى رأسه صندوق من الآبنوس محتم بالصنديل مصفح بالفضة طوله خمسة أشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلي أقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر ، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجل أبي بكر

(١) ابن جبير والسيوطي .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢

(٣) القزويني ٧١

(٤) ابن الأثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧٢

(٥) ابن جبير ١٩٢

(٦) الأغاني ١٧ : ٨٤

رضى الله عنهما، وعليهما قناديل من فضة وذهب^(١)، وبين الركن الجوفى والركن الغربى من المسجد موضع عليه ستر مسبل يقال إنه مهبط جبريل^(٢) عليه السلام.

أما المدينة المنورة فإنها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام^(٣) بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة على قدم اختطاطها وعلو شأنها بين مدن الحجاز. ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد^(٤)، ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة^(٥)، وفيها قصور لا يوجد فيما نقله السفر المخبرون ما هو أعظم منها في ديار العرب، وأعظمها قصر للقداد بن الأسود في الموضع المعروف بالجرف^(٦)، وهو محصص الظاهر والباطن^(٧)، وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالجمر والكلس وأبوابه من الساج والعرعر^(٨) وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى)^(٩) وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده ومشاهد أولاد على (عليه السلام) وفي موضع هذه القبور رخامة مكتوب عليها^(١٠) :

(١) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٩٣

(٣) الإتيقان في تفسير القرآن ٢ : ١٦٧

(٤) ابن جبير ٢٠٠

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨

(٦) المسعودى ١ : ٣٣٣

(٧) المقدمة ١٧٨

(٨) المسعودى ١ : ٣٣٥

(٩) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ والمسعودى ٢ : ١٨٢

(١٠) ابن جبير ١٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ميّد الأُمم وحجّي الرّم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعلى بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومجد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم أجمعين .

فيالها من قبور ما أشرفها وأكرمها .

وإلى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قباء (١) وفيه كان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذي أسس على التقوى والرضوان (٢) ، وفي صحنه شبه محراب على مصطبة يقال إنه أول موضع ركع فيه (٣) النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي قبلته برّ معروفة ببرّ أريس يقال إن النبي (صلى الله عليه وسلم) تفل فيها فعاد مأوها عذبا صافيا بعد أن كان أجنا أجاجا ، وفيها سقط خاتمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدسة والقليل دليل على الكثير . وقد خصّ الله تعالى تلك البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخص به غيرها من البلاد . وهو مالك الملك لا رب غيره ولا معبود سواه .

الرشيّد والبرامكة في مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه إليك من ظاهر الحيرة وأنا منفصل عن البرامكة في كتاب أحمله إلى الرقة من لدن الرشيّد لأعلمك ما بينه وبينهم من الأمر العظيم . كان انفصالنا عن المدينة المنورة في غد اليوم الذي كتبت فيه هذه الرسالة ،

(١) ياقوت وتقويم البلدان .

(٢) أبو الفداء ١ : ١٣٢

(٣) ابن جبير ١٩٩

وعلمت فيما نقل إلى أبو زنج الهمذاني صاحب جعفر^(١) (أيده الله) أن الرشيد إنما تحول عن البرامكة خوفا من ميل الناس إليهم بما أغدقوا عليهم من الجود والكرم ، فإنه كان إذا جلس في مكة للعطاء جلس معه يحيى فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس الأمين جلس معه الفضل فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثل عطائه ، ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعد في سعة الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مثلا بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر في مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأعطيات^(٢) وينشدون :

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت
يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجود أكفهم
وأقدامهم إلا لأعواد منبر

فأحدث ذلك في نفس الرشيد غيظا من تمام النعمة عليهم ، وانطلق المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتحويل أمرهم على الرشيد فخوفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا برقعة رفعوها إليه وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات^(٣) :

قل لأمين الله في أرضه
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا
وَمَنْ إِلَيْهِ الْحُلُّ وَالْعَقْدُ
أمرُك مردود إلى أمره
مثلك ما بينكما حد
وقد بنى الدار التي ما بنى الفـ
رس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها
وتربها العنبر والنـد
ونحن نخشى أنه وارث
ملكك إن غيبك اللـد

(١) الأغاني ١٧ : ٢٣

(٢) الفخرى .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى من كان بمكة من بنى هاشم ،
وبعث إلى المدينة يستقدم أهل الحل والعقد ، وجدّد البيعة بحضرهم للمأمون بعد
الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقبه بالمؤمن فصور ولاية العهد إلى ثلاثة
من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء في مدحهم له ^(١) :

أبو أمين ومأمون ومؤتمن أكرم به والدا برّا وما ولدا

ثم إنه ولي المأمون خراسان وهمذان إلى آخر المشرق ، وأحضر القضاة
والشهود وأشهدهم أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع
وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء ^(٢) ، وضم إلى القاسم الجزيرة والثغور
والعواصم ، وفترق في الناس نحو ألف ألف دينار ^(٣) ليظهر اقتداره على العطاء
الكثير ويحطّ من قدر البرامكة وما وقع في نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون
غيرهم من خليفة أو سلطان . وهو يظن أنه يفعل هذا أمنا لمكروه من ناحيتهم
وردّا لمكيدة خافها من وراء ما كانوا يعارضونه من قبل في قسمة الملك بين المأمون
والمؤمن مع أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حبا
فيه ومنعا لوقوع الشقاق بين أولاده .

وكان مع ما في قلبه من المودة يصانهم ويظهر استرسال نفسه إليهم حتى
لا يفتنوا إلى ما يريد بهم من المكروه ، فإذا جلسوا إليه أظهر الرضا عنهم وأقبل
بالعطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء . فكان يغزهم ذلك منه إلا
جعفرا (حفظه الله) ، لأنه كان أعلم الناس بما في نفسه من حب الأثرة حتى إذا
أهداه مسروقا غلامه ^(٤) قال لي والله إن في إهدائه إلى هذا الغلام خيلة لم يخف

(١) السيوطي .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٤) الأغاني ٣ : ١٤٠ والالتدري ١٦٨

على أمرها . فإنه يوهننا برضاه حتى لا نظن به سوءا فيما داخله من الحسد ، وقد أخبرني جبريل بن بختيشوع أن الرشيد إنما تحوّل عنهم بتحمل الفضل بن الربيع الذي كان يذكر له ما على بابهم من الجيوش والأعوان ، ويخوفه استقواءهم في فارس وخراسان وتعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه حبا لأهل البيت ، ويطمئنهم لديه باحتياز مال الجباية ^(١) وتصرفهم في الأمور بما يشاءون ، والملوك لا تصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفا منهم بعد أن ملأ قلبه عداوة لهم ^(٢) .

هذا ما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة ^(٣) ، وقد تحوّل عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة في أحدهما . فأما استفحال ملكهم في الإسلام وتزلف الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائلة فإنه غير مضرّ بالرشيد وله بهم سند للدولة ونفخ في الملة إلا أن يكون ضعيف البصيرة فاتر الهممة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن سيفهم خادم لنصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولوا المراتب خمسين سنة في الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه شيء من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم إلى السلطان ، فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصلوة بهم لا أن يدبّ فيه الطمع ويمدّ عينه إلى ما ادخروا لولدهم بعد أن دبروا دولته هذا التدبير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية علمت مقدار النفرة التي وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لي جعفر انظر كيف أنه يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه أننا أقننا ملكه ومهدنا أمره حتى صار يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فوالله لئن لم يرجع عن غيه ليكون ذلك وبالا سريعا

(١) المقدمة ١٤

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٣) في الأغاني ٥ : ١١٣ أن العباس كانوا يتحدثون بنحو الرشيد عن البرامكة قبل

نكبتهم بأيام .

عليه ^(١) فقلت يا سيدى ليس للرشيـد عنكم مـرغب ولا أظنه يحرم دولته عنايتكم ، فقال تمهل على نفسك ، إن لنا فارس وخراسان ، فإن يجاهرنا بالعدوان يـقم في وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثر أخذت في تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ نأثر صدره ، وإنما أدمن الفكرة فيما يشغله من القلق ، وأمرنى بالأأفارق بابه في ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتـر عن السعاية إلى الرشيد ساعة من ليل أو نهار ويخوفه منه اشتراكه في مؤامرة جارية بينه وبين الفرس ، فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل إليه بتصنع العطف ليوهمه زوال ما بنفسه من الموجدة ، وكان جلوسى إليه في ذلك الوقت قد أقلقه كل القلق ، فرأى أن يفصلنى عن البرامكة بوجه لا يردُّ على الملوك بأن يوجهنى إلى الرقة في كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إن بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى إنفاذك برسائـلنا ، فكن عند رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلى البرامكة ألا أخالف أمره حتى نطمع في حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالخير في اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن إلى العـمر الذى بناحية الأنبار ^(٢) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف في ذلك الوقت حتى كان إذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم ^(٣) فاستبقى الأطباء على مائدته ممن كان مخالفا للبرامكة إلا جبريل بن بختيشوع ^(٤) ، وقد طوى عنه سر ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلا كلمة حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم ^(٥) ، وأنا اليوم أسير حثيثا حتى لا يفوتنى الرجوع إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب المجاج .

(١) الاتليدى .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥١ .

(٣) المسعودى ٢ : ٢١١ .

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة ١٦ أنه كان ينظر في طعام الرشيد .

(٥) الاتليدى والـفخرى .

الرسالة العاشرة

« أصبت بسادة كانوا عيوننا بهم نسقى إذا انقطع الغمام »

أكتب هذه الرسالة إليك والدمع جار في الآفاق ليس على البرامكة وهم أحياء في الناس ، ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعفت البلية رسوم محاسنها ، حتى كأنها طلل من هذه الأطلال التي يهجرها الأئس ولا يقف عندها إلا الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرقة وأفاني من قبل البرامكة رسول يستقدمني إليهم ويعلمني أن الكتاب الذي أحمله إلى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقيني عنده ويمنعني من الرجوع إلى الحضرة لما داخله في من الريّة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الإشارة ، فأصابني من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحنّ ، لأنني ما كنت أراني ناجيا من وقوع الغدر بي ووصول المكروه إليّ ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظنة بي بعد أن أدت رسالته حقها من الإخلاص ، وخدمته خدمة الناصح الأمين ، فلم أجد في نفسي علة إلا المودة التي بيني وبين البرامكة ، ^(١) فأتاني أن أنضم إليهم ، فقامت لساعتي وتبدلت بزني زى الحجاز الخاف ثم ركبت إلى بغداد متنكرا كيلا يعرفني أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت في أهلها ذلك الخمول الذي يقع في الجماعة من هول عظيم ، فاستدلت بذلك على وقوع الأمر بينهم وبين الرشيد ، فأسرعت إلى منازلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا بالسيوف ، فاسودت الدنيا في عيني وامتلأ قلبي من الوحشة وكدت أفقد إحساس رجلي من الجهد ، إلا أنه لم يكن

(١) ذكره الأغاني ١ : ٢٥٠ و ٢ : ١٢٣ وقبض الرشيد على صنائم البرامكة ومن هو مشهور

بخالطهم مذكور في كتب التاريخ .

لى وأنا طلبة الخليفة أن أطيل الوقوف تلقاء دورهم ، فرجعت أمشى على غير دراية
لعل أصادف صديقا أتوجع إليه وأستطلع أخبارهم من قبله ، حتى وصلت إلى
دار إسحق النديم ^(١) فدخلت الدار وحسرت اللثام عن وجهى ، فلما عرفنى تفرقت
عيناه دموعا ، وقال بم أندب البرامكة ؟ أعزيك أم أعزى نفسى أم أعزى الأيام
بفقدهم ، وبكى حتى خنقته العبرة ؟ وكنت فى ذلك الوقت لا أعى من شدة
الحول ، ولم يكن إسحق يكلمنى عن أمرهم مع الرشيد إلا كلاما متقطعا ممزوجا
بالزفرات .

قد علمت مما مضى إليك فى الرسالة السالفة موقف البرامكة مع الرشيد ، هو
يحاول الإيقاع بهم حسدا على ماصار إليهم من النعمة ، وهم يسلكون معه مسلك
المودة ليرجع عما قام بنفسه من الحقد وإلا أثاروا الخراسانيين خروجا عليه فى دعوة
اهل البيت . وعلمت أن الفضل بن الربيع كان موقنا بزوال النعمة عنه مع بقاء
البرامكة ، وأنه كان يخوف الرشيد مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة
فى موقف بعيد عن التخلص من دهائهم ، إذ كانت الملوك طوع أمرهم وأموال
الدولة كلها بأيديهم ، حتى ملأ صدره من عداوتهم . ثم علمت أن الرشيد كان
قد أهداهم مسروقا غلامه ليوهمهم رضاه ولكك تعلم أنه كان بينه وبين هذا
الغلام مواطاة على نقل أحاديثهم إليه وعد أنفاسهم عليهم ومراقبتهم فى جميع
حركاتهم خديعة منه ، حتى إذا نقل إليه الكلام الذى كان يحدثنى به جعفر فى المشاعر
المباركة عمد إلى هدر دمه الزكى ، ووجهنى إلى الرقة مثل المجرمين الذين فى نفوسهم
تبعة من شر نعوذ بالله من سخطه .

وقد حدثنى إسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذى نكبهم فيه قد ركب إلى
أرباض المدينة ومعه إسماعيل بن يحيى الهاشمى وجماعة من أقاربه ، وبينما هو

(١) فى الأغاني ه أن اسحق بن ميثاقا مع البرامكة بعد مقتل جعفر .

يسير إذ نظر إلى موكب عظيم قد اعترضه عن بعد ، فقال لإسماعيل يا إسماعيل لمن هذا الموكب ؟ قال لأخيك جعفر ، فالتفت يمينا وشمالا وإلى من معه فإذا هم سُرْدَمَةٌ قليلون ، ثم نظر إلى الموكب الذي فيه جعفر فلم يره ، فقال يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبه ؟ فقال ياسيدى قد مضى أخوك في طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال ما رأنا أهلا لأن يزينا بموكبه ويجلنا بجيشه ، فقال عفوا يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ماتعداك ولا سار إلا بين يديك ثم سار حتى انتهى إلى ضيعة عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة ، فقال يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ فقال لأخيك جعفر فسكت الرشيد وتنفس في كمد ثم سار وما زال بضيايع بعضها أعمر من بعض وكلما مر بضيعة سأل إسماعيل عنها فيقول هي لجعفر ولأخوته ، حتى وصل إلى الحضرة ، فلما خلا مجلسه قال يا إسماعيل انظر إلى البرامكة أغنيانهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا ، فإني لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعة من ضيايع البرامكة ^(١) على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق في جميع البلدان ؟ فقال إسماعيل يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وجميع ما يملكون هولك ، فنظر إليه نظرة جبار وقال والله يا إسماعيل ما عدّ البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وإن الدولة لهم ، ولا نعمة لبني العباس إلا وهم المنعمون بها عليهم ، فقال أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليه ، فقال والله يا إسماعيل إنك لتعلم أني قلت هذا وكأني بك تخبرهم به فتتخذ به يدا عندهم ، وإني أمرك أن تكتم هذا الأمر فإنه لم يعلم به أحد غيرك ، ومتى بلغهم شيء مما جرى بيني وبينك علمت أنه ما أفشاه إلا أنت ، فقال يا أمير المؤمنين اعوذ بالله أن مثلي يفشى سرّك ، ثم ودعه وجاءه من الغد وهو في محل من قصره يشرف على دجلة وبازائه منازل البرامكة التي كانت محفوفة باليمن والبركة ، فقال يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب وليس على باب دارى أحد ، فقال يا أمير المؤمنين

(١) الديميرى : ١٥٤ والعقد الفريد ٤ : ٣١

ناشدتك الله ألا يعلق بنفسك شيء من هذا ، فإنما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك ، وبابه باب من أبوابك فإذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون ؟ فقال والله إن البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتي إلى محبة العلويين وتعزيز شعيتهم ، وأنا لا أصبر على ذلك ^(١) .

وكان جعفر في ذلك الوقت قد عزم على الركوب إلى خراسان ^(٢) وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من سوء ، فما أحب أن يتركهم بغير حراسة ، وإنما أبقى في يد الفضل رجلا يعرف فيهم الأمانة ليقمهم مكاييد الرشيد غير أن الرشيد قد فطن لما كان يبشره من تعبئة الجند فأيقن بالإشراف على الخطر ، إلا أن يتحمل في أمر يغلبه به قبل ركوبه إلى خراسان ، فأرسل إلى بني هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم جماعاتهم ، وأمر الفضل بن الربيع أن يحوط دور الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مزيد الشيباني ^(٣) أنه إذا ركب جعفر من الغد إلى دور الخلافة يبعث بمن يحوط البرامكة ويقبض عليهم ^(٤) ، واستبقى الأمر سرا لم يستخدم في قضائه إلا جماعة من أقاربه ^(٥) دون الغلمان الذين كان يغمرهم جودهم وكرمهم ، ثم أرسل في تلك الليلة إلى جعفر من يقول له إنه يمكنه من بيوت المال أن يتناول منها ما يشاء ، ويأخذ من الجند إلى خراسان من ينتخبه ويريده ، وإن أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة حتى لا يفتنوا لما أخذ في تديره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما في تحمل الرشيد من المصانعة والرياء ولكنه ظن أنه يريد استمالتهم ورجوعهم إلى الثقة به لا أنه يريد نكبتهم في صباح تلك الليلة .

(١) أبو الفداء ٢ : ١٧

(٢) ذكر الاتليدي أن جعفرا كان عازما على الركوب إلى خراسان في ذلك الوقت .

(٣) وقد تقدم أنه كان منحرفا عن البرامكة .

(٤) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد الفريد .

(٥) ابن خلكان ١ : ١٥٢

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسرورا (١) وقال له قد انتخبك لأمر
لم أره مجدا ولا عبد الله ولا القاسم (٢) فحقق ظنى فيك واحذر أن تخالف فتهلك ،
فقال مسرور لك على إمرة مطاعة ، فمرنى بقتل نفسى أفعل ، فقال له امض
الساعة إلى الحديقة وحوطها بالحرس وضم إلى جماعة من الغلمان ثم اذهب إلى
جعفر وجئنى به وقل له إنه وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب فلا تدع
من معه يدخل بعده ، فإذا تمكنت منه فخذ رأسه ولا تراجعنى فى ذلك ، وإياك
إياك أن يفوتك الأمر . فسار مسرور إلى جعفر فأصابه فى داره قد طرح نفسه
ليستريح ، فقال له يا سيدى أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة فى خريطة
البريد من خراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلد سيفه ثم ركب فى جماعة من الحرس
والجند ، لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به ، فلما دخل الباب طلع عليه
من فى الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلمانه وهم غير مأورين بالقتال ، فانفرد به
مسرور وبضعة عشر رجلا دخلوا معه الباب فجرد عليه السيف وصاح بمن معه
من العبيد فأهدروا دمه . وإنى لست أنسب أنسب الشر إلى مسرور هذا الخادم اللئيم ،
فما هو إلا ذنب من استرعاه وهو الرشيد ، ومن استرعى الذئب فقد ظلم ، ومع ذلك
إنى لا أبرئه من تبعة ذلك الإثم الفظيع ، ولا أرى بينه وبين شديد العقاب
إلا الموت الذى يساق بعده إلى دار العذاب .

هذا ما بلغنى من استحق ثم سمعت فى أحاديث الناس أن جعفرا لما صار
فى وسط الحديقة ولم يرمعه الجند ارتاع وندم على ركوبه فى تلك الساعة ، فقال
لمسرور يا أخى ما القضية ؟ فقال يا سيدى إن أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك ،
فيقولون إن جعفرا بكى حينئذ وجعل يقبل مسرورا ويقول له أنت تعلم إكرامى لك
دون خدم الرشيد وأن حاجاتك عندى مقضية فى جميع الأوقات ، وأنت تعرف

(١) الاتليدى والأغانى ١١ : ٥٤ وابن خلكان ١ : ١٥٢ وابن الأثير ٦ : ٦٣

(٢) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الأمين والمأمون والمؤمن أولاده .

مكانتي عند الرشيد وما يوجه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكونوا بلغوه عنى باطلا ، وهذه ألف ألف دينار ، وفي رواية عشرة آلاف ألف دينار أدفعها إليك الساعة وخلقني أهم على وجهي ، فقال لا سبيل إلى ذلك ، فقال احملني إليه وقفني بين يديه ولعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة فيصفح عنى ، فقال وهذا أيضا لا سبيل إليه ^(١) ، ولا يمكننى مراجعته ، فقال توقف عنى ساعة وامض إليه وقل له إنك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد ، وإني أشهد الله وملائكته على أنى أشاطرك نعمتى وأوليك من الأمور جسيما إن فعلت ذلك وسلمت لى نفسى ، ولم يزل به وهو يبكى فما يقولون طمعا فى الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ، ثم إنه وكل به غلمانا من السودان يحفظونه ومضى إلى الرشيد وهو جالس يقطر غضبا ، فلما رآه قال له ثبكتك أمك ماذا فعلت ؟ قال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك ، قال فأين رأسه ؟ قال فى قبة الحديقة ، قال فأتنى به الساعة ^(٢) ، فرجع مسرورا وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلى الثانية بل سل سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدى الرشيد يشخب دما ، فيقولون إن الرشيد تنفس الصعداء وبكى بكاء شديدا ، وجعل يقول كالمعاتب يا جعفر ألم أحلك محل نفسى ؟ يا جعفر ما كافأتى ولا عرفت حتى ولا حفظت عهدى ولا ذكرت نعمتى ولا فكرت فى صلاح أمرى يا جعفر قد غررتك نفسك فدار عليك الدهر ، وكان يقول ذلك وهو يقرع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة ، وكان ذلك بين سلخ المحرم ^(٣) وأول صفر ^(٤) .

(١) الأغاني ١١ : ٥٤ والالتىلى ١٣٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) ابن خلكان ٢ : ١٥٢

(٤) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦

وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بي هذه الأخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفس الزكية بقضاء لا حيلة بعده إلا اللوعة والندم. فكنت مثل الرجل الذى يرى فى منامه هولا يتزل به وهولا يدرك سره . ولا يجد لنفسه مرداً يتق به شره . وإن كان يسوءنى من الرشيد احتياله فى مصانعة البرامكة ^(١) قبل ركوب جعفر إلى خراسان ليذهلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظنا بزوال ما عنده من الموجدة ، مع أنه كان يضممر قتلهم ^(٢) (والعياذ بالله من شرور النيات) . فإنى ليسوءنى أكثر من ذلك تتبعه النعمة فيمن أخذه منهم (كشف الله الغمة عن قلوبهم) فقد بلغنى عن يحيى والفضل (واحرقناه) جهد شديد يقاسيانه فى الحبوس ، فإنهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه ، ويشتهيان الطعام تأتئهما به الحراس فلا يجدان من يطبخه لهما فيتولين طبخه بأنفسهما ويقومان على القدر ^(٣) مع جلالة قدرهما فيارحمنا هؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدرا ^(٤) تنعاه عليه الأيام . ويُسأل عنه فى يوم القيام . وإنى لأحسب جعفرا مع ما أصابه من الأمر الفظيع أكبر حظا من أبيه واخلوته ، إذ قديم على ربه شهيدا فى دعوة أهل البيت ولم يصر إلى هذا الهوان ^(٥) الذى صاروا إليه وهم الذين عرفتهم عظماء الملة . والرؤساء من أهل التيجلة . والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منعة لم يكن مثلها لدولة من دول الإسلام .

(١) فى الأغانى ١١ : ٥٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة .

(٢) فى العقد ٣ : أنه كان يريد قتلهم .

(٣) الاثليدى ١٧٨

(٤) الفخرى .

(٥) ذكره هوان البرامكة فى محبسهم ابن الأثير وابن عبد ربه والابشهى والاثليدى وأبو الفرج

وغيرهم .

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو أستنبط حيلة لإنقاذهم مما يعانون من الشدة ، غير أنى رأيت الأمر لا يتم على الوجه الذى أرومه إلا بالقوة التى تغالب الحرس . ولما كانت جماعتنا فى بغداد فئة قليلة من الرجال وأكثرهم داخل فى جيش الخليفة وتحت إمرة العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة إلى فارس ليست من رأى الصواب ، ولم يكن إجماعى عن ذلك خوفا على نفسى من القتل لأن النفوس لا يعظم بذلها فى سبيل البرامكة ، ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذى يضيق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس إلى الوصول إليهم أو الثأر بدمهم ، فقد بلغنى أنه لما قام عثمان بن نهيك لثأر لجعفر ؟ وهو يقول والسيف صلت فى يده . ياضل ما تجرى به العصا ، واجعفره ، واسيده . والله لأقتل قاتلك ولأثأرن بدمك ^(١) عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرز سيقه ، الكريمة نفسه على التضيق عليهم وتفريقهم فى الحبوس المنقطعة وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم ^(٢) حتى يقتلهم بالشدة التى هى أمر من القتل .

وقد مضى على اليوم فى بغداد وأنا متقطع النفس سبعة وأربعون يوما لم آل فيها جهدا للوصول إليهم فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال ، وكنت أحب أن ألقى أحدا من خدمهم وحجابهم فلم أظفر بواحد منهم فى بغداد ، وكأنى بهم قد تصدعوا فى الآفاق ^(٣) فى جملة من هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم ^(٤) ومن هو معروف بخالطتهم من العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب ، غير أنى رأيت فيمن بقى من الطامعين فيهم دموعا يسترونها عن العيون ، وما وجدت منهم إلا منقبض النفس ومن يذيه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد فى لوم

(١) ابن الأثير ٦ : ٦٦

(٢) أبو الفداء ٣ : ٨ والأغانى ٨ : ٧٩ والتلبدى ١٧٤ وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) التلبدى ١٧٤

(٤) الاغانى : ١٨٣

الرشيد على قتلهم^(١) فما أذكر أنى نزلت مرة إلى السوق إلا نظرت رِقاع الأشعار
معلقة على الحيطان رثاء لجعفر وثدبا للدنيا لما لحق أهله من النكبة الفظيعة . ومما
بقى في ذهني من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه الرقاشي أو أبا نواس^(٢) :

الان استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للطايا قد أمنت من السرى وطى الفيافي فدفا بعد فدفا
وقل للنساي قد ظفرت بجعفر ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطى وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً أصيب بسيف هاشمى مهنداً
وقولهم^(٣) :

يامتزلاً لعب الزمان بأهله فأبادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفزع من رأك وطلما كما إليك من المخاوف تفزع
ذهب الذين يعاش في أذافهم وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقرأت رقعة مكتوبا عليها هذه الأبيات وأظنها من نظم أنس بن أبي شيخ
النصرى^(٤) صاحب جعفر برد الله . ضجعه وسقى ضريحه صيب الرحمة والرضوان :

(١) أبو المحاسن ١ : ٥٢٧ والفخرى وابن الأثير ٦ : ٧ والعقد الفريد والالتيدى .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٤ وأبو الفداء ٢ : ١٨ والمسعودى ٣ : ٢٧٩

(٣) الالتيدى ١٨٠

(٤) ذكره صاحب الأغاني ١٧ : ٣٣ وقال صاحب العقد الفريد إن الرشيد قتله بعد نكبة

لعمرك ما في الموت عار على الفتي إذا لم تصبه في الحياة المعاير
ومن كان مما يُحدث الدهرُ جازعا فلا بد يوما أن يرى وهو صابر
فلا يبعدنك الله عن جعفرنا بروحي ولو دارت على الدوائر
فأليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فني ورقاء أو طار طائر
وقال علي بن أبي معاذ (٢) :

يا أيها المغتر بالدهر	والدهر ذو صُرف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصولاته	وكن من الدهر على حذر
إن كنت ذا جَهْل بتصرفه	فانظر إلى المصلوب بالجسر
وخذ من الدنيا صفا عيشها	واجر مع الدهر كما يجري
كان وزير القائم المرتضى	وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها	إليه في البر وفي البحر
يشيّد الملك بأرائه	وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر في ملكه	عشية الجمعة بالقصر
يطير في الدنيا بأجناحه	يأمل طول الخلد والعمر
إذ عثر الدهر به عثرة	ياويلنا من عثرة الدهر
فغودر البأس في ليلة السـ	بت قتيلا مطلع الفجر
وجيء بالشيخ وأولاده	يحيي معا في الغل والأسر
والبرمكيين وأتباعهم	من كان في الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد	كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أحدىثة	سبحان ذي السلطان والأمر

(١) الأغاني ١٥ : ٣٦

(٢) المسعودي ٢ : ٢٢٩

وقال سلم الخاسر :

خوت أنجم الجدوى وشئت يد النوى
هوت أنجم كانت لأبناء برمك
وغاضت بحار الجود بعد البرامك
بها يعرف الهادى طويل المناسك

وقال أشجع السامى :

ولّى عن الدنيا بنو برمك
كأنما أيامهم كلها
فلو توالى الناس ما زادوا
وهى لأهل الأرض أعياد

وقال فيهم أيضا :

قد ساد دهر بنى برمك
كانوا أولى الخير وهم أهله
ولم يدع فيهم لنا لقيا
فارتفع الخير عن الدنيا

وقال فيهم صالح الأعمرابى :

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك
ألم يك يحى والى الأرض كلها
وأى ملوك لم تنهب دهورها ؟
فأضحى كمن وارته منها قبورها ؟

وقال واحد من بيت البرامكة فى رثائهم وقيل بل هو سليمان الأعمى أخو مسلم
ابن الوليد :

أصبحت بسادة كانوا عيونا
فقلت وفى الفؤاد ضريم نار
وللعبرات من عيني انسجام
ودولة آل برمك السلام
ومن يجزع عليك فلا يلام
وعزّ بفقدك القوم اللثام
حساما قدّه السيف الحسام
وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى

أصبحت بسادة كانوا عيونا
فقلت وفى الفؤاد ضريم نار
على اللذات والدنيا جميعا
جرعت عليك يا فضل بن يحيى
هوت بك أنجم المعروف فينا
وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى

الى أن يقول :

أألهو بعدكم وأقرّ عينا على اللهو بعدكم حرام
وكيف يطيب لي عيش وفضل أسيرُ دونه البلد الشام
وجعفر ثاويا بالجسر أبلت محاسنه السائم والقّتام
أمرٌ به فيغلبني بكائي ولكنّ البكاء له أكتام
أقول وقت مستحبا لديه إلى أن كاد يفضحني القيام
أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول قبرك واستلمنا كما للناس بالجمر استلام^(١)

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن في الدولة فلذلك منع الشعراء من رثائهم^(٢) وجعل عقاب من يُقدم على ذلك القتل^(٣) ، وأمر الحراس أن ينزعوا الرقاع التي علقت في الأسواق لئلا يثور ثائر الشعب من الشعب^(٤) ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التي كان يرومها من محو ذكركم^(٥) وطمس معالمهم بعد أن زينوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت في قلوب الناس محبتهم^(٦) بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء . ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لا يقف عند ما كان يراه من وقوع الفتن في الدولة فربما وصل إليه أن فارس قد قامت فيها القيامة ، وأن خراسان^(٧) قد عصفت فيها ريح

(١) الأغاني ١٥ : ٣٦

(٢) الفخرى والنواجي والالتلیدی .

(٣) الإبتحاق ٩٨

(٤) أعلام الناس ١٧٤

(٥) ابن الأثير ٦ : ٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٢٦ وابن خلكان .

(٦) الالتلیدی وابن الأثير والفخرى وأبو الفداء .

(٧) الالتلیدی ١٧٤

الفتنة ، والمغرب قد تضعضع حكمة في يد ابن الأغلب ، والروم قد جاشوا في بلدهم
وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف
آل الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم ، ولا أرى لهم بها استمناحا طويلا كما يشير
أبو نواس إلى ذلك بقوله ^(١) :

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع عهدا ليحيي غير راع ذمام آل الربيع ^(٢)

حتى إذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينهبهم العزم ولا الحزم
على إبلاغ الرشيد بأنفسهم ^(٣) بل اتخذوا طريقة البلاغ على ألسنة الندماء ، وفي
ذلك يقول الشاعر استخفافا بالأمر ، وهذا بعيد عن سياسات الدول ^(٤) :

نقض الذى أعطاكه تقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غم أذاك به الإله كثير

فتأمل (رعاك الله) هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في أيام البرامكة ^(٥)
كيف صارت إلى رجال لا رأى عندهم ولا عزيمة ، فإن بلغك عن وهنها خبر فيما
بعد فاعلم أن صدور هذا الفتور ناشئ عن فتور الصدور . وهذه الجنود التي تراها
في قبضة الرشيد لا تتفع دولته ما لم يكن عنده عقل يدير به سياسته ، فكم رأينا من
دولة كانت في العالم عظمة فأعمى ساستها الجهل فانحطت لفقدان الحكمة . ودولة
كان أمرها في توانٍ فتولاها رجال كبراء أصالحوا ما فيها من الاختلال ، وصعدوا

(١) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول :

أيها الراكب المجد إلى الفضل — ل ترق فدون فضل حجاب
ونعم هبك قد وصلت إلى الفضل — ل فهل في يدك إلا التراب

(٢) المحاضرة ٢ : ١١٤

(٣) الأغاني ١٧ : ٤٦

(٤) السيوطي وابن خلدون وابن الأثير ٦ : ٦٦ والأغاني ١٧ : ٤٥ والمسعودي ١ : ١٥٨

(٥) الإتيدي .

بها من العزة المقام الذى لا ينال . وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطل السياسة والتدبير إذ ضم الإسلام إلى مصلحة واحدة من طرف المشرق إلى أقصى المغرب ، ^(١) ثم أقام دولته على هذا الأساس المتين ، ثم تأمل ما صنع الحجاج بن يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين أقرب إلى طاعة الأمويين من الشام ومصر ثم انظر إلى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبى مسلم (رحمه الله) وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد الفرس والأكراد إلا بسياسة خالد البرمكى الذى ضمن له الكفاية عليهم بالرأى ^(٢) دون الجنود . وانظر إلى دولة الرشيد كيف زهت فى وزارة البرامكة بما لم تزه به دولة ^(٣) الهادى ، ووزرائه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق إلى وهم الناس ، لأنه لم يكن لأبى مسلم من الرجال ما كان لملوك بنى أمية ولم يكن للرشيد ما كان للهادى قبله . وإنما كان المعز لها رجالا يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون . وفى ضوءها يسيرون ، ولا سيما هؤلاء البرامكة الأبحاد الذين حرم الرشيد دولته مشاركتهم له فيها وتدبير شؤونها ، ولست أعلم ما يكون من أمره مع صُهب السبال ^(٤) ولقد قام به اليوم من الندم والأسف ^(٥) على جعفر والتلف على ما سبق به القضاء ما يشغله عن الدنيا قاطبة ، فقد أخبرنى من هو مقرب إليه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكى عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه إلا أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط

(١) نذكر هنا أنه ما توطد للإسلام ملك فى إفريقيا إلا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٣) الزنجشرى فى ربيع الأبرار .

(٤) هى لقب للروم .

(٥) الأغا ١٧ : ٧٤

منه في امره ^(١) وإذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يجدونه من الندماء ^(٢) ليستأنس بهم ويتسلى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلال السياسة في دولته وكثرة الأراجيف .

فما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائرا على ألسنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد إليها ، وإن كانت خواطرهم متوافقة في لومه والبكاء على جعفر . فن قائل إنه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموال الجباية ، حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه ، ومن قائل إنه حنق على جعفر لتطاوله عليه في الكلام إذ كان يقول لي لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكون ذلك وبالا سريعا عليه ^(٣) ، ومن قائل إنه تنغص من الفضل ان يكون أكرم من أولاده ، ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لسانا وأحكم سياسة ، ومن مجد أن يفضلهم في المروءة ، ومن موسى أن يغلبهم في الشجاعة فنكبتهم لذلك .

ولست أطيل عليك الكلام في أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالأرزاء وسحب عليهم أذيال الفناء . ولو أني كتبت إليك غير ما ذكرت ما بقي لدى إلا البكاء والتعجب ، على أني أحب أن أختم رسالتي إليك عنهم بذكر مأثرة من بعض ما صنعوا إلى الوري من الجميل . وهي أن الرشيد ^(٤) مع تشديده في النهي عن رثائهم بلغه أن رجلا يحضر ليلا إلى دورهم وينشد أشعارا ويذكر محاسنهم ومآثرهم

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٨

(٢) ابن خلكان ١ : ٣٢٠ وذ كر غيره أن الرشيد كثيرا ما كان يوجه خادمه في طلب بعض خواص الدولة ومن يكون عندهم حينما يطلبهم .

(٣) الاتليدي ١٦٨

(٤) هذه القصة قد وقعت للأموون لا للرشيد وإنما ذكرناها ها هنا تيمنا لحاسن البرامكة .

ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف ، فدعا مسرورا هذا الخادم اللئيم وسأزه بالأمر وأمره بأن يمضى تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التي كانت مظهر الأتس بما آتى الله أهلها من سعة الملك . وأن يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما له وأظنهما ياسرا ومروان ، حتى إذا جاء ذلك الشيخ وبكى ونذب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما آخر الليل إلى تلك المنازل ، فإذا هم بـغلام قد أقبل ومعه بساط وكرسى حديد ، وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة ، فجلس على الكرسي وجعل يبكى ويتنحب ويقول :

ولما رأيت السيف جدل جعفرنا ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففرع
فرعا شديدا ، وقال دعونى حتى أوصى بوصية ، فإنى لا أوقن بعد اليوم بحياة ،
ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلمها
لـغلامه ، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد ، فلما مثل بين يديه زجره وقال له من
أنت ؟ وبم استوجب البرامكة منك ما تفعل فى خربات دورهم ؟ فقال يا أمير
المؤمنين إن للبرامكة أيادى خطيرة ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ؟ قال
قل ، فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى
نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين واحتجبت إلى بيع ما على رأسى
ورءوس أهلى وبيع بئى الذى ولدت فيه أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت
من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية ، وليس معنا ما يباع أو
يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها
لأستتر بها فليستها وخرجت وتركتهن جياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد

فاذا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ متري بأحسن زى وزينة ، وعلى الباب
 خادمان ، وفي الجامع جماعة جلوس فطمعت فى القوم ، ودخلت المسجد وجلست
 بين أيديهم ، وكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، والعرق يسيل منى ، لأنها لم تكن
 صناعتى وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم ، فقاموا وقت معهم حتى دخلنا جميعا
 دار يحيى بن خالد ، وإذا هو جالس على دكة فى وسط بستان فيه أطيب الرياحين
 فسلمنا عليه فرد علينا السلام وهو يعدنا مائة وواحدا ، وبين يديه عشرة من ولده
 وإذا بغلام أمرد قد عذر خداه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم
 متمنطقون فى أوساطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل
 واحد مجرة من الذهب ، فى كل مجرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد قرن بها
 مثلها من العنبر بخاس الغلام بجانب يحيى ووضعت تلك المجامر بين يدى الغلام ،
 ثم قال يحيى للقاضى زوج بنتى عائشة من ابن عمى هذا نخطب القاضى خطبة
 الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنتار من بنادق
 المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كفى ، ونظرت فإذا الحاضرون
 بالجلوس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنى عشر رجلا ، وإذا بمائة
 واثنى عشر خادما قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صينية من فضة عليها ألف دينار ،
 فوضعوا بين يدى كل واحد منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير
 فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ، ويقومون واحدا بعد واحد حتى
 بقيت وحدى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزنى خادم فجسرت على أخذها ،
 وجعلت الذهب فى كفى وأخذت الصينية بيدي ، ثم قمت وجعلت ألتفت خلفى
 مخافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال
 للخادم ايتنى بهذا الرجل ، فرددت إليه ، فأمرنى بصب الدنانير والصينية وما فى كفى ،
 ثم قال اجلس بفلسك ، فقال لى من الرجل ، ولم تلتفت خلفك ؟ فقصصت عليه
 قصتى فقال للخادم ايتنى بولدى موسى ، فأتى به ، فقال يا بنى هذا رجل غريب نخذه
 إليك واحفظه بنفسك ونعمتك ، فقبض موسى على وأدخلنى إلى دار من دوره

وأكرمنى غاية الإكرام وأقتت عنده يومى وليلتى فى ألد عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا أخاه محمدا وقال له إن الأمير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وغير خاف عليك اشتغالى اليوم فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وحوطه بنعمتك ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام ، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه العباس فبت ليلتى عنده بين غناء وأنوار وبهجة ثم تسلمنى أخوه خالد ^(١) ولم أزل فى أيدى البرامكة يتداولوننى مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وأهلى أفى الأموات هم أم فى الأحياء . فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الحشم والغلمان فقالوا لى قم فانخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت ويلاه سلبتُ الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، ولما رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما يكن لك من حاجة فارفعها إلى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، ثم بدت لى حجرة كالشمس بهاء وإشراقا ، واستقبلتنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وأهلى يتقبلون فى الحرير والديباج ، وحمل إلى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما معها من الدنانير والبنادق ، وأقتت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أنا من البرامكة أم رجل غريب اصطنعوه ، فلما نزلت بهم الفاجعات أبجفنى عاملك على العراق وألزمنى فى هاتين الضيعتين ما لا يفى دخلهما به . ولما تحامل على الدهر كنت فى آخر الليل أقصد منازلهم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلى واشكر عطفهم على . فقال الرشيد كم أخذ منك هذا العامل ؟ قلت كذا وكذا ، قال هو مردود عليك وستبقى أنت وعيالك من بعدك على ما كان لك فى أيام البرامكة . فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة بكائه ، قال له يا هذا قد أحسنا إليك برد ما قد سلب منك فما يبيحك ؟ فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت منازلهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٨ من أولاد يحيى بن خالد .

خبري بأمر المؤمنين وفعل بي ما فعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، فدمعت
عينا الرشيد وظهر عليه الحزن ، وقال لعمري هذا من صنائع البرامكة فعلهم فابك
ولما هم فاشكر^(١) ، ولله درأبي نواس حيث يقول في وداع الدنيا التي أوجشت
لفقدهم :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من راحلين وغاد^(٢)

(١) الفخرى والأنليدي ١٩٩ والأبشي ٢٤٣: ١

(٢) الوطواط ١١٣

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتى اليوم إليك سطورا قد كتبتهما بدموع العين وأنا بين حزن على هؤلاء الشهداء . وخوف من الرشيد أن يعلمه بموضعى الرقباء فيقطعنى ما ينالنى منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم فى خراسان وفارس وسائر بلاد الخير واليمن ، لأنى علمت من بعض المقرين إليه أنه يطالبنى طلبا حثيثا ، وقد جعل لمن يأتية بى مالا جزيلا ، وربما كان هذا الكتاب آخر عهدى بمراسلتك بعد اليوم وإن كنت قد رأيت فيما تقدم إليك من الكتب السالفة أن العرب قد حصلوا فى زماننا هذا ما لم يحتاج فى صدورهم زمن الخلائف ، ونبغوا التبغ التامة فى جميع الفنون والصناعات والمعارف ، وتجزوا فى حكمة الروم والفرس على اجتهد ، ودقنوا أصول الشريعة فى مذاهب صحيحة المبدأ جميلة المعاد ، فإنما الفضل فى ذلك كله عائد إلى البرامكة ، وهم الذين رفعوا منار العلم وقربوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعطيهم بالمال الكثير ، وكان عصرهم تاجا^(١) على هامة الدهر ونورا أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة إلى سمو الارتفاع ، ومن عماية الجهل إلى نور الاطلاع . فما هو عندى إلا الزمن الذى يبق موسوما عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والانتفاع بعلوم الأعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك^(٢) الذين كانوا جمال المشرق وحصن الإسلام وزينة العالم^(٣) ومنعة هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم إلا بالحيل والمكايد ، فإنك لتعلم أن الدعوة التى قام بأعبائها أبو مسلم (رحمه الله) إنما كانت لذرية النبى (صلى الله عليه وسلم) وهم أولاد الحسن والحسين (رضى الله عنهم) ولم يكن للعباسيين غرض فى انضمامهم إليها إلا مقارعة بنى أمية فى جملة من انضم

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٢) الزمخشري فى ربيع الأبرار .

(٣) يقول الحصرى ٢: ١٠٣ إن أيامهم كانت روض الأزمنة .

إليها من أهل البيوتات ، حتى إذا خدمهم السيف رأوا أن ينفردوا بالخلافة دونهم ، ويصرفوهم عنها بالحيلة التي كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العمال وإرهاق الرعية في الخراج ، حتى يوقع فيهم الفشل ويقعدهم عن الخروج عليه في دعوتهم ، فكان عظماء الملة يرون ذلك منه ولكنهم لم يروا أن يحملوا الأمة على الخلاف ضنا بالنفوس الصالحة أن تسيل دماؤها في قتال المسلمين بالمسلمين ، فثبت له الملك من هذا الوجه ، لم ينازعه فيه إلا جماعات متفرقة من أهل الدعوة ومن كان لا يضمهم الغرض إلى جامعة واحدة في جميع الأنحاء ، فلم يستطيعوا مقاومته ولا بلغوا من غرضهم إلا أن جعلوا له سيلا إلى غلب جماعة منهم بعد جماعة ، فلما تغلب عليه حب الولد نفلع ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها للمهدى من بعده لم يكن في الناس إلا من يتغص ذلك عليه ، يخاف الربيع أن تذهب الخلافة من ولده وله في مصيرها إلى المهدى مصلحة لا تكون في دولة غيره من أهل البيت ولا من العباسيين أنفسهم ، ففثق له عقله تلك الحيلة التي تسارع أهل الحل والعقد إلى تنفيذها خوفا من أبي جعفر لظنهم أنه حتى لم يمت ، فلما استوثق له الأمر استهل خلافته باستمالة الناس بالإحسان والمعروف حتى لا تنفر منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعة لسيرة أبيه ، وأقام لهم ديوان المظالم ورفع عنهم ضرائب الخراج ووسع لهم أسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم حتى استسلم لغرضه وصاروا طوع يمينه ، فلم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يأمن خروج أهل الدعوة في جمع غير متفرق فرأى أن يستميل إليه الحرم الآمن وهو الموضع الذي ينادى فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت ففرق في أهله الأموال الجسام . ووالى على عامتهم جزيل الإنعام ، وجدد لهم بناء البيت الحرام وعهد إلى عظمائهم بالولايات والإمارات ، وأجرى الأرزاق الواسعة على من استخدم في الجند من أولادهم كما علمت . فلما آلت الخلافة إلى الهادي وصارت إرثا في بيت أبي جعفر رأى البرامكة برأيهم الصائب أن ليس للعوليين بعد ذلك كله مطمع في المشرق بإزاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصامهم ، فانصرفوا عن تدبير

أمر الحرمين إلى تمهيد الطريق لخلافتهم في المغرب ، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله إلى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت في إفريقية ويقنع بما دبروا له من السلطان العظيم الذي لم يكن مثله لأحد من الخلفاء قبله ، فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرعية بالدين والعطف بعد أن أمتنوه خروجهم في دعوة أهل البيت وبنى أمية وغيرهم ، فخرى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم برهة من الزمان ثم غلب عليه حب الأثرة فرجع إلى الشدة ونكّل بمن كان أحب الناس إليه .

هذه هي دولة العباسيين التي أشرقت شروق الشمس في البهاء والعظمة ، وإنها لتحتاج إلى رجال عقلاء يديرون سياستها ، لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بأموال الملك ما قامت لها قائمة بعد ذلك ، فاليوم أترك الإسلام بين رايات خضروسود وبيض ، فأما العلويون فإنهم حائزون أمر المغرب وهم أهل سيف شديد الوطأة . وأما الأمويون فإنهم يرتقبون الخلافة من وراء البحار ، ويرومون إعادة الملك الذي ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم في دمشق ، والمسلمون في عرض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق ، فإذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهي متفرقة على أغراض لا تضمها إلى الوحدة فما الظن لو جمعتها عصبية الدين إلى جامعة الإسلام ففي المسلمين ملوك عظام أحسبهم ينتهبون إلى ما بهم من الانقسام . ويقىمون على أساس الجامعة دولة تهتر لها دول الروم والله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

الأسفار التي وجدت بين يدي وأسندت إليها رواية الرحالة (علوم الدين والشرع)

السنة	الطبع	
١٢٨٧	المطبعة الأميرية	الإتقان للسيوطي
١٨٥٣	بن	الأحكام السلطانية للوردى
١٢٨٦	لمطبعة الأميرية	رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين
١٢٧٦	القسطنطينية	مجمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده
١٢٧٩	المطبعة الاميرية	شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك
١٢٨٧	مصر	كليات أبى البقاء
		ومطالعات فى صحيح البخارى وتفسيرى الزمخشري والبضاوى
		(علم اللغة)
		صحيح الجوهرى . المحيط للفيروزابادى . فقه اللغة للثعالبي
		(الممالك والبلدان)
١٨٧٧	ليدن	أحسن التقاسيم فى معرفة البلدان والأقاليم للمقدسى
١٨٧٢	»	المسالك والممالك لابن حوقل
١٨٥٢	»	الرحلة (إلى المشرق) لابن جبير
١٨٦٦	ليبسيك	معجم البلدان لياقوت
١٨٤٠	باريس	تقويم البلدان لأبى الفداء
١٨٦٥	»	المسالك والممالك لابن خرداذبة
١٨٣٧	»	الفيض المديد فى النيل السعد لأحمد المنوفى
١٨٧٠	ليدن	مسالك الممالك للاصطخرى

السنة	الطبع	
١٢٧٠	المطبعة الأميرية	الخطوط والآثار للقرنيزى
١٧٨٩	توبنك	آثار مصر لعبد اللطيف
—	رومية	نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للادريسى
١٨٥٣	باريس	تحفة النظار فى عجائب الأسفار لابن بطوطة
١٨٤٨	غوتنغن	أخبار العباد وآثار البلاد للقرزوينى
—	خط	جواهر البحور ووقائع الدهور لإبراهيم بن وصيف شاه ...
—	»	نشق الآثار فى عجائب الأقطار لمحمد بن إياس
(السير والاخبار وأيام الناس)		
١٢٩٠	المطبعة الاميرية	الكامل لابن الأثير
١٨٨٠	ليدن	تاريخ الملوك وأعمارهم للطبرى
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون
١٢٨٦	القسطنطينية	تاريخ أبى الفداء
١٨٥٨	غريفزولد	الآداب السلطانية والدول الإسلامية للفقيرى
١٢٨٣	المطبعة الأميرية	مروج الذهب للسعودى
١٢٧٩	»	نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للقرى
١٢٧٥	»	وفيات الأعيان لابن خلكان
١٦٦٣	ا كسفورد	تاريخ الدول لأبى الفرج الملطى
—	المطبعة الأميرية	أخبار الدول والإسلام (الخميس)
—	خط	تاريخ الخلفاء للسيوطى
١٢٨٣	مصر	الأئس الجليل فى تاريخ المقدس والخليل للسيوطى
—	مصر طبع حجر	حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى

السنة	الطبع	
١٨٥١	ليدن	النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي المحاسن ...
١٢٨٠	المطبعة الأميرية	إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس للأتليدي ...
—	خط	فتوح الشام للوافدي
١٢٩٠	المطبعة الأميرية	آثار الأول للقرماني
١٧٨٢	»	فوات الوفيات لمحمد بن شاكر
١٢٨٣	»	العقد الفريد لابن عبد ربه
١٢٨٦	تونس	المونس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار
—	خط	قضاة الشام لشرف الدين الأنصاري
		لطائف الأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب
١٣٠٠	مصر	الدول للإسحاقى
—	—	تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين للشرقاوى ...
١٣٠٠	مصر	مطالعات في ابن الوردي والأزرقى

(العلوم الأدبية)

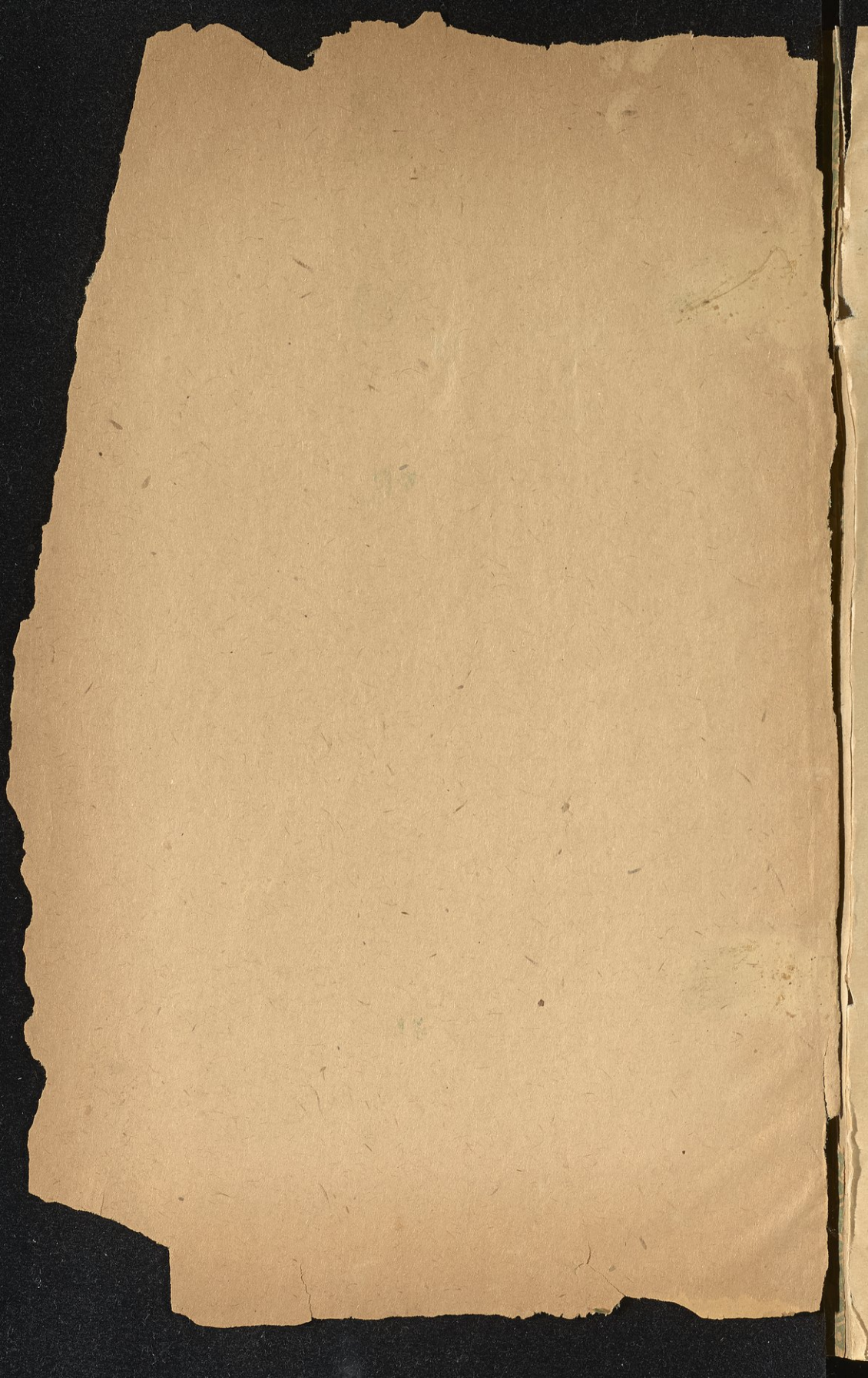
الفهرست لأبي يعقوب الوراق :

١٨٦٣	لندن	حاجي خليفة . كشف الظنون . عن العلوم والفنون ...
١٢٨٥	المطبعة الأميرية	الأغانى لأبي الفرج الأصبهاني
١٨٧٩	بيروت	المقدمة لابن خلدون
—	المطبعة الأميرية	المثل السائر لابن الأثير
١٢٩٩	القسطنطينية	أدب الدنيا والدين للماوردي
١٢٧٥	المطبعة الأميرية	حياة الحيوان للدميري
١٨٤٩	كوتسكن	عجائب مخلوقات للقزويني

السنة	الطبع	
١٢٩١	المطبعة الأميرية	خزانة الأدب لابن حجة
—	بيروت	مقامات الحريري
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	مجمع الأمثال لليداني
١٢٧٧	باريس	قلائد العقيان للفتح بن خاقان
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيبي
—	حجر	نهج البلاغة للإمام علي كرم الله وجهه
—	خط	طبقات الشعراء لأبي عبيدة
١٢٧٨	مصر	شرح لامية ابن الوردي للقناوي
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	سراج الملوك للطرطوشي
١٢٨٦	»	الطبقات الكبرى للشعراني
١٢٦٢	باريس	مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر
١٢٨٨	المطبعة الأميرية	الكنز الممدفون والفلك المشحون للسيوطي
١٢٨٤	»	شرح مقامات الحريري للشريشي
—	خط	الكشكول لبهاء الدين العاملي
—	دمشق	يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر للثعالبي
—	—	زهر الآداب وثمر الألباب بهامش العقد الفريد للمصري
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	غرر النصائح الواضحة للوطواط
—	خط	سرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري
١٢٩١	المطبعة الأميرية	تزيين الأسواق في أحوال العشاق لداود بن عمر
١٢٦٩	الموصل	فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه
١٢٥١	المطبعة الأميرية	كتاب الف ليلة وليلة

السنة	الطبع	
١٢٩٠	المطبعة الأميرية	نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي ...
—	باريس	كليلة ودمنة لابن المقفع
—	المطبعة الأميرية	حلبة الكيخ لشمس الدين النواجي
١٢٨٧	القسطنطينية	الموازنة بين أبي تمام والبحترى
—	—	مطالعات في لطائف العرب وربيع الأبرار للزخشمري وغير ذلك

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
 في يوم ٤ من شهر رمضان سنة ١٣٥٦
 (٧ من نوفمبر سنة ١٩٣٧) م
 مدير المطبعة الأميرية (بالتبابة)
 محمد بكري



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

[illegible]

893.7M883

R

MAR

5 1941

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58875395

893.7M883 R

Hadarat al-Islam fi